مكتبة

شيرلي جاكسون

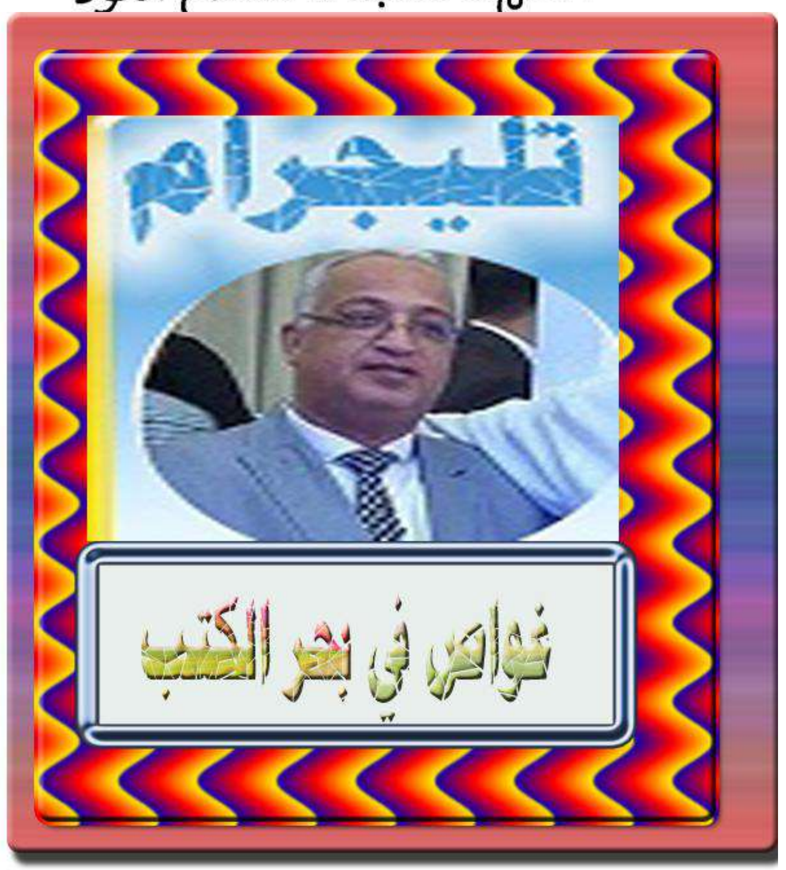
اليانصيب

وقصص أخرى



ترجمة: زياد عبدالله

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود



وقصص أخرى



Author: **Shirley Jackson**	اسم المؤلف: **شيرلي جاكسون**
Title: **The Lottery and other stories**	عنوان الكتاب: **اليانصيب وقصص أخرى**
Translated by: **Ziad Abdullah**	ترجمة: **زياد عبدالله**
Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**	تصميم الغلاف: **ماجد الماجدي**
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: **دار المدى**
First Edition: **2022**	الطبعة الأولى: **2022**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 — +961 706 15017 — +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +963 11 232 2289

ص.ب: 8272



شيرلي جاكسون

اليانصيب
وقصص أخرى

ترجمة: زياد عبدالله



إهداء الكاتبة

إلى أمي وأبي




تليجرام
غواص في بحر الكتب



تقديم

إنها شيرلي جاكسون (1916-1965) الكاتبة وربة البيت والساحرة. إنها الأم الطيبة التي تنكبّ ليلاً على دراسة الشرّ[1]. لقد ألّفت أكثر من مئتي قصة قصيرة، وستّ روايات، وكتبت مئات الرسائل لأمها، وتزوجت الناقد الأدبي ستانلي هيمن، وأنجبت منه أربعة أولاد، أحبّتهم جميعاً، وأحبّت القطط والكلاب، وشربت ما لا يحصى من قناني الويسكي والبوربون، ودخّنت عدداً لا متناهياً من السجائر، وتناولت طيفاً واسعاً من المسكّنات والمهدئات، وماتت وهي نائمة بنوبة قلبية، ولم تتجاوز الخامسة والأربعين من عمرها.

هذا تلخيص مكثّف لحياة جاكسون!

قد يكون مرعباً!

لا أعرف!

أو أنني أعرف ما يدفعني إلى مطالبتكم بنقيض حياة جاكسون الخاطفة، ألا وهو التروّي في مقاربة ما هو مرعب في قصص هذه المجموعة الأشهر لجاكسون، من دون اتخاذ احتياطات مسبقة، أو الإفراط في استنفار الحواسّ، فلكلّ شيء أوانه وفق منطق القصّ لدى جاكسون، وهي لا تستعجل شيئاً من الأحداث والوقائع، وتخوض غمار التفاصيل، ففي الحياة التي ترصدها منعطفات لنا أن نحبس أنفاسنا فيها لهنيهة كأنها الدهر.

وعليه، يمكنكم أن تترقّبوا في قصص جاكسون أحداثاً عادية تقع في

1- وردت هذه الصفات في رسالة لها لأمها تتندّر فيها من إصرار الناشرين والصحف على تصدير صورتها بوصفها ساحرة تتقن وتمارس أعمال السحر، والإيغال في حسر أدبها في ما هو مرعب، لأغراض ترويجية.

سياقات غريبة، وأحداثاً غريبة في سياقات عادية، مع الانفتاح على احتمالات كثيرة حافلة بالمقلق والمخيف، سواء نبع ذلك من تفاصيل حياتية، أو جاء جرّاء تدخل قوة خفيّة، أو شبحية تنبع من أعماق الشخصيات، من فعلها وردّ فعلها، حتى وإن احتفظت الشخصية ومن تصارعه بكونهما أناساً عاديين، وظلّ مثلاً المتشرد متشرداً، والموظفة موظفةً، إذ ما من أشباح شبيهة بتلك التي في روايتها الشهيرة «سكنى بيت التل»[1] (1959)، فالشبحيّ في هذه القصص آتٍ من تهويمات الشخصيات ومآزقها. فنحن لن نعرف، على سبيل المثال، ما إذا كان جيمس هاريس في قصة «عشيقة الشيطان» شيطاناً، ذلك أننا لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه يرتدي بدلة زرقاء، ومن المحتمل أنه اشترى باقة ورود، بينما العشيقة تواصل بحثها المحموم عنه.

إنها قصص حدثت بين أربعة جدران في شقة أو مكتب أو مطعم في نيويورك، أو في مطابخ أمهات ريفيات، أو انتقلن من المدينة إلى الريف. الريف منغلق، ومتخلف، وعنصري. المدينة وحش لا يروّض. إنها قصص قد تصبح فيها امرأة عاجزة عن العودة إلى شقتها التي لا يفصلها عنها سوى ممرّ مشاة، ولا شيء يعيقها سوى ذاتها، كما أن إقدام كلب على قتل دجاجات الجيران قد يؤدي إلى اكتشاف كم من الوحشية في براءة الأطفال... إنها قصص تتحول فيها ضربة حظّ إلى ضربة هلاك.

وهذا يدفعني إلى القول إن أدب جاكسون لم يكن فقط نقطة هامة ومفصلية في «الغوثيك» الأميركي، يكمّل منجز إدغار آلان بو وناثانيال هاوثورن في هذا السياق ويتناغم معه، مع تأثيرها في كتّاب معاصرين من أمثال نيل غايمان وستيفن كينغ وآخرين، بل هي أيضاً كاتبة نسوية بامتياز قبل أن يجري الحديث عن الحركة النسوية، ولكم أن تتلمّسوا بعمق مدى حضور ذلك في القصص. أما كونها ساحرة، فهي بلا شكّ اهتمّت بكتب السحر وقصص الساحرات، وتصديرها أقسام «اليانصيب وقصص أخرى» بمقاطع من كتاب جوزيف غلانفيل «سادوكيسموس تريمباتوس»، يقول

1- The Haunting of Hill House العنوان بالعربية كما اعتمد في ترجمة الرواية الصادرة عن دار أثر عام 2018.

الكثير في هذا الخصوص، والتي يمكن التعامل معها بوصفها إضاءات تمهيدية للقصص.

وكما هو واضح من عنوان هذه المجموعة فإنها تحتوي قصة «اليانصيب» التي ما إن نشرتها عام 1948 مجلة «نيويوركر» حتى ملأت شهرتها الآفاق وأصبحت جاكسون شاغل الناس في أميركا، ولتكون هذه المجموعة القصصية التي بين أيديكم الآن مترجمة إلى العربية، هي الوحيدة من مجاميعها القصصية التي قامت جاكسون بنفسها بإعدادها وترتيبها وتبويبها، وصدرت طبعتها الأولى عام 1949.

أعود إلى ما بدأت به من تلخيص لحياة جاكسون، لأقول: إن «اليانصيب وقصص أخرى» ستضعكم بلا أدنى شك أمام كاتبة ساحرة بحقّ، تتقن ألعابها القصصية الخاصة، وربة بيت تنفض الغبار عن أثاث بيتها، وتكنسه بمكنسة كهربائية صاخبة، وحين يأتي الليل ويأوي أولادها إلى النوم، تجلس إلى آلتها الكاتبة فيتحول الغبار إلى نجوم متلألئة، وترى المكنسة قبعة فتخرج منها أرنباً، وكلّ النساء وربات البيوت الكثيرات في قصصها متحلّقات حولها يصفّقن لها، وهي تنحني بأن تنكبّ أكثر على آلتها الكاتبة.

زياد عبدالله

-I-
السكران

احتكم على قدر من الهناءة والألفة مع البيت بحيث توجّه إلى المطبخ بنفسه، ليحضر ثلجاً كما بدا للوهلة الأولى، إلّا أنه للحقيقة أراد أن يستحضر بعض الصحو، هو الذي ما كانت صداقته بالعائلة تؤهّله أن يرتمي على أريكة الصالون غائباً عن الوعي. فارق الحفلة بلا تردّد، فارق المتجمعين حول البيانو وهم يغنّون «ستار داست»[1]، ومضيفته وحوارها الجادّ مع شاب بنظارات لامعة ورفيعة وفم واجم، ومشى مجتازاً بحذر مجموعة من أربعة أو خمسة أشخاص في غرفة السفرة، جالسين على كراسيّ مصمتة يسعون إلى حلّ معضلة متعلقة بهم؛ وتأرجح بابا المطبخ مباشرة في استجابة للمسته، وجلس إلى طرف طاولة سطحها نظيف وبارد تحت يده. وضع كأسه على شكل أخضر تزين به السطح، ورفع ناظريه ليرى شابة تتملّاه من طرف الطاولة الآخر.

«مرحباً، أنت الابنة؟». قال.

«نعم، أنا إلين». قالت.

بدت متضخّمة ومعتلّة المظهر، جرّاء ما ترتديه الفتيات في هذه الأيام، خلص إلى ذلك بضبابية، وشعرها مضفور في ضفيرتين استقرّتا على جانبي وجهها، وبدت يانعة ونضرة لا ترتدي ثياباً مناسبة، كنزتها أقرب للأرجواني وشعرها أسود. «أنت حلوة وصاحية»، قال، مستدركاً أنه من الخطأ قول شيء كهذا للفتيات.

1- Star Dust.

«أحتسي فنجاناً من القهوة، هل ترغب بواحد؟». قالت.

افترّت شفتاها عن ابتسامة، وبدا له أنها تتعامل بدراية وخبرة مع سكير فظّ. «شكراً لك، نعم أريد». بذل جهداً ليثبّت عينيه؛ وحين وضعت الفنجان أمامه استشعر سخونة القهوة. «أعتقد أنك تحبّها من دون حليب وسكر»، قرّب وجهه من البخار المنبعث منه تاركاً له أن يدخل عينيه علّه يصفي ذهنه.

«تبدو حفلة لطيفة»، قالت ببرود، «كلٌّ يستمتع بوقته».

«نعم هي كذلك». وهمّ بارتشاف القهوة الحارقة، راغباً في إخبارها أنها تساعده. فقد توقّف رأسه عن الدوران، وابتسم لها قائلاً: «شكراً لك، أشعر بتحسّن».

«لا بدّ أن الغرفة الأخرى دافئة جدّاً»، قالت ملطّفة الجوّ.

ضحك بصوت عالٍ فتجهّم وجهها، إلّا أنها عذرته كما تبين له، إذ إنها واصلت: «لقد كانت الحرارة شديدة في الأعلى، فقلت أنزل وأجلس هنا لبعض الوقت».

«أين تنامين؟ هل أيقظناك؟».

«كنت أنجز فروضي المدرسية».

نظر إليها مجدّداً، ورآها على خلفية حصص الإملاء والإنشاء، والكتب الدراسية التالفة، والضحك على مقاعد الفصول. «هل أنت في الثانوي؟».

«في المراحل الأخيرة من الثانوية». وبدا أنها انتظرت منه أن يقول شيئاً، فأردفت: «لقد تأخرت سنة جرّاء إصابتي بالتهاب رئوي».

بدا صعباً عليه استخلاص شيء يقوله (سؤالها عن الفتية؟ عن كرة السلة؟)، وهكذا تظاهر بأنه يستمع إلى الضجة البعيدة المنبعثة من واجهة البيت. «إنها حفلة لطيفة»، قال مجدّداً وقد تملكته الحيرة.

«أحسب أنك تحب الحفلات»، قالت.

حدّق إلى فنجان القهوة الفارغ مشدوهاً. وعلى فرض أنني أحبّ الحفلات بحقّ، فإن نبرة صوتها حيّرته وفاجأته، ونمّت عمّا سيقول سيكون بمثابة إعلان عن نزال بين مصارعين ووحوش، أو أن ناسكاً سيرقص الفالس

مع رجل مجنون في حديقة. أنا أكبرك بضعفي عمرك، فكّر، لكن لم يمضِ وقت طويل على الزمن الذي كنت أنجز فيه فروضي المدرسية. «هل تلعبين كرة السلة؟».

«لا».

ضايقه وجوده في المطبخ بدايةً، وأنها تعيش في البيت، وعليه مواصلة حديثه معها. «ما هو موضوع فروضك؟» سأل.

«أكتب بحثاً يتناول مستقبل العالم»، قالت. وأردفت مبتسمةً: «يبدو سخيفاً، أليس كذلك؟ أظنّ أنه سخيف».

«الحضور في الحفلة يتحدثون عنه. وهذا من الأسباب التي قادتني إلى هنا». ظهر جليّاً بالنسبة إليه اعتقادها أن ذلك ليس السبب الذي قاده إلى هنا، فاستدرك قائلاً: «ما الذي تقولينه بخصوص مستقبل العالم؟».

«لا أعتقد أن لديه مستقبلاً واعداً، على الأقل كما يبدو الآن».

«من الممتع أن يكون المرء حيّاً»، قال كما لو أنه ما زال في الحفلة.

«حسناً، في النهاية فإن استشراف المستقبل لن يحول دون كونه كذلك».

حدّق إليها لبعض الوقت، بينما هي شاردة تتأمّل أصبع رجلها في الحذاء، محركة قدمها إلى الأمام والخلف، ملاحقة لها بناظريها. «إنها أوقات مخيفة تلك التي يجب فيها على فتاة في السادسة عشرة من عمرها أن تفكر في شيء كهذا». ورغب أن يقول ساخراً، في أيامي لم تكن الفتيات يفكرن بشيء سوى الكوكتيلات والعناق.

«أنا في السابعة عشرة». رفعت رأسها مبتسمة في وجهه. «هذا فارق كبير».

«في أيامي»، قال مشدّداً: «لم تكن الفتيات يفكرن بشيء سوى الكوكتيلات والعناق».

«هذا جزء من المشكلة»، أجابته بجدية. «لو أن الناس خافوا بصدق وإخلاص في مرحلة الشباب لما وصلنا إلى هذه الدرجة من السوء اليوم».

تجاوز صوته الحدّ المطلوب قائلاً: «حين كنت شاباً!»، وأشاح عنها إشاحة جزئية ليبدي لها نصف الاهتمام الذي يبديه رجل كبير يعطف على

صغير: «تراءى لنا أننا خائفون. هذا يشمل كلّ الفتية في السادسة عشرة والسابعة عشرة. هذا جزء من المرحلة العمرية التي تمرّين بها، مثل أن تكوني مهووسة بالفتية».

«تكوين ذلك المستقبل لا يفارقني». تكلّمت برقّة مفرطة، ووضوح شديد، لدرجة سمّرت ظهره إلى الحائط. «يوماً ما ستختفي الكنائس أولاً، قبل اضمحلال الأمباير ستيت[1]. وبعدئذٍ تنزلق ببطء كلّ تلك العمارات على ضفة النهر بشققها وسكانها نحو المياه. والمدارس أيضاً في منتصف حصة اللغة اللاتينية، بينما نقرأ قيصر». حدقت إلى وجهه، بنظرة استفزازية ساهمة. «في كلّ مرة نبدأ فيها فصلاً جديداً من قيصر، أتساءل ما إذا كان هو الفصل الذي لن ننهيه. قد نكون في حصة اللغة اللاتينية آخر من سيقرؤون قيصر».

«هذه أنباء سارة، لطالما كرهت قيصر». قال باستخفاف.

«أظنّ أن الجميع كرهوا قيصر في شبابهم»، قالت ببرود.

احتفظ بصمته لدقيقة ثم قال: «من السخافة بمكان أن تملئي رأسك بهذا الهراء السقيم. اشتري مجلة عن الأفلام وصفّي رأسك».

«سيكون بمقدوري الحصول على جميع المجلات السينمائية التي أريد»، قالت بنبرة ملحّة. «ستتهشّم القطارات، كما لك أن تستنتج، وستسحق خزن المجلات. ستتمكن من أخذ أيّ قطعة حلوى تريدها، والمجلات، وأحمر الشفاه، والورود الاصطناعية من محلات الخمسة إلى عشرة سنتات، وستتناثر الفساتين ومعاطف الفرو من المحال وتترامى على امتداد الشارع».

«أتمنى أن تخلّع أبواب محال بيع الكحول»، قال وقد فرغ صبره منها، «سأقصدها وآخذ صندوقاً من البراندي ولن أبالي بشيء حينها».

«ستمسي أبنية المكاتب أكواماً من الحجارة»، قالت وعيناها النجلاوتان الواثقتان ما زالتا تحدقان إليه. «لو أني أعرف تماماً متى سيحدث ذلك».

«فهمت، نعم فهمت، ولي أن أختفي كما البقية».

«سيختلف الأمر حينها، سيختفي كلّ ما جعل العالم على ما هو عليه

1- ناطحة السحاب الشهيرة في نيويورك التي شيّدت بين عامي 1930-1931. المترجم

الآن. سيكون لدينا قوانين جديدة وأساليب عيش جديدة. قد ينصّ قانون على منع السكن في البيوت، وبالتالي لن يستطيع أحد الاختباء من أحد».

«ربما سيكون هناك قانون يقضي بملازمة الفتيات بعمر السابعة عشرة المدرسة ليتعلّموا المنطق»، قال وهو يقف.

«لن يكون هناك مدارس»، قالت بحزم. «لن يتعلم أحد أيّ شيء، مما يحول دون العودة إلى حيث نحن الآن».

«حسناً»، قال مع ابتسامة خفيفة. «تجعلين الأمر مثيراً للاهتمام، إلّا أنني لن أكون متواجداً لأشهده». توقّف، وكتفه مستندة إلى الباب المتأرجح لغرفة السفرة. أراد بقوة أن يتوجّه إليها بقول راشدٍ ولاذع، مع حرصه أيضاً على ألّا يبدو بأنه كان منصتاً إليها، عدا عن تأكيده بأنه ما كان ليتكلّم هكذا في شبابه. قال في النهاية: «إن كنت تواجهين مصاعب في اللغة اللاتينية فبإمكاني مساعدتك».

صدمته بضحكها، وقالت: «ما زلت أقوم بفروضي الدراسية كلّ ليلة».

عاد إلى الصالون، والناس يمرحون حوله، والمجموعة المتحلّقة حول البيانو باتت تغنّي الآن «هوم أون ذا رينج»[1]، ومضيفته تخوض حواراً جادّاً مع رجل طويل أنيق يرتدي بدلة زرقاء. عثر على والد الفتاة وقال له: «لقد خضت حواراً ممتعاً جدّاً مع ابنتك».

تفقّد مضيفه الغرفة حوله بناظريه. «إلين؟ أين هي؟».

«في المطبخ. تنجز فروض اللغة اللاتينية».

«أعرف». وأردف من دون أيّ تعبير على وجهه: «بلاد الغال مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء»[2].

«إنها فتاة استثنائية بحقّ».

هزّ مضيفه رأسه متأسّفاً وقال: «بنات هذه الأيام».

1- Home on The Range.

2- وردت في الأصل باللاتينية Gallia est omnia divisa in partes tres وهي عبارة مقتبسة من كتاب يوليوس قيصر «تعليقات على الحروب الغالية» 58–49 ق.م.

عشيقة الشيطان

لم تنل قسطاً وافياً من النوم، إذ إنها أوت متثاقلة إلى السرير مذ غادر جيمي في الواحدة والنصف، ولتستيقظ في السابعة، وتنهض في النهاية وتعدّ القهوة. نامت على نحو متقطع، تفتح عينيها، تحدق في شبه العتمة حولها، تحاصرها ذاكرتها وهي تستعيد وتستعيد، ثم تنسلّ مجدّداً إلى حلم محموم. أمضت ما يقرب الساعة في احتساء قهوتها -سيتناولان فطوراً معتبراً متى ما جاء- وما لم ترغب بارتداء ثيابها، فإنه ما من شيء لتفعله. غسلت فنجان قهوتها ورتّبت سريرها، وعاينت بحرص الثياب التي تنوي ارتداءها، وهي تتفقد عبر النافذة بقلق لا داعي له ما إذا كان اليوم صحواً. جلست لتقرأ، وخلصت إلى إنها ستكتب رسالة إلى أختها بدلاً عن القراءة، وبدأت تكتب بخطّها الجميل: «غاليتي آن، وبينما تصلك هذه الرسالة أكون قد تزوّجت. ألا يبدو هذا مضحكاً؟ لا أقوى أنا نفسي على تصديق ذلك، لكن عندما أخبرك كيف حدث ذلك، فإنك ستدركين أنه أشدّ غرابة...».

بقيت جالسة، والقلم بين أصابعها، وهي متردّدة في أن تكمل. قرأت الأسطر التي كتبتها، ثم مزّقت الرسالة. توجّهت نحو النافذة ورأت بأنه يوم مشرق لا محالة. خلصت إلى أنها لن ترتدي ثوبها الحريري الأزرق، فهو عاديّ جدّاً، يكاد يكون كالحاً، وقد رغبت بأن تنعم بالرقّة، والأنوثة الطاغية. استخلصت بشرود فساتينها من الخزانة، وتردّدت أمام ثوبها المطبّع الذي ارتدته في الصيف الماضي، إنه شبابيّ كثيراً عليها، وله ياقة منفوشة، ما زال مبكراً ارتداء ثوب ملوّن، لكن ما زال...

علّقت الثوبين بعضهما إلى جانب بعض على باب الخزانة من الخارج

وفتحت بحذر الباب الزجاجي لمطبخها الصغير الأشبه بخزانة. أوقدت النار تحت ركوة القهوة، وتوجّهت إلى النافذة، الجوّ مشمس. حين بدأت الركوة تقرقر عادت وصبّت القهوة في فنجان نظيف. سيدهمني ألم في الرأس ما لم أتناول في الحال وجبة حقيقية، ومضت تستعيد السجائر الكثيرة التي دخّنتها والقهوة التي احتستها على معدة خاوية. وجع رأس في يوم زفافها. توجّهت إلى الحمام وأخرجت من الخزانة علبة أسبرين صغيرة وأودعتها داخل محفظتها الصغيرة الزرقاء. عليها أن تبدّل المحفظة بأخرى بنية إن كانت سترتدي الثوب المطبّع، والمحفظة البنية الوحيدة التي لديها مهترئة. ومضت تنظر بقنوط إلى ثوبها المطبّع ومحفظتها الزرقاء أمامها، ثم إنها تخلّت عن المحفظة، وأخذت قهوتها وجلست تحتسيها إلى جانب النافذة، وهي تتحرّى شقتها المكونة من غرفة واحدة. خطّطا أن يعودا الليلة إلى هنا، وعلى كلّ شيء أن يكون منسّقاً مرتّباً، ولتتذكّر بهلع نسيانها تبديل ملاءات السرير، وقد أودعت الملاءات وغطاء الوسادة النظيفة في رفّ الخزانة بعد أن تسلّمتها من المصبغة، فأخرجتها وأزالت ملاءات السرير القديمة، وانهمكت في تبديلها متجنّبةً التفكير بالسبب الذي يدفعها إلى ذلك. سريرها سرير استديو له غطاء يجعله أشبه بالأريكة، وحين فرغت فإن أحداً لن يتبيّن أنها استبدلت الملاءات بأخرى نظيفة. أخذت الملاءات وغطاء الوسادة القديمة إلى الحمام ووضعتها في سلّة الغسيل، كذا فعلت بالمناشف، التي استبدلتها بأخرى نظيفة. حين عادت إلى قهوتها وجدتها باردة، لكنها احتستها على كلّ الأحوال.

حين رأت أن الساعة تجاوزت التاسعة، استشعرت تأخرها في النهاية. استحمّت، واستخدمت واحدة من المناشف النظيفة، ثم وضعتها في السلّة واستبدلتها بواحدة أخرى نظيفة. ارتدت بتأنٍّ ثيابها الداخلية النضرة وأغلبها جديدة، وأودعت كلّ ما كانت ترتديه بالأمس بما في ذلك ثياب النوم في السلّة. حين أصبحت على أهبة ارتداء الثوب، تردّدت أمام باب الخزانة. الثوب الأزرق لائق بلا أدنى شك، ونظيف، ويفي بالغرض، لكنها ارتدته مرات عدة لرفقة جيمي، وما من شيء خاصّ فيه ليكون صالحاً ليوم الزفاف. الثوب المطبّع فائق الجمال، وجديد بالنسبة إلى جيمي، وإن كان ارتداؤه في

فترة مبكرة من العام لا يتناسب مع الفصل، لتخلص في النهاية، إلى أن هذا اليوم هو يوم زفافي، وأستطيع لبس ما أشاء، وعليه، أخذت الثوب المطبّع من العلّاقة. حين ارتدت الثوب ونزل عليها مارّاً برأسها أحسّت بإنعاشه ولطافته، لكن حين نظرت في المرآة تذكّرت أن الياقة المكشكشة لن تُظهر حنجرتها مهما كان لذلك من مزايا، وبدت التنورة المتطايرة بلا أدنى شكّ مناسبة لفتاة تحبّ الركض بحرية، والتراقص والتمايل بوركيها حين تمشي. إدامتها النظر في المرآة عكّر مزاجها فجأة، وخاطبت نفسها قائلة: كما لو أنني أسعى لأبدو أجمل مما أنا عليه، كرمى له. وسيفكّر بأنني أودّ أن أبدو أصغر عمراً لأنه سيتزوجني، ولتقوم بشدّ الثوب المطبّع محدثةً فتقاً تحت الإبط. أحسّت بثوبها الأزرق القديم بالارتياح والألفة، بعيداً عن البهجة. ليس مهمّاً ما أرتديه، خاطبت نفسها بحزم، واستدارت بأسى إلى الخزانة لترى ما إذا كان هناك شيء آخر. لم يكن ثمة ما يناسب زواجها من جيمي، وفكّرت لدقيقة بأن تتوجه بسرعة إلى محلّ قريب وتشتري منه ثوباً، إلّا أنها عدلت عن فكرتها حين أدركت أن الساعة صارت العاشرة، وليس لديها من وقت سوى لتصفيف شعرها والمكياج. أمر شعرها بسيط، ترفعه إلى الخلف وتعقده في عقدة عند أسفل الرقبة من الخلف، أما مكياجها فله توازن حساس بين طلّتها وشيء من المخادعة. لم تسعَ اليوم إلى إخفاء شحوب بشرتها، أو الخطوط حول عينيها، لئلّا تبدو بأنها تقوم بذلك كرمى لعرسها، رغم ضيقها بفكرة أن يتزوج جيمي بامرأة عجفاء تعلو وجهها الخطوط. حدّثتْ نفسها بقسوة أمام مرآة الحمّام، أنتِ في الرابعة والثلاثين من العمر. في الثلاثين كما تحمل رخصة السواقة.

اجتازت الساعة العاشرة بدقيقتين؛ ولم تكن راضية عن ملابسها أو وجهها أو شقّتها. سخنت القهوة مجدّداً وجلست على الكرسي قرب النافذة. لم يعد بوسعها فعل أكثر من ذلك الآن، ولا معنى لمحاولتها تحسين أيّ شيء في اللحظة الأخيرة.

هدّأت من روعها وتصالحت مع نفسها محاولةً التفكير في جيمي، إلّا أنها لم تتمكن من استعادة وجهه بوضوح أو سماع صوته. طمأنت نفسها بالاعتقاد أن الوضع هكذا دائماً مع من تحبّ، وتركت لذهنها أن ينزلق في

أفكار عن الحاضر والماضي، وعن مستقبلهما حين يغدو جيمي أباً بعد أن يصبح كاتباً شهيراً وتتخلّى هي عن عملها، وعن المستقبل الذهبي في البيت الريفي الذي كانا يحضران له الأسبوع الماضي. «لقد كنت طبّاخة ماهرة»، قالت لجيمي ووعدته بأنها وفي وقت قصير ومع بعض التدريب ستتذكّر «كيف تصنع كعكة طعام الملائكة والدجاج المقلي وصلصة الهولانديز». أخبرته ذلك وهي تعرف أن لا شيء مما قالت علق بذهنه.

***

في العاشرة والنصف نهضت وتوجّهت نحو الهاتف لغرض في نفسها. اتصلت وانتظرت وأجابها صوت الفتاة الآلي: «... الساعة الآن تمام العاشرة وتسع وعشرين دقيقة». وبذهن مشتّت ضبطت ساعتها لتؤخرها دقيقة واحدة؛ ما تزال تتذكّر صوتها وهي تتحدث الليلة الماضية عند مدخل الباب: «العاشرة إذن. سأكون جاهزة. هل هذا حقيقي؟».

بينما جيمي يضحك في الردهة.

في الحادية عشرة رتقت الفتق في فستانها المطبّع وأعادت علبة الخياطة بعناية إلى مكانها في الخزانة، وجلست قرب النافذة مرتدية إياه لتحتسي فنجاناً آخر من القهوة. لكنت أخذتُ وقتي في تحضير نفسي لو علمت، لكن الوقت قد تأخر كثيراً الآن، وقد يحضر في أيّ لحظة، ولم تكن تجرؤ على إصلاح أيّ شيء من دون البدء به كلّيّاً من جديد. خلت الشقة من أيّ طعام غير ما خزنته بعناية لبدء حياتهما معاً: حزمة اللحم المقدّد المغلفة، ودزينة البيض في علبتها، الخبز والزبدة المغلفين لفطور الغد. فكرتْ بالنزول إلى الدكان لشراء ما تأكله وترك ملاحظة على الباب، إلّا أنها عدلت عن ذلك وقرّرت الانتظار لمزيد من الوقت.

في الحادية عشرة والنصف شعرت بالدّوار والوهن ما دفعها للنزول. لو كان لدى جيمي هاتف لاتصلت به، وعوضاً عن ذلك كتبت رسالة له: «جيمي، نزلت إلى الكافتيريا. سأعود بعد خمس دقائق». سرّب القلم حبراً على أصابعها فتوجّهت إلى الحمام لتغسلها واستخدمت المنشفة النظيفة وبدّلتها مجدّداً. ألصقت الرسالة على الباب، ومسحت الشقة بعينيها مجدّداً

لتتأكد من أن كلّ شيء في مكانه، أغلقت الباب من دون أن تقفله فقد يأتي في غيابها.

لم تجد في الكافتيريا ما تأكله عدا المزيد من القهوة، والتي لم تنهها، فقد فطنت فجأة إلى أن جيمي لربما ينتظرها الآن في شقتها بلهفة ونفاد صبر.

لكن وفي الأعلى كان كلّ شيء مجهزاً وساكناً كما تركته، وما تزال رسالتها معلقة على الباب، وهواء الشقة فاسد بعض الشيء من السجائر العديدة التي دخّنتها. فتحت النافذة وجلست قربها فأخذها النوم حتى الواحدة إلّا عشرين دقيقة.

داهمها الهلع في الحال، حين استيقظت فجأة في غرفة انتظارها وترقبها، حيث كلّ شيء نظيف لم يلمس منذ العاشرة صباحاً. ذُعِرتْ وحثّت نفسها على الإسراع. قفزت من كرسيها وهرولت نحو الحمام حيث رشقت وجهها بالماء البارد واستخدمت المنشفة النظيفة، والتي أعادتها هذه المرة بعناية إلى مكانها على الحامل ولم تبدّلها؛ سيتاح لها الوقت لذلك فيما بعد. خرجت من دون قبعة لافّةً معطفها فوق فستانها المطبّع حاملة حقيبتها الصغيرة الزرقاء غير المتناسبة مع فستانها وحبوب الأسبرين في يدها، أقفلت باب الشقة خلفها من دون أن تترك رسالة على الباب وركضت نازلة السلم. أوقفت سيارة أجرة عند زاوية الشارع وأخبرت السائق بعنوان جيمي.

كانت المسافة قصيرة جدّاً، ولأمكنها الذهاب مشياً لو لم تكن بهذا الإعياء، وأدركت فجأة في التاكسي أن قرعها باب جيمي أمر طائش. وهكذا طلبت من السائق أن ينزلها عند زاوية الشارع على مقربة من بيت جيمي، وبعد أن دفعت له انتظرته لحين ابتعاده قبل أن تتوجّه نحو المبنى. لم تأتِ إلى هنا من قبل، والمبنى لطيف وقديم ولا وجود لاسم جيمي على صناديق البريد في الدهليز، ولا أيّاً من أزرار الأجراس. تحقّقت من العنوان وكان صحيحاً، فكبست على جرس يحمل اسم «سوبرانتيندنت». رنّ طنّان الباب بعد دقيقة أو اثنتين من قرعها الجرس ففتحت الباب ودلفت في البهو المظلم حيث اعتراها التردّد إلى أن فُتح باب في النهاية وقال أحدهم: «نعم؟».

أدركت في تلك اللحظة أن لا فكرة لديها عن ما ستسأل عنه، فاتجهت

نحو الشخص الواقف في ضوء الباب المفتوح. حين اقتربت كثيراً، ردّد الشخص مجدّداً «نعم؟». ورأت أنه رجل يرتدي كنزة بلا أكمام ولا يستطيع أن يتبينها بوضوح بأكثر مما تفعل هي.

***

بشجاعة مفاجئة أجابته: «أحاول أن أجد شخصاً يعيش في هذا البناية إلّا أن اسمه ليس في الخارج».

فسألها الرجل عن اسمه وأدركت أن عليها أن نجيب.

فقالت: «جيمس هاريس... هاريس».

صمت الرجل لبرهة قبل أن يردّد... «هاريس» ثم التفّ نحو الداخل منادياً «مارغي، تعالَي لدقيقة».

«ماذا تريد الآن؟». أجابه صوت من الداخل، وبعد الانتظار للمدة التي يستغرقها نهوض أحدهم من كرسيه المريح، انضمت إليه امرأة في مدخل الباب المواجه للبهو المظلم.

«هناك سيدة تسأل عن رجل اسمه هاريس يعيش هنا. هل من أحدهم في هذا المبنى؟».

أجابته بالنفي بصوت متهكم: «ليس من رجل يدعى هاريس يسكن هنا».

اعتذر الرجل منها وشرع في إغلاق بابه قائلاً: «عذراً سيدتي، لقد قصدت البيت الخطأ» ليتابع بصوت منخفض: «أو الرجل الخطأ» وليضحك وزوجته.

قبل أن يغلق الباب تماماً أمامها وبينما تقف وحيدة في البهو المظلم خاطبت الشق الرفيع المضاء الذي ما يزال أمامها: «لكنه يعيش هنا... أعرف ذلك».

فتحت المرأة الباب قليلاً وخاطبتها: «انظري، يحدث ذلك كثيراً».

بصوت شديد الاستنكار محمّل بأربعة وثلاثين عاماً من الكبرياء المتراكم: «أرجوك لا تخطئي، أخشى أنك لا تفهمين».

من خلف الباب الموارب سألتها المرأة بتبرّم: «كيف يبدو؟».

«إنه طويل وفاتح البشرة، يرتدي بدلة زرقاء أغلب الوقت وهو كاتب».

***

أجابتها المرأة بالنفي، وقالت: «لربما يسكن في الطابق الثالث؟ لست متأكدة. هناك رجل كثيراً ما يرتدي بدلة زرقاء، سكن في الطابق الثالث لفترة من الزمن، فقد أعارته عائلة رويستر شقتها خلال فترة زيارتهم أهل السيدة رويستر شمالي الولاية».

«قد يكون هو؛ أحسب ذلك، رغم...».

«اعتاد ذلك الرجل لبس بدلة زرقاء غالباً، لكني لا أعرف إن كان طويلاً... لقد مكث هناك قرابة الشهر».

«منذ شهر حين -----».

«لمَ لا تسألين عائلة رويستر، فقد عادوا هذا الصباح... الشقة 3B » قالت المرأة وأغلقت الباب تماماً.

كان البهو حالك الظلمة وبدت السلالم أشد حلكةً.

انساب ضوء خفيف إلى الطابق الثاني آتياً من الضوء الخارجي البعيد في الأعلى، لتتبيّن أبواب الشقق المصطفّة بتحفّظ وصمت، أربعة في كلّ طابق. وكانت قارورة حليب متروكة خارج الشقة C2.

انتظرتْ قليلاً في الطابق الثالث حيث صوت الموسيقى ينبعث من خلف باب الشقة 3B وتتناهى إليها أصوات أشخاص. قرعت الباب أخيراً، ثم قرعته مجدّداً. فُتح الباب واجتاحتها الموسيقى. فقد كانت سمفونية بعد الظهر تُبثّ عبر الراديو. خاطبت المرأة التي فتحت لها الباب بتهذيب:

«مرحباً... سيدة رويستر؟».

«نعم أنا هي». أجابتها المرأة بردائها المنزلي وبقايا المكياج على وجهها من الليلة الماضية.

«هل بإمكاني التحدث إليك لدقيقة؟».

«طبعاً» أجابتها السيدة رويستر من دون أن تتحرك.

«عن السيد هاريس».

«أيّ سيد هاريس؟». أجابتها السيدة رويستر بحزم.

«السيد جيمس هاريس الذي استعار شقتك».

«يا إلهي» أجابت السيدة رويستر وبدت كمن تفتح عينيها للمرة الأولى. «ماذا فعل؟».

«لا شيء. أحاول فقط أن أتواصل معه».

«يا إلهي» كرّرت السيدة رويستر بينما تفتح الباب أكثر وتدعوها للدخول ثم نادت: «رالف!».

كانت الشقة ما تزال غارقة بالموسيقى، وتوزعت حقائب سفر مفرغة جزئياً على الأريكة والكرسي والأرض. وانتشرت على الطاولة في الزاوية بقايا طعام حيث نهض شاب واتجه نحوهما، ولبرهة بدا شبيهاً بجيمي.

«ماذا هناك؟». تساءل.

بدا من الصعب التحدث والموسيقى صادحة إلّا أنها أجابته:

«سيد رويستر، أخبرني المشرف في الطابق السفلي أن السيد جيمس هاريس يعيش هنا».

«بالتأكيد، إن كان ذلك اسمه». أجابها.

«اعتقدت أنك أجرته الشقة»، ردّت عليه مندهشة.

فأجابها السيد رويستر أنه لا يعرف أيّ شيء عنه فهو أحد أصدقاء دوتي.

نفت السيدة رويستر كونه صديقها من مكانها قرب طاولة السفرة حيث كانت تدهن زبدة الفول السوداني على قطعة من الخبز. قضمت قضمةً وأكملت بصوت محشور بينما تلوّح بقطعة الخبز المدهونة بزبدة الفول السوداني أمام زوجها:

«ليس صديقي».

دفع السيد رويستر حقيبة عن الكرسي المحاذي للراديو وجلس عليه، والتقط مجلة عن الأرض قربه وواصل حديثه: «أنتِ أحضرته من أحد تلك الاجتماعات اللعينة... فأنا لم أتحدث إليه بأكثر من عشر كلمات».

«لكنكَ قلت لا بأس من تأجيره الشقة». قضمت قضمةً أخرى وأردفت: «ولم تقل كلمة واحدة ضدّه في النهاية».

«لا أقول شيئاً عن أصدقائكِ عادةً»، قال السيد رويستر.

إلّا أن السيدة رويستر ردّت عليه بتوعّد غامض: «لو كان صديقاً لي لكنت قلت الكثير، صدّقني».

قضمت لقمة أخرى وقالت: «صدقيني لكان قال الكثير».

«لقد اكتفيت مما سمعته، لا مزيد الآن»، قال السيد رويستر من فوق المجلة.

أشارت السيدة رويستر إلى زوجها بقطعة الخبز المدهونة بزبدة الفول السوداني وهي تردّ عليه: «أترى، هذا ما هو عليه الحال ليلاً ونهاراً».

حلّ الصمت فيما عدا صوت الموسيقى الصادح من الراديو بجانب السيد رويستر، أتبعته بصوت بالكاد وثقت أنه سيعلو على ضجيج الراديو: «هل رحل إذن؟».

«من؟». سألتها السيدة رويستر وهي تنظر من فوق علبة زبدة الفول السوداني.

«هو؟ لا بدّ أنه غادر هذا الصباح، قبل أن نعود. فليس هناك ما يدلّ عليه في أيّ مكان».

«غادر؟».

«كلّ شيء على ما يرام، على حاله تماماً. قلتُ لكَ إنه سيعتني بكلّ شيء على أكمل وجه. بوسعي دائماً أن أخمّن». قالت السيدة رويستر.

أجابها السيد رويستر: «لقد حالفك الحظّ».

لوّحت السيدة رويستر بالخبزة المدهونة بزبدة الفول السوداني وهي تردّ عليه: «كلّ شيء في مكانه. كلّ شيء كما تركناه تماماً».

«هل تعرفين أين هو الآن؟».

أجابتها السيدة رويستر بابتهاج:

«ليس لديَّ أدنى فكرة. لكن كما قلت، لقد ترك كلّ شيء على حاله. لماذا؟ لماذا تبحثين عنه؟».

«لأمرٍ في غاية الأهمية».

«آسفة لكنه ليس هنا». قالت السيدة رويستر التي تقدمت بتهذيب حين رأت زائرتها تتجه نحو الباب.

وأتبع السيد رويستر ذلك بالقول من خلف مجلته: «لربما رآه المُشرف».

حين أُغلق الباب خلفها غرقت في عتمة البهو مجدّداً، لكن صوت الراديو كان قد همد. وما إن وصلت إلى منتصف المجموعة الأولى من الدرجات حتى فُتح الباب ونادت السيدة رويستر: «إن رأيته سأخبره أنك تبحثين عنه».

أخذت تفكر خارج البناية في الشارع بما عليها فعله، فمن المستحيل أن تعود إلى البيت، وجيمي قابع في مكان ما بين هنا وبيتها. وقفت على الرصيف طويلاً، حتى إن امرأة تقف إلى النافذة المقابلة إلى الطريق، التفتت ونادت أحدهم من الداخل ليأتي وينظر إليها. فجأة اندفعت إلى داخل بقالة مجاورة للشقة على جانب الطريق المؤدي إلى شقتها. في الداخل جلس رجل ضئيل الحجم يقرأ جريدة مستنداً إلى النضد، حين دخلت نظر إلى الأعلى والتفّ من خلف النضد ليستقبلها.

قالت بخجل وهي أمام الخزانة الزجاجية المتضمنة لحوماً باردة وجبناً: «أسعى إلى لقاء رجل يعيش في شقة مجاورة، متسائلة ما إذا كنت تعرفه».

«لمَ لا تسألين الأناس هناك؟». قال الرجل، وقد زمّ عينيه، معايناً لها. حسبت أنه يتصرف على هذا النحو لأنها لم تشترِ شيئاً، وقالت: «آسفة، لكنني سألتهم وهم لا يعرفون شيئاً عنه، ويعتقدون أنه غادر هذا الصباح».

«لا أعرف ما الذي تريدين مني فعله»، قال، وهو يقترب مجدّداً من جريدته: «فأنا لا أقوم بمراقبة الغادي والرائح».

قالت بسرعة: «أحسب أنك لمحته، لا بدّ أنه مرّ من هنا قبل العاشرة بقليل. شاب طويل يرتدي بدلة زرقاء عادة».

«كم من الرجال ببدلات زرقاء يمرّون كلّ يوم من هنا سيدتي؟ هل تظنين أني لا أفعل شيئاً سوى—».

قاطعته معتذرة، ومضت خارجة وهي تسمعه يبرطم متذمراً.

توجّهت نحو زاوية الشارع وهي تفكر بأنه بالتأكيد قد اتخذ هذا الطريق، فهو المؤدي إلى بيتها، وخياره الوحيد للمجيء مشياً. ومضت بأفكارها متسائلة من أين له أن يعبر الشارع؟ وأيّ شخص هو حقيقةً – هل عبر الشارع من أمام بيته، أم من أيّ مكان آخر على الرصيف، أو لربما من ناصية الشارع؟

في الزاوية يوجد كشك صحف، لربما رأوه هناك. أسرعت إلى هناك وانتظرت حتى فرغ رجل من شراء جريدة وامرأة من السؤال عن الاتجاهات. وحين نظر إليها بائع الجرائد بادرته بالسؤال: «لربما يمكنك أن تخبرني إن مرّ بك شاب طويل القامة يرتدي بدلة زرقاء اللون هذا الصباح حوالي العاشرة؟». حين نظر البائع إليها جحظت عيناه وفغر فمه قليلاً، ما جعلها تفكر بأنه لربما يظنّ سؤالها نكتةً أو مقلباً فاستدركت: «الأمر مهم للغاية، أرجو أن تصدقني، فأنا لا أسعى لإزعاجك».

«حسناً سيدتي»، إلّا أنها قاطعته متلهفة: «إنه كاتب، ولربما اشترى مجلة من هنا».

«ما الذي تريدينه منه؟». سألها البائع مبتسماً، وشعرت أن هناك رجلاً آخر خلفها وأن هذه الابتسامة تشمله أيضاً. ما دفعها للتراجع قائلة: «لا عليك» إلّا أن بائع الجرائد تابع: «اسمعي، لربما مرّ بي». كانت ابتسامته تشي بأنه يعرف، وعبرت نظرته من فوق كتفها نحو الرجل الواقف خلفها. فجأة تذكرت بفزع فستانها المطبّع الشبابي أكثر من اللازم، فسحبت معطفها حولها بسرعة. أردف البائع بتروٍّ ووقار: «لست متأكداً تماماً، لكن لربما مرّ بي أحد يشبه صديقك هذا الصباح».

«حوالي العاشرة؟».

«نعم حوالي العاشرة صباحاً... شاب طويل ببدلة زرقاء. ولهذا لم يفاجئني سؤالك على الإطلاق».

«بأيّ اتجاه ذهب؟ الحيّ الفوقاني؟» قالت بحماسة مفرطة.

«نعم الحيّ الفوقاني، تماماً إلى الحيّ الفوقاني. بمَ أخدمك سيدي؟».

انسحبت إلى الخلف شادّة معطفها حولها. نظر إليها الرجل الواقف خلفها من فوق كتفه ثم تبادل النظرات مع بائع الجرائد، بينما كانت تفكر متردّدة في منح البائع بقشيشاً. أخذا بالضحك فمضت مسرعة لتعبر إلى الجهة المقابلة من الشارع.

الحيّ الفوقاني، هذا صحيح، وبدأت طريقها وهي تفكر بأنه لم يكن مضطرّاً لأن يعبر الطريق، يكفي أن يقطع مسافة ستة مبانٍ صعوداً ثمّ يلتفّ

منحدراً عبر شارع بيتي، طالما أنه اتجه إلى الحيّ الفوقاني. بعد مبنى تقريباً مرّت بمحل أزهار يعرض تنسيقاً للأعراس في واجهته، فخطر في بالها وبما أن اليوم عرسها فلربما ابتاع بعض الزهور لأجلها، وهكذا دلفت إلى المتجر. توجه نحوها بائع الأزهار الأحلس الأملس من آخر المتجر مبتسماً، وقبل أن يتمكن من قول أيّ شيء شرعت بالكلام حتى لا تتاح له فرصة التفكير بأنها ستشتري أيّ شيء: «من الضروري جدّاً أن أتواصل مع شاب قد يكون ابتاع من عندك الورود هذا الصباح... ضروري جدّاً».

وحين توقفت لالتقاط أنفاسها أجابها البائع: «أيّ نوع من الورود كانت؟».

«لا أعرف... فهو لم ----- إنه شاب طويل ببدلة زرقاء. حوالي العاشرة صباحاً».

«حسناً، في الحقيقة يؤسفني...».

إلّا أنها أردفت وكلّها أمل: «لكن الأمر في غاية الأهمية، لربما كان مستعجلاً حينها».

ابتسم بائع الورد بتهذيب مظهراً أسنانه الصغيرة كلّها واتجه نحو النضد حيث فتح سجلّاً كبيراً: «لأجلك فقط سيدتي... حسناً إلى أين تمّ إرسال الزهور؟».

«لماذا؟ لا أظن أنه أرسلها إلى أيّ مكان... فقد كان ذاهباً إلى – لاشيء، كان سيحضرها بنفسه».

بدا الاستياء على بائع الزهور وأصبحت ابتسامته مستهجنة وهو يردّ عليها، «سيدتي أحقاً... يجب فهم أنه إن لم أستند إلى شيء فـ...».

توسلته قائلة: «أرجوك حاول أن تتذكر... شاب طويل ببدلة زرقاء حوالي العاشرة هذا الصباح».

أغمض البائع عينيه ووضع أصبعاً على فمه وأخذ في التفكير عميقاً قبل أن يهزّ رأسه ويجيب: «للأمانة لا أستطيع التذكر».

شكرته بقنوط واتجهت نحو الباب، وعندها أوقفها البائع بصيحة حماسية مجلجلة: «انتظري! انتظري لحظة سيدتي». التفتت إلى البائع الذي كان يفكر ثانية محاولاً التذكر قبل أن ينطق أخيراً مستفسراً: «أقحوان؟».

ارتجف صوتها قليلاً وهي تجيبه مستجمعة نفسها: «لا... ليس لمناسبة كهذه، أنا متأكدة».

زمّ بائع الأزهار شفتيه ونظر بعيداً ببرود. «حسناً، فأنا لا أعرف ما المناسبة. لكنني متأكد تقريباً من أن الرجل الذي تسألين عنه قد جاء هذا الصباح واشترى دزينة من أزهار الأقحوان ولم يطلب خدمة التوصيل».

«هل أنت متأكد؟».

أجابها بحزم وقد طفت على وجهه ابتسامة تشي بالألمعية: «نعم... بالتأكيد إنه الرجل المنشود». بادلته الابتسامة وشكرته ومضت نحو الباب، فرافقها عبر المتجر عارضاً أزهاره عليها: «باقة أزهار جميلة؟ ورود حمراء؟ غاردينيا؟».

قالت له عند الباب: «لطفٌ منك أن تساعدني».

«دائماً ما تبدو النساء بأبهى طلة مع الورود»، قال حانياً رأسه لها: «ما رأيك بالأوركيد؟».

لكنها حين أجابته بالنفي، أخذ صوته نبرة بغيضة لئيمة قائلاً: «أتمنى أن تجدي الشاب الذي تبحثين عنه».

مضت في طريقها صعوداً وهي تفكر بأن الجميع يظنّ الأمر مضحكاً. سحبت معطفها وشدّته حولها بقوة، بحيث لم يظهر من فستانها المطبّع سوى الكشكش أسفله.

عند ناصية الشارع رأت شرطيّاً، فخطر لها أن تذهب إلى قسم الشرطة، فعادة ما يطلب الناس مساعدة الشرطة عندما يختفي أحدهم. لكنها سرعان ما استدركت، أيّ غبية سأبدو حينها، وتخيّلت نفسها تقف في قسم الشرطة وتقول: «نعم، كنا سنتزوج اليوم، لكنه لم يأتِ»، ورجال الشرطة، ثلاثة أو أربعة منهم متحلقون حولها ينصتون، ينظرون إليها، وإلى فستانها المطبّع، ومكياجها الفاقع، ويتبادلون الابتسامات. لن يكون بوسعها أن تخبرهم أكثر من ذلك، لن تتمكن من القول: «نعم، قد يبدو الأمر سخيفاً، أليس كذلك، أن أكون بكامل هندامي وأحاول أن أجد الشاب الذي وعدني بالزواج، لكن ماذا عن كلّ ما لا تعرفونه؟ فلديَّ أكثر من ذلك، أكثر مما تستطيعون رؤيته:

موهبة ربما، وشيء من خفة الدم، كما أنني سيدة لديها كبرياء وإحساس ورهافة ونظرة محدّدة واضحة للحياة... والتي قد تجعل الرجل راضياً ومنتجاً وسعيداً؛ هناك أكثر بكثير مما قد تظنونه بي عندما تنظرون إليَّ».

بدا جليّاً أن الشرطة خيار مستحيل، فما الذي قد يفكّر فيه جيمي عندما يسمع أنها أرسلت الشرطة تبحث عنه. «لا، لا»، قالت ذلك بصوت عالٍ وهي تسارع خطواتها، مما استوقف أحد المارة ودفعه للنظر إليها.

عند ناصية الشارع التالية -على بعد ثلاثة مبانٍ من شارع بيتها- جلس رجل عجوز شبه نائم على أحد الكراسي في منصة لتلميع الأحذية. وقفت أمامه وانتظرت لدقيقة قبل أن يفتح عينيه ويبتسم لها.

تدفّقت الكلمات على لسانها من دون تفكير: «آسفة على الإزعاج، لكنني أبحث عن شاب مرّ في هذا الطريق حوالي العاشرة صباحاً، فهل رأيته؟». ثم شرعت في وصفه: «شاب طويل ببدلة زرقاء يحمل باقة من الأزهار؟».

أومأ الرجل العجوز قبل أن تنهي كلامها ثم قال: «رأيته... أهو صديقك؟».

أجابته بنعم وابتسمت له لاإرادياً.

رمش الرجل العجوز بعينيه وأردف: «أتذكّر، فقد خمّنت أن ذاك الشاب ذاهب ليلتقي فتاته. فجميعهم يذهبون لملاقاة فتياتهم».

«من أيّ طريق ذهب؟ أعلى الشارع؟».

«نعم صحيح، كان متألّقاً بكامل هندامه يحمل أزهاراً وفي عجلة من أمره. لا بدّ أنه وجد فتاته».

شكرته وهي تبحث في جيوبها عن أيّ فكة.

أكمل الرجل العجوز: «ستسعد بالتأكيد لرؤيته بالهيئة التي بدا بها».

شكرته ثانية وأخرجت يدها فارغة من جيبها.

أيقنت للمرة الأولى بأنه ينتظرها الآن، فأسرعت مجتازة المباني الثلاثة، وتنورة فستانها المطبّع تتأرجح تحت معطفها، ثم التفت لتدخل إلى مبنى شقتها. لم تتمكن أن ترى نافذة بيتها من الزاوية ولا رؤية جيمي ينتظرها وهو ينظر منها، وأسفل المبنى كانت تركض تقريباً لتصل إليه.

ارتعش المفتاح بيدها أمام باب الطابق السفلي، وعندما رمقت الكافتيريا، تذكّرت ذعرها واحتساءها القهوة هناك هذا الصباح، وخرج عنها ما يشبه الضحكة. عند باب شقتها، عاجزة عن الانتظار أكثر، بدأت بالتحدث حتى قبل أن تفتح الباب: «- جيمي، أنا هنا، قلقت عليك جداً».

كانت شقتها بانتظارها، صامتة، مجدبة، وقد استطالت ظلال العصر من النافذة. للحظة وحين رأت فنجان القهوة الفارغ، ظنّت أنه كان هنا ينتظرها، قبل أن تعي أنه فنجانها الذي تركته منذ الصباح، تفقدت جميع أرجاء الغرفة، تفقدت الخزانة، الحمام...

«لم أرَه أبداً» قال موظف الكافتيريا. «متأكد من ذلك لأنني كنت سألحظ الأزهار. لم يأتِ أحد مثله».

الرجل العجوز عند منصة الأحذية وقف متيقظاً ليراها تقف أمامه ثانية فرحّب بها مبتسماً: «هل أنت متأكد؟ هل ذهب صعوداً في الشارع؟».

استنكر العجوز لهجتها مجيباً: «لقد راقبته، فقد رأيت فيه شاباً وجد فتاته، ولهذا راقبته حتى وصل إلى البيت».

«أيّ بيت؟».

أشار الرجل إلى نقطة في الشارع مجيباً: «هناك تماماً، في المبنى التالي. ذهب إلى بيت فتاته بكامل ألقه وأزهاره».

«أيّ بيت تماماً؟».

نظر إليها العجوز بارتياب وهو يجيبها: «تقريباً في وسط المبنى، لكن ما الذي تسعين إليه على أيّ حال؟».

ركضت مبتعدة عنه من دون أن تشكره، وتوجهت نحو المبنى التالي حيث أخذت تبحث عبر المنازل من الخارج إن كان جيمي ظاهراً من إحدى نوافذها، مصيخة السمع علّها تسمع ضحكته خارجة من مكان ما في الداخل.

جلست امرأة أمام أحد المنازل، تدفع عربة طفل إلى الأمام والخلف على طول ذراعها. الطفل غافٍ نتيجة الهزّ جيئةً وذهاباً.

غدا السؤال طليقاً على لسانها الآن: «المعذرة، لكن هل رأيتِ شاباً يدخل

أحد هذه البيوت حوالي العاشرة صباحاً؟ شاب طويل ببدلة زرقاء يحمل باقة من الأزهار؟».

توقّف فتى في الثانية عشرة من عمره تقريباً للاستماع، منقلاً ناظريه بينهما، وملقياً نظرة أحياناً على الطفل في العربة.

أجابتها المرأة متعبةً: «حسناً، أخذ الطفل حمامه في العاشرة صباحاً، فهل كنت لأرى رجلاً غريباً يسير في الجوار؟ أنا أسألك».

تكلّم الفتى وهو يشدّها من معطفها: «باقة كبيرة من الأزهار؟ لقد رأيته يا سيدتي».

خفضت ناظريها نحو الصبي الذي بادرها بابتسامة عريضة: «إلى أيّ بيت دخل؟». سألته باستغراب. ليسألها الصبي بإصرار: «وهل ستطلقينه؟»...

تدخّلت السيدة التي تهدهد طفلها معترضة بقولها: «ليس لطيفاً أن تسأل سيدة هكذا سؤال».

أكمل الصبي كلامه: «حسناً، لقد رأيته. لقد ذهب إلى هناك». وأشار بإصبعه إلى البيت المجاور. خفض الصبي صوته وتابع: «لقد لحقت به فأعطاني ربع دولار بعد أن قال لي، إنه يوم مهم بالنسبة لي يا فتى... أعطني ربع دولار أنتِ أيضاً».

أعطته دولاراً كاملاً سائلة: «أين؟». قالت.

«الطابق الأخير، فقد لحقته إلى هناك حتى أعطاني ربع الدولار». تراجع الفتى إلى الرصيف بعيداً عن متناولها حاملاً ورقة الدولار وسألها مجدّداً، «وهل ستطلقينه؟».

«هل كان يحمل أزهاراً؟».

«نعم»، قال الفتى، ثم صار يصرخ: «هل ستطلقينه سيدتي؟ هل أمسكت شيئاً عليه؟». وأخذ يتمايل نازلاً الشارع وهو يولول: «لقد أمسكت شيئاً على الرجل المسكين»، بينما ضحكت المرأة التي تهدهد الطفل.

كان الباب الخارجي لبناية الشقة التي أشار إليها الصبي غير مقفل، ولم يكن من أجراس في المدخل الخارجي ولا قوائم بأسماء السكان، والسلّم

ضيق ومتسخ؛ وانتهت إلى بابين في الطابق العلوي. عند عتبة الباب المواجه إلى الجهة اليمنى بقايا ورق تغليف أزهار وشريطة ورقية معقودة، كما لو أنها دليل، كما لو أنها الدليل الأخير في هذه المطاردة.

طرقت الباب وخيّل إليها سماع أصوات في الداخل، فانتابها الذعر من عدم معرفتها ما ستقوله إن وجدت جيمي في الداخل، إن جاء وفتح الباب؟ فجأة صمت الصوت في الداخل. طرقت الباب مجدّداً ووحده الصمت ما أجابها باستثناء ما يشبه ضحكات تناهت من بعيد. لربما رآني من الشباك، فالشقة تواجه الشارع، وقد أصدر ذلك الفتى الصغير ضوضاء مروعة. انتظرت قليلاً قبل أن تعاود طرق الباب ولم يكن إلّا الصمت.

أخيراً توجّهت إلى الباب الثاني في الطابق وطرقته. انفتح الباب متأرجحاً خلف يدها على عليّة بجدران مغطاة بألواح خشبية عارية وألواح أرضية غير مطلية. خطت إلى الداخل تجول بنظرها في المكان، لتجد الغرفة مليئة بأكياس من الجص، وأكوام من الصحف القديمة، وجذع شجرة مقطوع. طالعها صوت عرفت في الحال أن مصدره جرذ رأته بعدئذٍ يجلس قريباً جدّاً منها، بجانب الحائط، بوجهه اليقظ الشرير وعينيه البراقتين اللتين تراقبانها، فتعثّرت جراء اندفاعها بسرعة للخروج وإغلاق الباب خلفها، وعلقت تنورة فستانها المطبّع وتمزّقت.

تيقّنت من أن أحدهم داخل الشقة الأخرى لأنها كانت متأكدة من سماع أصوات خافتة وأحياناً ضحكات تخرج منها. عادت بعدئذٍ إلى الشقة مرات عديدة، كلّ يوم في الأسبوع الأول. مرّت بالشقة في طريقها إلى العمل صباحاً وعند عودتها مساءً، وفي طريقها لتناول العشاء وحيدة، ولكن لا يهمّ كم مرة وبأيّ قدر من الإصرار طرقت الباب، إذ إن أحداً لم يبادر إلى فتحه.



كما لأمٍ أن تفعل

أنجز ديفيد ترنير كلّ شيء بحركات خاطفة ووجيزة، سارع خطاه من موقف الحافلة نحو الدرب المظلّل بالأشجار وصولاً إلى شارعه. وصل إلى البقالة على الناصية، فتردّد وقد طالعه شيء عليه إحضاره. الزبدة، تذكّر فارتاح، ففي هذا الصباح، وطيلة الطريق المفضي إلى الموقف، كان يردّد: «زبدة»، لا تنسَ الزبدة وأنت عائد ليلاً إلى البيت، حين تمرّ بالبقالة تذكّر الزبدة. دخلها وانتظر دوره، معايناً المعلبات على الرفوف: نقانق لحم الخنزير في الخلف، ولحم العجل المفروم مع الذرة. وركز ناظريه على صينية مليئة بقطع الخبز الصغيرة، ثم مضت المرأة التي تتقدمه وأمسى مواجهاً للبائع.

«بكم الزبدة؟». سأل ديفيد بحرص.

«تسعة وثمانون»، قال البائع مباشرة.

«تسعة وثمانون؟». عبس ديفيد.

«هذا هو سعرها»، قال البائع، ونظر إلى زبون واقف خلف ديفيد.

«ربع باوند لو سمحت»، قال ديفيد: «وست قطع خبز».

مضى يفكر وهو عائد إلى البيت حاملاً كيسه، يجب عليّ من كلّ بدّ ألّا أشتري من هناك، إذ إنك ستحسب بأن عليهم معرفتي أكثر حتى يكونوا أكثر لطفاً معي.

كانت هناك رسالة من أمه في صندوق البريد، وضعها في كيس الخبز وصعد الدرج إلى الطابق الثالث. ما من ضوء منبعث من شقة مارسيا، الشقة الأخرى الوحيدة في الطابق. التفت ديفيد إلى باب شقته وفتحه، وما إن خطا داخلاً حتى تخاطفه الضوء.

الليلة، وكما في كلّ ليلة، بدت الشقة دافئة، وحميمة، وفي أحسن حال؛ الردهة الصغيرة، المتضمنة طاولة صغيرة وأربعة كراسي أنيقة، وصحفة الزهور المخملية الصغيرة المواجهة للجدران الخضراء الكامدة التي دهنها ديفيد بنفسه، وخلفها ركن المطبخ الصغير، ولتأتي بعد ذلك الغرفة الكبيرة حيث يقرأ ديفيد وينام، ويشكّل سقفها مصدر إزعاج دائم له؛ حيث الجصّ يتساقط من إحدى زواياه وما من قوة في العالم تحول دون ظهور ذلك بوضوح للعيان.

يواسي ديفيد نفسه بخصوص الجصّ دائماً بأنه ما لم يأخذ شقة مبنية بالحجر الرملي الأسمر القديم لما تساقط الجصّ، لكنه أيضاً، لما حصل على ردهة صغيرة وغرفة وسيعة ومطبخ صغير لقاء المبلغ الذي دفعه، في أيّ مكان آخر.

وضع الكيس على الطاولة وأخرج الزبدة ووضعها في الثلاجة والخبز في صندوقه. طوى الكيس الفارغ ووضعه في درج في المطبخ، ثم علّق معطفه على علّاقة الردهة ومضى إلى الغرفة الكبيرة، التي يسميها غرفة معيشته، وأضاء المصباح على طاولته. «ساحرة» هي الكلمة التي تدور في خلده واصفاً الغرفة بها، هو الذي لطالما كان مأخوذاً بتدرّجات الأصفر والبنّي، وقام بدهن طاولته ومكتبته والطاولات الصغيرة بنفسه، وكذا الجدران، وجال أصقاع المدينة بحثاً عن درجة اللون البني الدقيقة للستائر وأبهتها كما تخيّلها. شكّلت الغرفة مصدر رضا دائم: السجادة بلونها البني الغامق الفاره، والأثاث الأميل للأصفر، بينما طغى البرتقالي على غطاء الأريكة وظلال المصابيح. ومنحت صفوف النباتات على حافة النافذة مسحة الأخضر الذي تفتقده الغرفة؛ وديفيد الآن في طور البحث عمّا يزين به النضد الصغيرة، وقلبه متعلق بمزهرية خضراء شفافة لمزيد من الأزهار المخملية، وأشياء كهذه تكلّفه ما يفوق استطاعته، وخاصة بعد شرائه للفضيات.

لا يمكنه أن يخطو إلى الغرفة من دون أن ينتابه إحساس بأنه حيال أكثر بيت عاش فيه راحة؛ والليلة، كما دائماً، تحرّى بعينيه متملّياً الغرفة حوله، من الأريكة إلى الستائر وصولاً إلى المكتبة، متخيّلاً المزهرية الخضراء على الطاولة الصغيرة، فتنهّد ثم توجّه نحو مكتبه. أخذ قلمه من حامله، وورقة

من حافظة أوراق أنيقة على الطاولة، وكتب بتأنٍّ: «عزيزتي مارسيا، لا تنسَي موعدنا الليلة على العشاء. أنتظرك في السادسة». وقّع الرسالة بحرف «د» وأخذ مفتاح شقة مارسيا من صينية تحمل أقلام الرصاص على مكتبه. يحتفظ بمفتاح شقة مارسيا لأنها لا تكون متواجدة فيها حين يأتي عامل مصبغة الملابس، أو مصلّح الثلاجة أو الهاتف أو النوافذ، أو أيّ أحد يجب عليه دخول الشقة، والمؤجر صاحب البناية يعارض الصعود ثلاثة طوابق ليستخدم المفتاح المشترك. لم تسأل مارسيا يوماً الحصول على مفتاح شقة ديفيد وهو بدوره لم يعرضه عليها؛ ومن دواعي سروره أن يكون لديه المفتاح الوحيد لشقته، المستقر بأمان في جيبه؛ وفي هذا شعور جميل بالنسبة إليه، فهو صلب وصغير، والسبيل الوحيد إلى دخول بيته الدافئ الجميل.

ترك باب شقته مواربأ ومضى في البهو المظلم باتجاه الشقة الأخرى. فتح الشقة بالمفتاح وأنار الضوء. ليس لهذه الشقة أن تحظى برضاه؛ إنها مماثلة تماماً لشقته: ردهة صغيرة، ومطبخ صغير، وغرفة معيشة، وهي تذكّره على الدوام بيومه الأول في شقته، حين كانت فكرة تنسيق البيت بعناية شيئاً جعله أقرب إلى القنوط. بيت مارسيا عارٍ وعشوائي، ثمة بيانو أعطاه لها صديق وضِع كيفما اتفق، نصفه في الردهة، ولكون هذه الأخيرة ضيقة والغرفة الكبيرة تعمّها الفوضى فإنه من الصعب الجلوس براحة في أيّ مكان؛ سرير مارسيا غير مرتب وكومة من الغسيل مكوّمة على الأرض، وقد تركت النافذة مفتوحة طيلة النهار فبعثرت الريح الأوراق في كلّ مكان على الأرض. أوصد ديفيد النافذة، وحار بالذي يفعله بالأوراق، ليهمّ مسرعاً بوضع الرسالة على لوحة مفاتيح البيانو، موصداً الباب خلفه.

استردّ أنفاسه في شقته ومضى يعدّ العشاء بسعادة. كان قد أعدّ «روست بوت» للعشاء منذ الأمس؛ وأغلب الطبخة ما زالت في الثلاجة وقد قام بتقطيعها شرائح ونسّقها في صحن وزيّنها بالبقدونس. لون صحونه برتقالي مماثل للون غطاء الأريكة، ومن دواعي سروره أن تستقرّ السلطة في صحن برتقالي يحمل خضرة الخسّ والخيار. وضع حبوب القهوة للتحميص، وقطّع البطاطا للقلي، وحرصاً على حسن سير إعداد العشاء فتح النافذة للتخلص من رائحة قلي البطاطا، ثم مضى يعدّ المائدة فرحاً. حضّر غطاء

الطاولة في المقام الأول، أخضر غامق بالطبع، ومنديلين فاقعي الخضرة. الصحون البرتقالية، والفناجين وصحونها الصغيرة قمة في التناسق. صحن الخبز في المنتصف، إلى جانبه مرشَّتَي الملح والفلفل الشبيهتين بضفدعين. وضع كأسين -اشتراهما من متجر كلّ شيء بخمسة إلى عشرة سنتات- إلّا أنهما حملا شريطين أخضرين حولهما، وفي النهاية، وبمنتهى الحرص، جاء دور الفضيات. لقد قام ديفيد بشرائها، تدريجيّاً، مترئّفاً ومتلطّفاً، إلى أن تمكن من شراء طقم كامل، بادئاً باستكمال طقم لاثنين، ثم صار يزيد عليها إلى أن أصبح قادراً على توفير أطقم كاملة لأربعة أشخاص، وللدقة فإن لديه ما يخدم ستة أشخاص من دون أن تكون الأطقم كاملة تماماً، إذ ما زالت تنقصه شوكتا السلطة وملعقتا الشوربة. لقد اختار تصميماً رصيناً وجميلاً، يتناسب مع شتى أنواع الموائد وتنسيقاتها، ولتطالعه البهجة مع كلّ صباح وهو يبدأ فطوره بتناول حبّة الغريفون بملعقة من فضة، وسكين زبدة صغيرة رصينة للتوست، وأخرى صلبة قوية لكسر قشر البيض، وملعقة فضية رشيقة للقهوة، يضيف إليها السكر بملعقة خاصة. يضع ديفيد الفضيات في علبة تصون لمعانها، ويضعها في رفّ مخصص لها فقط، وقد قام بإنزالها بحرص شديد ليخرج منها الطقم المخصص لشخصين - سكينتين، شوكتين، شوكتين للسلطة، وشوكتين أخريين للفطيرة، ملعقتين، وأدوات خاصة لتقديم الأطعمة- ملعقة سكر، ملاعق السكب الكبيرة للبطاطا والسلطة، شوكة للحم، وشوكة مخصصة للفطيرة. حين صار على الطاولة الكثير من الفضيات التي تتخطى قدرة شخصين على استخدامها، أعاد الصندوق إلى الرفّ وخطا إلى الخلف، معايناً كلّ شيء ومثنياً على المائدة، حيث كلّ شيء برّاق ونظيف. بعدئذٍ توجّه إلى غرفة معيشته ليقرأ رسالة أمه وينتظر مارسيا.

نضجت البطاطا قبل قدوم مارسيا، ثم فجأة انفتح الباب مدفوعاً بقوة ووصلت مارسيا يصحبها الصخب والهواء النضر والفوضى. إنها امرأة طويلة حسناء ذات صوت عالٍ، ترتدي معطفاً متسخاً: «لم أنسَ يا ديفيد، أنا متأخرة كالعادة. ماذا حضّرت للعشاء؟ أنت لست بمجنون، أليس كذلك؟». قالت.

نهض ديفيد ليأخذ عنها معطفها. قال: «تركت لك رسالة».

«لم أرَها»، قالت مارسيا. «لم أقصد البيت. الروائح عظيمة».

قال ديفيد: «بطاطا مقلية. كلّ شيء جاهز».

«يا سلام». ارتمت مارسيا على الكرسي مادة رجليها أمامها، مسدلة اليدين. «أنا متعبة. الجوّ بارد في الخارج».

«يصبح الجوّ أكثر برودة حين أعود إلى البيت»، قال ديفيد وهو يضع العشاء على المائدة، صحن اللحم، السلطة، زبدية البطاطا المقلية. مضى جيئة وذهاباً بين المائدة والمطبخ متجنباً أقدام مارسيا. «أظن أنك لم تزوريني بعد أن أحضرت طقم الفضيات».

تمايلت مارسيا حول الطاولة لتلتقط ملعقة.

«جميلة»، قالت، ممرّرة أصابعها على نقشها: «يسرّني أن آكل بها».

«العشاء جاهز»، سحب ديفيد كرسيّها وانتظرها لحين جلست عليه.

جوع مارسيا دائم؛ وضعت اللحم والبطاطا والسلطة من دون أن تستخدم أدوات السكب الفضية، ومضت تأكل بحماس. «كلّ شيء جميل، الطعام رائع ديفيد».

«يسرّني أن يعجبك»، قال ديفيد. أعجبه ملمس الشوكة في يده، ومنظرها وهي تمضي إلى فم مارسيا.

«كلّ شيء»، قالت مارسيا ملوّحة بيدها شاملة كلّ شيء: «الأثاث، المكان اللطيف هنا، العشاء، وكلّ شيء».

«يروقني أن تكون الأشياء كذلك».

«أعرف ذلك». قالت بصوت يشوبه الأسى: «أظنّ أن على أحدهم أن يعلّمني».

«يجب عليك ترتيب بيتك، أن تحضري ستائر على الأقل، وتبقي نافذتك موصدة».

«أنسى ذلك على الدوام، ديفيد أنت طبّاخ عظيم». أبعدت الصحن عنها، وتنهّدت.

ابتهج ديفيد مما قالت وعلت الحمرة وجهه: «يسرّني أن يعجبك»، قال مجدّداً وضحك.

«أعددت ليلة أمس فطيرة».

نظرت إليه مارسيا لدقيقة ثم قالت: «فطيرة تفاح؟». هزّ ديفيد رأسه نافياً،

فقالت: «أناناس؟». وهزّ رأسه نافياً أيضاً، ولأنه ما عاد في وارد الانتظار أكثر قال: «كرز».

«يا إلهي!» نهضت ولحقت به إلى المطبخ وباتت تراقب من خلف كتفيه إخراجه الفطيرة بحرص من صندوق الخبز. «هل هذه أول فطيرة تصنعها؟».

«سبق وأن أعددت اثنتين، لكن هذه تتفوق عليهما».

راقبت بفرح تقطيعها إلى قطع كبيرة ووضعها في صحنين برتقاليين، ثم حملت صحنها إلى المائدة، وتذوقتها، وأومأت إيماءة تقدير. تذوقها ديفيد وعلّق: «أعتقد أنها حامضة قليلاً، لقد نفد من عندي السكر».

نظّف ديفيد المائدة وصبّ القهوة، وبينما هو عائد بإبريق القهوة إلى الموقد قالت مارسيا: «جرس بيتي يرنّ». فتحت باب الشقة وأنصتت، وبات بمقدورهما سماع صوت الجرس في شقتها. ضغطت على زرّ شقة ديفيد الذي يفتح باب المدخل في الأسفل، وتناهى إليهما وقع قدمين تصعدان السلّم. تركت مارسيا الباب مفتوحاً وعادت لتحتسي قهوتها. «إنه المؤجر على الأرجح»، قالت: «لم أدفع الإيجار كما في السابق». حين وصل وقع الأقدام أعلى الدرج صرخت مارسيا: «هالو؟». عائدة بكرسيها إلى الوراء لترى من الباب ردهة الطابق. ثم قالت: «لماذا يا سيد هاريس». نهضت وقصدت الباب وأمسكت به. «تفضل».

«قلت أمرّ بك»، قال السيد هاريس. كان رجلاً ضخماً استقرّت عيناه بفضول على فنجاني القهوة والصحون الفارغة على المائدة. «لا أريد أن أقطع عشاءكما».

«ما من مشكلة»، قالت مارسيا، وجرّته إلى الغرفة: «لا أحد غريب إنه ديفي. ديفي، إنه السيد هاريس، وهو يعمل في مكتبي. السيد تيرن ديفي. ديفي، السيد هاريس، يعمل في مكتبي».

«تشرّفت بمعرفتك»، قال ديفيد بتهذيب، ونظر إليه الرجل نظرة متفحصة، «كيف الحال؟».

«اجلس، اجلس»، مضت مارسيا تقول، دافعة الكرسي باتجاهه: «ديفي، هل لك أن تقدم فنجان قهوة للسيد هاريس؟».

«لا داعي لذلك» قال هاريس على الفور: «كنت مارّاً من هنا لا أكثر».

وبينما كان ديفيد يحضر فنجاناً جديداً وملعقة من علبة الفضيات، قالت مارسيا: «هل تحبّ الفطيرة المنزلية؟».

أقرّ السيد هاريس أنه نسي كيف تبدو الفطيرة المصنوعة في المنزل.

نادت ماريسا مبتهجة: «ديفي، هل لك أن تحضر قطعة من تلك الفطيرة؟».

أخذ ديفيد من دون أن يجيب، شوكة من صندوق الفضيات، وصحناً برتقالياً وضع فيه قطعة من الفطيرة. لم تكن مخطّطاته لهذا المساء واضحة، ربما كانا شاهدا فيلماً في السينما لو لم يكن الجوّ بارداً في الخارج، أو تجاذب أطراف الحديث مع مارسيا حول وضع بيتها؛ وقد استقرّ السيد هاريس على كرسيّه، وحين وضع ديفيد الفطيرة أمامه نظر إليها بإعجاب للحظة قبل أن يتذوّقها.

وليقول في النهاية وهو ينظر إلى مارسيا: «يا لها من فطيرة. إنها فطيرة جيدة حقّاً».

«أعجبتك؟». سألته بترقّب. نظرت إلى ديفيد من فوق رأس السيد هاريس وابتسمت. «هذه ثاني أو ثالث فطيرة أصنعها»، قالت.

رفع ديفيد يده ليعترض، إلّا أن السيد هاريس التفت إليه وسأله: «هل تذوّقت فطيرة أفضل من هذه في حياتك؟».

«لا أظنّ أن ديفي أعجبته كثيراً، إنها حامضة كثيراً عليه». قالت بخبث.

«أحبّ الفطيرة الحامضة»، قال السيد هاريس وهو ينظر شزراً إلى ديفيد. «أصلاً، يجب أن تكون فطيرة الكرز حامضة».

«على كلّ الأحوال، أسعدني أنها راقت لك». قالت مارسيا. أكل السيد هاريس آخر قضمة من الفطيرة، وأنهى قهوته، وأسند ظهره إلى الكرسي قائلاً لمارسيا: «لقد أسعدتني كثيراً زيارتك».

رغب ديفيد أن يتخلّص من السيد هاريس، لا بل تفاقم الأمر إلى ضرورة التخلّص من كليهما؛ فبيته النظيف، وفضياته الجميلة، ليست مطية للمزحة الرفيعة التي يقومان بها؛ إذ أقدم بشيء من الفجاجة بأخذ فنجان القهوة إلى

المطبخ، بعيداً عن ذراع مارسيا الممدودة على الطاولة، ووضعه في المطبخ، ثم عاد ووضع يده على فنجان السيد هاريس.

فقالت مارسيا: «لا داعي لذلك يا ديفي، صدقاً لا داعي». رفعت ناظريها إلى ديفيد، وابتسمت مجدّداً، كما لو أنها تتآمر معه على السيد هاريس. «سأرتّب كلّ شيء غداً، حبيبي».

«طبعاً»، قال السيد هاريس ونهض واقفاً. «دع ذلك جانباً. لنمضي إلى الداخل حيث نأخذ راحتنا».

نهضت مارسيا وقادته إلى غرفة المعيشة وجلسا على الأريكة. نادت مارسيا: «تعالَ إلى هنا ديفي».

استأثر بديفيد مشهد طاولته الجميلة مغمورة بالصحون الوسخة ورماد السيجارة، فحمل الصحون والفناجين والفضيات إلى المطبخ ووضعها في المغسلة، ولأنه ما عاد يحتمل فكرة جلوسهما هناك، والوخم مستحكم بهما، ارتدى رداء الجلي وهمّ بجليها بحرص زائد. وبين الفينة والأخرى كانت مارسيا تناديه وهو يجلي ويجفف: «ديفي، ماذا تفعل»، أو«توقف عن ذلك وتعالَ اجلس معنا». وحين قالت: «ديفي لا أريدك أن تجلي كلّ هذه الصحون»، قال السيد هاريس: «دعيه يعمل، إنه سعيد بذلك».

وضع ديفيد الفناجين الصفر وصحونها الصغيرة على الرفّ –ولم يعد بالمقدور تمييز فنجان السيد هاريس من بين صفّ الفناجين النظيفة، وإيّاها جرى استخدامها، ولا ذلك الذي علق على طرفه من أحمر شفاه مارسيا، أو ذاك الذي احتسى فيه ديفيد نفسه قهوته التي أنهاها في المطبخ– ولينزل في النهاية صندوق الفضيات، وليضع في البداية الشوك ولكلّ تجويف أن يتسع لشوكتين – ثم الملاعق، وقد استقرّ بعضها فوق بعض في التجاويف المخصصة لها، وكذا السكاكين، وقد وجدت أمكنتها، ووضع الغطاء الفاصل بينها وبين سكاكين الزبدة وملاعق السكب وسكينة الفطيرة، التي وضعها كلّها في أمكنتها وأغلق عليها الغطاء، ورفع الصندوق إلى الرفّ. عصر إسفنجة الجلي وعلّق ممسحة الجلي ونزع عنه الرداء، ومضى ببطء إلى غرفة المعيشة، حيث كانت مارسيا تجلس بالقرب من السيد هاريس يتبادلان حديثاً جديّاً.

«اسم أبي جيمس»، كانت مارسيا تقول مع مجيء ديفيد، كما لو أنها تخوض جدالاً. التفتت إلى ديفيد حين رأته وقالت: «لقد كان لطفاً كبيراً منك أن تجلي كلّ تلك الصحون بنفسك».

«ما من مشكلة»، قال ديفيد متبرّماً، بينما كان هاريس يرمقه بنفاد صبر.

«كان عليّ مساعدتك»، قالت مارسيا، ثم ساد الصمت، إلى أن كسرته مارسيا قائلة: «اجلس ديفي، ألا تريد أن تجلس؟».

انتبه ديفيد إلى نبرة صوتها؛ إنها من تلك التي تستخدمها المضيفة حين لا تجد شيئاً آخر تقوله، أو حين يأتي الضيف باكراً جدّاً، أو حين يبقى لوقت متأخر. إنها النبرة التي يفترض أن يستخدمها مع السيد هاريس.

«كنت أنا وجيمس نتكلّم حول...». توقفت مارسيا وضحكت: «عن ماذا كنا نتكلّم؟». سألت ملتفتة إلى السيد هاريس.

«لا شيء مهمّ»، قال السيد هاريس وعيناه على ديفيد.

«حسناً»، قالت مارسيا مخفضة صوتها. التفتت إلى ديفيد وابتسمت ببهجة وقالت مجدّداً: «حسناً».

أخذ السيد هاريس منفضة السجائر من الطاولة الصغيرة ووضعها على الأريكة بينه وبين مارسيا. أخرج سيجاراً من جيبه وقال لمارسيا: «هل يزعجك السيجار؟». وحين هزّت مارسيا رأسها نافية استخلص السيجار من غلافه برقّة وفتحه من نهايته. «دخان السيجار جيد للنباتات»، قال على نحو ملتبس، بينما كان يشعله بتدوير الولاعة حول بدايته، ولتتبع مارسيا ذلك بالضحك.

وبينما ديفيد واقف، فإنه كاد أن يقول شيئاً يبدأ بـ: «سيد هاريس، سأشكرك على...». إلّا أن ما قاله حقيقة، ومارسيا والسيد هاريس ينظران إليه: «أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب مارسيا».

نهض السيد هاريس وقال بمودّة: «لقد أسعدني بالتأكيد التعرّف عليك». وتصافحا مصافحة متراخية.

«أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب مارسيا». قال مجدّداً لمارسيا، وهي بدورها وقفت قائلة: «يؤسفني أن تغادرنا بهذه السرعة».

«لديَّ الكثير من العمل»، قال ديفيد بلطف يفوق ما أراده، وابتسمت مارسيا مجدّدة صيغتها التأمرية ومضت إلى المكتب قائلة: «لا تنسَ المفتاح».

أخذ ديفيد منها مفتاح شقتها مشدوهاً، وتمنى ليلة سعيدة للسيد هاريس، وتوجّه إلى الباب.

تبعه صوت مارسيا: «ليلة سعيدة عزيزي ديفيد»، وليجيبها: «شكراً بحقّ مارسيا على هذا العشاء الرائع». وأغلق الباب خلفه.

خرج إلى البهو ودخل شقة مارسيا؛ ما زال البيانو مائلاً، والأوراق متناثرة على الأرض، والغسيل مكوّم، والسرير غير مرتب. جلس على السرير ونظر حوله. كان الجوّ بارداً وعكراً، وما إن فكّر بدفء بيته حتى سمع صوتاً خافتاً لضحكة وزحزحة كراسيّ، ثم صدح مذياعه. انكب ديفيد متهالكاً على الأرض والتقط ورقة، ومضى بعدئذٍ يجمعها واحدة تلو الأخرى.

نزال لإحقاق الحق

حين عادت إيميلي جوهانسون في إحدى الأماسي إلى غرفتها المفروشة وتبيّنت أن ثلاثة من أفضل مناديلها مفقودة من درج منضدة الزينة، عرفت من أخذها وما الذي ستفعله بها. انتقلت إلى هذه الغرفة المفروشة منذ ستة أسابيع وباتت تفقد بين الفينة والأخرى أغراضاً صغيرة. اختفى العديد من المناديل والدبابيس التي اشترتها من متاجر كلّ شيء بخمسة إلى عشرة سنتات، ونادراً ما ارتدتها، وفقدت في إحدى المرات قنينة عطر صغيرة وطقماً من الجراء الخزفية. عرفت الفاعلة منذ مدة لا بأس بها، إلّا أنها الليلة قرّرت ما عليها فعله. تردّدت ولم تخبر المؤجرة صاحبة الغرفة لكون مفقوداتها قليلة الشأن، ولثقتها بأنها عاجلاً أم آجلاً ستعرف كيف تتعامل مع هذه الحالة. بدا لها من المنطقي في البداية أن يكون الشخص الذي يلازم البيت المقسّم إلى غرف متعدّدة للإيجار مصدراً للشك، لكنها في صبيحة يوم أحد، تشمّست على السطح، ثم نزلت الدرج عائدة إلى غرفتها، فرأت إحداهن تخرج من غرفتها وتمضي نازلة الدرج، وتبيّن لها من تكون. أحسّت الليلة بأنها تعرف ما عليها القيام به. نزعت عنها قبعتها ومعطفها، ووضعت أغراضها، بينما كانت تسخن علبة من «التامال»[1] على سخّانتها الكهربائية، مستعيدة ما تنوي قوله.

بعد تناولها عشاءها، أوصدت باب غرفتها وأقفلته ونزلت الدرج. طرقت برفق باب الغرفة الواقعة تحت غرفتها مباشرة، وحين تهيّأ لها أنها سمعت من يقول «تفضل»، قالت: «سيدة آلان؟». ثم فتحت الباب بحذر وخطت إلى الداخل.

1- طعام مكسيكي.

لاحظت إيميلي على الفور تطابق الغرفة مع غرفتها - السرير الضيق نفسه بغطائه البني، منضدة الزينة ذاتها المصنوعة من خشب القيقب، وكذا الكرسي؛ الخزانة في الجهة الأخرى من الغرفة، بينما استقرّت النافذة في المكان نفسه. كانت السيدة آلان تجلس على الكرسي، وهي في الستين من عمرها، وتبادر إلى ذهن إيميلي وهي واقفة على عتبة الباب والسيدة ساكنة، بأن عمر السيدة آلان ضعف عمرها. تردّدت لبضع لحظات، وهي تتملّى شعر السيدة آلان الأبيض النظيف وثوبها المنزلي الكحلي الأنيق. ولتقول: «سيدة آلان، أنا إيميلي جوهانسون».

وضعت السيدة آلان مجلة «وومنس هوم كومبانين» من يدها ووقفت ببطء، ثم قالت بحبور: «يسرّني أن ألتقيك، لقد رأيتك مرات عدة، وقلت في نفسي يا لجمالك. من النادر حقّاً أن نلتقي بأحد» - تردّدت ثم قالت: «يسرّني حقّاً... في مكان كهذا».

«وأنا أيضاً وددت لقاءك»، قالت إيميلي.

أشارت السيدة آلان إلى الكرسي الذي كانت تجلس عليه، «ألا تودّين الجلوس؟».

«شكراً، ابقي حيث كنت وأنا سأجلس على السرير»، قالت إيميلي مبتسمة. «أشعر بأنني أعرف أثاث الغرفة جيداً، إنه مماثل للذي في غرفتي».

«هذا مخجل، لقد أخبرت صاحبة البيت مراراً، بأنها لن تتيح للناس أن يألفوا بيوتهم ما دام الأثاث موحداً في كلّ الغرف، لكنها تحجّجت بأن الأثاث المصنوع من خشب القيقب جيد المنظر ورخيص». قالت السيدة آلان.

«أفضل من غيرها، لقد جعلتها تبدو أجمل من غرفتي». قالت إيميلي.

«لقد أمضيت ثلاث سنوات هنا. لم يمضِ على وجودك هنا سوى شهر أو ما يقرب ذلك، أليس كذلك؟».

«ستة أسابيع». قالت إيميلي، وأردفت: «أخبرتني صاحبة البيت أن زوجك في الجيش».

«نعم. لديَّ عملي هنا في نيويورك».

«زوجي كان في الجيش أيضاً»، قالت السيدة آلان مشيرة إلى مجموعة من الصور على منضدة الزينة. «هي صور ملتقطة منذ زمن طويل. لقد توفي منذ خمس سنوات تقريباً». نهضت إيميلي وراحت تتأمّل الصور. واحدة منها لرجل طويل جميل الطلعة بالزيّ العسكري. العديد من الصور كانت لأطفال.

«لقد كان رجلاً بهيّاً. هل هؤلاء الأطفال أولادك؟».

«ليس لديَّ أطفال للأسف، هؤلاء أولاد أخوة وأخوات زوجي».

وقفت إيميلي أمام المنضدة، ونظرت في الغرفة حولها: «أرى وروداً أيضاً»، ومضت نحو النافذة ورأت صفّاً من أصص النباتات «أحبّ الورود. لقد اشتريت الليلة باقة من زهور النجميّة لتضفي البهجة على غرفتي، لكنها ذبلت سريعاً».

«لهذا السبب أفضّل النباتات. لماذا لا تضعين الأسبرين في الماء الذي تضعين فيه الورود؟ ستعيش لزمن أطول».

«أخشى من أنني لا أعرف الكثير عن الورود، مثل المعلومة المتعلقة بالأسبرين».

«دائماً ما أفعل ذلك مع الورود المقطوفة، فالورود تمنح الغرفة جوّاً من الألفة».

وقفت إيميلي أمام النافذة، وراحت تنظر إلى المشهد الذي يطالع السيدة آلان يوميّاً: سلالم الحريق في البنايات المقابلة، مقطع من الشارع المائل في الأسفل. أخذت نفساً عميقاً والتفتت حولها قائلة: «للحقيقة هناك سبب لمجيئي».

«غير التعارف؟». قالت السيدة آلان مبتسمة.

«لا أعرف تماماً ما يجب عليّ فعله، وأنا لا أودّ أن أخبر صاحبة البيت بأيّ شيء».

«لا تقدم صاحبة البيت العون في الشدائد».

عادت إيميلي وجلست على السرير، وهي تنظر بجدّية إلى السيدة آلان، ترى فيها عجوزاً لطيفة: «إنه أمر بسيط، إذ ثمة من يدخل غرفتي».

رفعت السيدة آلان ناظريها نحوها.

«وهناك أشياء تختفي من غرفتي، مناديل، وحلي رخيصة. ليست بالأشياء المهمة. لكن هناك من يتسلّل إلى غرفتي ويأخذها».

«يؤسفني سماع ذلك».

«لا أريد المشاكل، فهمتِ. الأمر وما فيه أن أحداً ما يتسلّل إلى غرفتي، وأنا لم أفقد شيئاً ذات قيمة».

«فهمتك».

«انتبهت إلى ذلك منذ بضعة أيام، ورأيت الأحد الماضي بينما كنت عائدة من السطح أحداً ما خرج من غرفتي».

«هل تبيّنتِ من تكون؟».

«أظنّ أنني فعلت».

حلّ الصمت على السيدة آلان لدقيقة، وقالت في النهاية: «عرفت الآن لماذا لا تودّين إخبار صاحبة البيت».

«طبعاً لا أريد، فكلّ ما أريده أن يتوقّف ذلك».

«لا ألومك».

«هذا يعني أن لدى إحداهن مفتاح غرفتي».

«كلّ المفاتيح في البيت تفتح جميع الغرف. إنها أقفال قديمة» أخبرتها السيدة آلان.

«يجب إيقاف ذلك. وما لم يتمّ ذلك فيجب أن أتدبّر الأمر بنفسي».

«أتفهّم ذلك، الأمر برمّته مؤسف». نهضت السيدة آلان وأردفت: «أستميحك عذراً، فأنا سرعان ما يتسرّب إليّ التعب، ويجب عليّ أن آوي إلى الفراش باكراً. أسعدتني كثيراً زيارتك».

«وأنا سعدت كثيراً بأنني تعرّفت عليك أخيراً»، قالت ذلك وتوجّهت نحو الباب: «أتمنى ألّا أزعجك بهذا الحديث مجدّداً، تصبحين على خير».

«وأنت بخير».

حين عادت إيميلي في الليلة التالية، لاحظت اختفاء قرطين رخيصين، وعلبتي سجائر كانتا في درج منضدة الزينة. لازمت في تلك الليلة غرفتها

وهي تفكّر، ثم كتبت رسالة إلى زوجها وأوت إلى السرير. في صباح اليوم التالي ارتدت ثيابها وقصدت المقهى عند الزاوية واتصلت بمكتبها وقالت إنها مريضة ولن تستطيع المجيء، وعادت إلى غرفتها. جلست لساعة والباب موارب قبل أن تسمع باب غرفة السيدة آلان يفتح، وتنزل الدرج بخطوات بطيئة. حين أخذت السيدة آلان وقتها لتخرج إلى الشارع، أوصدت إيميلي بابها، ونزلت متجهة نحو شقة السيدة آلان.

ستتظاهر بأنها حسبتها غرفتها إن رآها أحد، وأنها أخطات في الطابق، فكّرت. حين فتحت الباب، بدت الغرفة للوهلة الأولى كما لو أنها غرفتها. رُتّب السرير بعناية ورفعت الظلّة. نظرت حولها في الغرفة، وداهمها شعور حميم فائق الألفة تجاه السيدة آلان، وانتابها إحساس بأنها ستشعر بالشيء ذاته إذا ما كانت في غرفتها. كلّ شيء مرتّب وبسيط. بدأت بحثها من الخزانة ولم تعثر على شيء، سوى معطف السيدة آلان المنزلي الأزرق وثوبين. توجّهت نحو منضدة الزينة وتأمّلت صورة زوج السيدة آلان، ثم فتحت الدرج الأول وبحثت فيه، وكانت مناديلها فيه مطوية ومرتّبة بعضها فوق بعض، وإلى جانبها علبتا السجائر والقرطان، وفي الزاوية كانت الجراء الخزفية. كلّ شيء موضوع ومرتّب هنا. أغلقت الدرج وفتحت اللذين تحته. كلاهما فارغان. عاودت فتح الدرج الأول، وعثرت إلى جانب أغراضها على زوج قفازات قطنية سوداء، وزوج آخر أبيض تحت مناديلها. وكان هناك أيضاً علبة مناديل وعلبة أسبرين صغيرة، «لنباتاتها» كما تبادر إلى ذهنها. كانت إيميلي تعدّ المناديل حين سمعت صوتاً جعلها تلتفت خلفها، فإذا بالسيدة آلان خلفها تراقبها بصمت. أوقعت إيميلي المناديل التي تحملها وخطت إلى الوراء، وأحسّت بالحمرة تعلو وجهها، وبارتجاف يديها. يجب عليك الآن أن تلتفتي إليها وتخبريها، خاطبت نفسها: «اسمعي يا سيدة آلان»، ثم صمتت.

«نعم؟». قالت السيدة آلان بلطف.

انتبهت إيميلي إلى أنها تحدّق إلى صورة زوج السيدة آلان، وقد بدا لها رجلاً رزيناً، ما دفعها للتفكير بأنهما أمضيا حياة هانئة معاً، وها هي تعيش الآن في غرفة مماثلة لغرفتها، تكاد لا تملك سوى منديلين.

«نعم؟». قالت السيدة آلان مجدّداً.

ماذا تودّ مني أن أقول. فكّرت إيميلي. ما الذي تتوقّعه من سيدة محترمة لبقة مثلها؟ «جئت»، تردّدت إيميلي. صوتي فيه من اللباقة الكثير، فكّرت، ثم تدافعت الكلمات على لسانها: «كنت أعاني من صداع قويّ، وحين لم أجدك قلت بأنك بالتأكيد لن تمانعي إن أخذت حبّة أو حبّتين من الأسبرين».

«يؤسفني ذلك، لكنك أسعدتني بأنك فعلت ما يشي بأنك تعرفينني جيداً».

«ما كنت أتصوّر أن آتي إلى هنا لولا أن الصداع كان قويّاً جدّاً».

«طبعاً، دعينا لا نتكلّم بالأمر». قالت السيدة آلان وتوجّهت نحو منضدة الزينة وفتحت الدرج. راقبتها إيميلي وهي واقفة بجانبها وهي تمرّر يدها على المناديل ثم تأخذ علبة الأسبرين. «خذي حبّتين منه ونامي لساعة».

«شكراً على لطفك»، قالت إيميلي وهي في طريقها إلى الباب.

«أخبريني إن احتجت إلى أيّ شيء».

«شكراً لك»، قالت إيميلي وهي تفتح الباب. تمهّلت قليلاً ثم قصدت السلّم صاعدة إلى غرفتها.

«سأزورك لاحقاً اليوم لأطمئن عليك». قالت السيدة آلان.

الفيلجر[1]

وقفت الآنسة كلارنس عند ناصية الجادة السادسة في الشارع الثامن لتنظر إلى ساعتها. إنها الثانية والربع؛ لقد وصلت أبكر مما توقّعت. دخلت إلى مقهى «والن» وجلست إلى «الكونتر» واضعة نسختها من «فيلجر» إلى جانب رواية «دير بارم»[2] التي كانت تقرؤها بحماسة وقد صولت صفحتها الخمسين وتحملها معها لحضورها المؤثر فيها. طلبت «دونات الشوكولا» وبينما كان العامل يحضر طلبها اشترت علبة سجائر «كوولس». عادت وجلست إلى «الكونتر»، فتحت العلبة وأشعلت سيجارة.

كانت الآنسة كلارنس في الخامسة والثلاثين من عمرها، وقد عاشت في «غرينويتش فيلج» لاثنتي عشرة سنة، إذ إنها قصدت نيويورك حين كانت في الثالثة والعشرين من عمرها قادمة من بلدة صغيرة شمالية لكي تصبح راقصة، ولأن كلّ من رغب أن يدرس الرقص أو النحت أو يتعلم تجليد الكتب كانت «غرينويتش فيلج» مقصده، معتمدين في عيشتهم على إعانات من أهاليهم وما يتلقونه جرّاء عملهم في متاجر «ميسز»،[3] أو في المكتبات، لحين تجميعهم مبلغاً كافياً ليواصلوا فيه مسيرتهم الفنية. نصيب الآنسة كلارنس كان بتعلّمها الكتابة الاختزالية والطباعة على الآلة الكاتبة، فعملت كاتبة اختزالية في شركة متخصصة بالفحم الحجري وفحم «الكوك»، وبعد اثنتي

1- فيلجر أو Villager نسبة إلى انتماء شخصية القصة الرئيسة إلى غرينويتش فيلج، وهو حيّ في الجزء الغربي من منهاتن في نيويورك. المترجم

2- رواية لستندال صدرت عام 1839. المترجم

3- سلسلة متاجر أُسست عام 1858 في منهاتن. وتتضمّن 867 متجراً في جميع أنحاء الولايات المتحدة حسب إحصاء 2019. المترجم

عشرة سنة أصبحت سكرتيرة في المجال ذاته، بدخل مناسب يتيح لها العيش في شقة جيدة في «فيلج» قرب الحديقة، وشراء ثياب مميزة، وهي ما زالت تحضر بين الفنية والأخرى عروض الرقص رفقة زميلة لها، وأحياناً تراسل صديقاتها القدامى في بلدتها مشيرة إلى نفسها بـ «المثابرة الصامدة في فيلج»، وحين يتاح لها التفكير في الأمر، ترى أنها جديرة بالثناء على براعتها وفاعليتها في عملها، وإعالتها نفسها بأفضل مما لو كانت في بلدتها الأم.

أنهت الآنسة كلارنس قطعة «الدونات» ونظرت إلى ساعتها مجدّداً، ثم دفعت حسابها وخرجت إلى الجادة السادسة، وأسرعت خطاها باتجاه وسط المدينة، وكلّها ثقة بمظهرها الحسن جرّاء ارتدائها بدلة رمادية زيّنتها بحلى نحاسية تحمل شارات ونقوشاً. خمّنت سريعاً أن البيت الذي تبحث عنه يقع غرب الجادة السادسة، وها هي تقف أمامه، معتزّة بنفسها، مقارنةً بين هذا المبنى وذاك الذي تقبع فيه شقتها الجميلة، فهي تسكن في بناء خلّاب يجمع بين القرميد والجصّ، وهو خشبي وعتيق، مع واجهة حديثة خادعة لا يمكن تبيّنها ما لم تنظر إلى أعلى المبنى وترى انعطافة القرن المعمارية. تأكدت الآنسة كلارنس مجدّداً من العنوان في «فيلجر»، ثم فتحت باب المدخل وخطت إلى البهو الكئيب. عثرت على اسم «روبرتس» والشقة 4B. تنهّدت ثم بدأت تصعد السلّم.

توقّفت في فسحة الطابق الثالث، وأشعلت سيجارة توحي بأنها تريد دخول الشقة بكامل جهوزيتها. في آخر السلّم إلى الطابق الرابع وجدت 4B وعلى الباب رسالة مثبتة بدبوس، نزعتها منه، ومضت بها إلى حيث يتوفر ضوء، وقرأت: «آنسة كلارنس، لقد اضطررت للخروج لبضع دقائق، سأعود في الثالثة والنصف. أرجو أن تدخلي وتعايني ريثما أعود – على كلّ قطعة أثاث سعرها. آسفة جدّاً على ذلك. نانسي روبرتس».

لم يكن الباب مقفلاً بالفعل، وخطت إلى الداخل والرسالة في يدها، ثم أوصدت الباب من خلفها. الفوضى تعمّ أرجاء الغرفة نصف الخاوية، وصناديق الأوراق والكتب والستائر على الأرض، وعلى الأثاث تكوّمت الثياب والحقائب شبه الموضّبة. أول شيء قامت به الآنسة كلارنس التوجّه نحو النافذة، معتقدة أن شقة في الطابق الرابع ستحظى بإطلالة، لكن ما رأته

كان أسطح بنايات قذرة، وبعيداً إلى اليسار مبنى عالياً متوّجاً بحدائق الورود. عشت هناك يوماً، خاطبت نفسها، ثم يمّمت شطر الشقة.

مضت إلى المطبخ، حيث يوجد تجويف صغير احتوى موقداً بعينين وثلاجة صغيرة تحته، مع مغسلة صغيرة بجانبهما. لا يطبخون كثيراً، تبادر إلى ذهنها، والموقد لم ينظف يوماً. احتوت الثلاجة على زجاجة حليب وثلاث قناني «كوكا كولا» ومرطبان نصف ملآن من زبدة الفول السوداني. لا بدّ أنهم يتناولون وجباتهم في الخارج. فتحت الخزانة، فإذا بها تحتوي كأساً وفتّاحة قناني، وخلصت إلى أن الكأس الأخرى في الحمام، وحين لم ترَ أيّ فنجان، توصلت إلى أن صاحبة البيت لا تشرب القهوة صباحاً. ظهر لها على باب الخزانة صرصار، فأوصدته بسرعة وعادت إلى الغرفة الكبيرة. فتحت باب الحمام فطالعها حوض استحمام من الطراز القديم ذي الأرجل، وما من مرزاز، وهو قذر، وهي متأكدة من أنه مرتع للصراصير أيضاً.

التفتت الآنسة كلارنس في النهاية إلى الغرفة المزدحمة. أزالت حقيبة وآلة كاتبة عن واحد من الكراسي، ونزعت قبعتها ومعطفها، وجلست مشعلة سيجارة أخرى. لقد خلصت للتوّ إلى أنها لن تستخدم أيّاً من قطع الأثاث – الكرسيين والسرير–الأريكة «الميبالية»[1] من «فيليج مودرن». الطاولات الصغيرة والمكتبة قطع جميلة، إلّا أن الأخيرة تعاني من خدش طويل من الأعلى، والطاولات مبقّعة بآثار الكؤوس، وهي بسعر عشرة دولارت، ولتقول لنفسها إنها كانت اشترت دزينة جديدة منها لو أرادت دفع هذا السعر. وكانت الآنسة كلارنس قد أقدمت في عزّ استياتها من شركة الفحم الحجري وفحم «الكوك»، على جعل كلّ ما في شقتها من مشتقات البيج والأبيض الباهت، وبالتالي أخافتها فكرة إدخال قطع من الأثاث «الميبالي» الملمّع، فهي لديها تصور سريع عن شباب «فيلج»، المواظبون على زيارة المكتبات، المتردّدون على البيوت ذات الأثاث «الميبالي» يحتسون الرم مع الكولا، ويضعون كؤوسهم أينما اتفق.

1- maple furnitureالمقصود بها قطع الأثاث التي يحافظ فيها على الخشب ولونه دون صبغه، إلّا بما يكون ضمن تدرجات ألوان الخشب الأصلية.

فكّرت الآنسة كلارنس لبعض الوقت بشراء بعض الكتب، إلّا أن تلك التي تعلو الصناديق مجلدات فنية وملفّات. بعضها خُطَّ في داخلها «آرثر روبرتس»؛ آرثر ونانسي روبرتس، ثنائي جميل، تبادر إلى ذهنها. آرثر فنان، ونانسي ماذا... عاينت بعض الكتب إلى أن وصلت إلى كتاب صور للرقص الحديث، ولتتساءل بتأثر، هل يمكن أن تكون نانسي راقصة؟

رنّ الهاتف في الجهة الأخرى من الغرفة، تردّدت الآنسة كلارنس للوهلة الأولى قبل أن تخطو نحوه وتجيب. حين قالت: «ألو» جاءها صوت رجل قائلاً: «نانسي؟».

«لا، آسفة، ليست في البيت».

«من معي؟». سألها.

«أنا بانتظار السيدة روبرتس».

«معك زوجها آرتي روبرتس. هل لك أن تخبريها أن تتصل بي حين تعود؟».

«سيد روبرتس، ربما بإمكانك مساعدتي، فقد جئت لرؤية الأثاث».

«من أنتِ؟».

«اسمي كلارنس، هيلدا كلارنس. أنا مهتمة بشراء الأثاث».

«حسناً هيلدا، كيف ترينه؟ جميعه بحالة جيدة».

«لم أحسم أمري بعد».

«السرير بحالة جيدة كما لو أنه جديد. لقد حظيت بفرصة للذهاب إلى باريس، ولذلك نبيعها».

«هذا رائع».

«وستعود نانسي إلى أسرتها في شيكاغو، وهكذا تحتّم علينا بيع كلّ شيء وترتيب أمورنا في فترة قصيرة».

«أعرف، هذا مزعج».

«حسناً يا هيلدا، تكلّمي مع نانسي عندما تعود وسيسرّها أن تخبرك كلّ شيء. لن يخيب ظنّك بأيّ منها، أضمن لك بأنها مريحة».

«بالتأكيد».

«أخبريها أن تتصل بي، هل لك أن تفعلي ذلك؟».
«بالتأكيد سأفعل».

عادت إلى كرسيها وتفقدت ساعتها. سأنتظر حتى الثالثة والنصف، ثم سأغادر. التقطت كتاب صور الرقص، وصارت تقلّب صفحاته إلى أن التقطت عينها صورة عادت إليها. لم أرَ هذه الصور منذ سنوات –مارتا غراهام. لاحت في ذهنها صورة لها وهي في العشرين من عمرها، تتدرّب على وقفة هذه الراقصة، قبل مجيئها إلى نيويورك. أوقعت الآنسة كلارنس الكتاب أرضاً ووقفت رافعة ذراعيها. بدت لها بأنها حركة ليست بالسهلة، تتسبّب بتشنج الكتفين. وبينما كانت تنظر إلى الكتب من فوق كتفها، وتسعى لضبط ذراعيها، قُرِع الباب وفُتح. شاب– بعمر آرثر، تبادر للآنسة كلارنس – خطا إلى الداخل محرجاً.

«الباب موارب، ولهذا دخلت». قال.
«نعم؟». قالت الآنسة كلارنس مسبلة ذراعيها.
«حضرتك السيدة روبرتس؟». سألها الشاب.
احتفظت الآنسة كلارنس بصمتها وهي تعود للجلوس على الكرسي.
«لقد جئت لرؤية المفروشات، وأنا مهتم بالكراسي». قال الرجل.
«طبعاً. السعر موجود على كلّ قطعة». قالت الآنسة كلارنس.
«اسمي هاريس. لقد انتقلت منذ مدة إلى المدينة، وأسعى إلى تأثيث مكاني. هذا عاشر مكان أقصده، أبحث عن خزانة ملفّات وكرسي جلديّ كبير».
«أخشى أن...». قالت وهي تشير إلى الغرفة.
«أعرف، كلّ من لديه هذه الأغراض يتمسّك بها». وأردف: «أنا أكتب».
«حقّاً؟».
«أو بالأحرى، أتطلّع إلى الكتابة»، قال هاريس. وجهه مدوّر جميل، وقد علته ابتسامة محبّبة حين قال: «سأحصل على عمل وأكتب ليلاً».
«متأكدة من أن أمورك ستكون ميسّرة».

«من هو فنان هنا؟».

«السيد روبرتس»، قالت الآنسة كلارنس.

«يا له من محظوظ»، قال ذلك واتجه نحو النافذة. «من الأسهل دائماً أن ترسم صوراً على أن تكتب. هذا المكان ألطف بكثير من الذي أسكنه». وأردف بينما ينظر من النافذة: «النافذة لديَّ أشبه بثقب في الجدار».

لم تجد الآنسة كلارنس ما تقوله، فاستدار نحوها وبادرها القول بفضول: «أنت فنانة أيضاً؟».

«لا»، قالت وأخذت نفساً عميقاً: «راقصة». ابتسم ابتسامته المحبّبة مجدّداً وقال: «أدركت ذلك وأنا أدخل».

ضحكت ضحكة متحفظة.

«لا بدّ أنه أمر رائع»، قال.

«صعب...».

«لا بدّ أنه كذلك. هل نلت حظّاً جيداً؟».

«القليل منه».

«أظن أن جميع الأمور تمضي على هذا النحو»، قال. تجوّل في الشقة وفتح باب الحمام؛ ونظر إلى الآنسة كلارنس جفلاً. أغلق الباب من دون أن يتلفّظ بشيء ثم فتح باب المطبخ.

نهضت الآنسة كلارنس والتحقت به لتقف إلى جانبه وتنظر معه إلى المطبخ. «لا أطبخ كثيراً»، قالت.

«لا ألومك مع وجود كلّ تلك المطاعم». أغلق الباب وعادت الآنسة كلارنس إلى كرسيّها. «لا أستطيع تناول الفطور في الخارج، ومع ذلك حتى هذا لا أستطيع إعداده».

«لا تعدّ فطورك؟».

«حاولت، لكنني أسوأ طبّاخ في العالم، لكن هذا أفضل من تناوله في الخارج. أحتاج إلى زوجة». ابتسم مجدّداً وتوجّه نحو الباب.

«أعتذر بخصوص الأثاث، تمنيت أن أجد شيئاً».

«لا عليك».

«لقد تخلّى الناس عن أعمال المنزل».

«يجب علينا التخلّص من كلّ شيء». قالت الآنسة كلارنس متردّدة، وأردفت: «سيذهب آرتي إلى باريس».

«أتمنّى لو كنت». تنهّد. «حسناً، بالتوفيق لكما».

«وأنت أيضاً»، قالت ذلك، وأوصد هاريس الباب برويّة، وسمعت صوت خطاه تنزل السلّم، ثم تفقّدت ساعتها، إنها الثالثة وخمس وعشرون دقيقة.

فجأة وعلى عجلة من أمرها، عثرت على رسالة نانسي روبرتس فكتبت على ظهرها بقلم رصاص أخذته من أحد الصناديق: «عزيزتي السيدة روبرتس-انتظرت لغاية الساعة الثالثة والنصف، ويبدو أنني غير مهتمة بالمفروشات. هيلدا كلارنس». شردت لبعض الوقت وقلم الرصاص في يدها، ثم أضافت: «ملاحظة: اتصل بك زوجك ويريدك أن تتصلي به».

أخذت حقيبتها و«دير بارم»، ونسخة «فليجر»، وأغلقت الباب، وكان الدبوس حيث تركته على الباب، فثبتت الرسالة به، ونزلت السلّم، متجهة إلى شقتها، مع ألم في كتفيها.

حياتي مع أر. أتش. ماسي[1]

أول ما قاموا به هو عزلي، وإبعادي عن الشخص الوحيد الذي تبادل الحديث معي، وكانت فتاة متوجهة نحو القاعة قالت لي: «هل أنت خائفة مثلي؟». وحين أجبت بـ«نعم»، قالت: «أنا في قسم الثياب الداخلية النسائية، وأنت في أيّ قسم؟». فكّرت لبعض الوقت ثم قلت: «الزجاجيات»، وكانت أفضل إجابة على ما أعتقد، «أوه، حسناً، سألتقيك هنا بعد قليل». ثم مضت وعُزلت ولم أرَها مجدّداً.

بعدئذٍ نادوا باسمي مراراً وأنا أستجيب متنقلة من مكان إلى آخر وهن يقلنا «هن» لسنا حتى إشعار آخر سوى شابات حسناوات بشكل لافت يرتدين بدلات مفصّلة وشعورهن مقصوصة قصّات قصيرة، «اذهبي مع الآنسة كوبر، وستخبرك بما يجب القيام به». كلّ النساء اللاتي قابلتهن في يومي الأول اسمهن الآنسة كوبر. والآنسة كوبر ستسألني: «في أيّ قسم أنت؟». وتعلّمت مع مرور الوقت قول: «الكتب»، وستقول: «أوه، حسناً، أنت مع الآنسة كوبر هنا»، ثم ستنادي الآنسة كوبر، ولتأتي شابة وتقول الأولى: «13-3138 هنا وهي تابعة لك»، ولتقول الآنسة كوبر: «في أيّ قسم هي؟». ولتجيبها الآنسة كوبر: «الكتب»، ولأمضي ويجري عزلي مجدّداً.

بعدئذٍ باتوا يعلمونني، وقد جرى الحجر عليَّ في النهاية في صفّ دراسي، وجلست بمفردي لبعض الوقت (وهذا يبيّن كم كنت معزولة)، ثم جاءت بعض الفتيات، جميعهن يرتدين بدلات مفصّلة (أنا أرتدي فستاناً

1- رولاند هاسي ماسي (1822-1877) رجل أعمال أميركي أسّس سلسلة متاجر «ماسيز».

مخمليّاً)، جلسنا وبدؤوا بتعليمنا. أعطوا كلّ واحدة منا كتاباً كبيراً مكتوب عليه: «آر. أتش. ماسي» وداخله حاشية فيها أوراق صغيرة تقول: (من اليسار إلى اليمين): «الشركة. يحفظ كمرجع. رقم حساب إيداع الزبون. رقم عملية البيع. رقم سجل المبيعات. رقم الفاتورة. رقم الموظف. القسم. التاريخ». ويعد حرف «M» يترك سطر طويل لكتابة اسم المستر أو المسيز، ثم يبدأ من جديد بـ «الرقم. السلعة. الصنف. السعر. المبلغ الإجمالي». وفي الأسفل كُتِب: «الأصل»، ثم: «الشركة. يحفظ كمرجع. يُختم بختم الهدايا الأصفر هنا». قرأت كلّ ذلك باهتمام بالغ. جاءت الآنسة كوبر لاحقاً وتكلّمت عن مزايا العمل في «ماسيز»، وحدثتنا عن سجل المبيعات المتداعي إلى شيء من خريطة طريق وورق كربون وأشياء. أنصتُّ لبعض الوقت، ثم طلبت منا الآنسة كوبر أن نكتب على الأوراق الصغيرة، فقمت بنقل ما تكتبه فتاة بجانبي. هذا هو التدريب الذي تلقيته.

في النهاية قال لنا أحد ما إننا ذاهبون إلى الصالة، وهكذا نزلنا من الطابق السادس عشر إلى الطابق الأول، وكنّا حينها مجموعات مؤلفة من ستة أشخاص، وجميعنا نمضي خلف الآنسة كوبر بعزيمة، وقد وضعنا لصيقة مكتوب عليها: «استعلامات الكتب». لم أتوصّل إلى ما يعنيه ذلك، وقالت لي الآنسة كوبر إنه يجب عليّ أن أعمل في «كاونتر» المبيعات الخاصة، وأرتني كتاباً صغيراً بعنوان: «الفقمة التي انهوست بالمسرح»[1]، ما أوحى بأنني سأتولّى بيعه. وكنت قد أجهزت على نصفه حين قالت إنه يجب عليّ ملازمة وحدتي.

أسعدني لقاء ساعة الدوام، وأمضيت نصف ساعة مسلية وأنا أثقب البطاقات من حولي، ثم قالت إحداهن بأنه لا يمكنني ثقب بطاقة الدوام وقبعتي على رأسي. وهكذا وجبت مغادرتي مستعطفة ومستكينة لساعة الدوام، ولأعثر على رقم خزانتي وهو 1773، ورقم ساعة الدوام وهو 712، ورقم صندوق النقد وهو 1336، ورقم قيد النقد وهو 253، ورقم قيد درج النقد وهو الحرف «K»، ورقم مفتاح درج صندوق النقد وهو 872، ورقم قسمي وهو I.13 وتدوين كلّ تلك الأرقام، وكان هذا يومي الأول.

1- The Stage-Struck Seal

تحسّن الأمر في يومي الثاني، وبتّ رسمياً في الصالة. وقفت في زاوية «الكاونتر»، ممسكة بكتاب «الفقمة التي انهوست بالمسرح»، بانتظار الزبائن. رئيسة «الكاونتر» كانت 13-2246، وهي لطيفة معي. أرسلتني لتناول غدائي ثلاث مرات، لأنني كنت مضطربة مع 13-6454 و 13-3141. جاءت زبونة بعد الغداء، وأخذت نسخة من «الفقمة التي انهوست بالمسرح»، وقالت: «بكم هذا؟». وقبل أن أجيب قالت: «لديَّ حساب إيداع، وأريد إرسال الكتاب إلى عمتي في أوهايو. سأدفع من الحساب 32 سنتاً اكتسبتها والباقي مما فيه. هل سعر الكتاب ثابت؟». ابتسمت وقد شارفت على أن أنسى كلّ ما قالته، وقلت: «بالتأكيد، أعطني دقيقة؟». عثرت على ورقة مكتوب عليها من فوق: «نسختان. ثلاث نسخ. طبق الأصل في درج في «الكاونتر»، دوّنت اسم الزبونة وعنوانها، واسم عمتها وعنوانها، وكتبت عند: نسختان. ثلاث نسخ. طبق الأصل. عنوان الكتاب مختزلاً والكمية: نسخة واحدة». ابتسمت مجدّداً للزبونة وقلتُ لها ساهمةً: «سيكون السعر خمسة وسبعون سنتاً». قالت: «لكن لديَّ حساب إيداع». أخبرتها بأن كلّ هذه الحسابات مجمّدة حالياً جراء زحمة عيد الميلاد، فأعطتني المبلغ الذي احتفظت به، ونقرت على زرّ: «غير مباع» على صندوق المحاسبة، ومزّقت الورقة التي كتبتها حيث ما كان يجب أن أفعل بها غير ذلك.

لاحقاً جاء زبون آخر وقال: «أين أجد نسخة من كتاب آن روثرفورد غوين – جاء مثل الرعد؟». وقلت: «في قسم الكتب الطبية، من هنا»، لكن 13-2246 حضرت وقالت: «إنه كتاب فلسفي أليس كذلك؟». أكّد الزبون ذلك وأشار 13-2246 قائلاً: «من هنا من هذا الممرّ حيث القواميس». مضى الزبون، وقلت لـ 13-2246 إنها أشارت تقريباً إلى حيث أشرت، على أيّ حال، حدّقت إليَّ وأوضحت بأن جميع الكتب الفلسفية، وكتب علم الاجتماع ومؤلفات برتراند راسل موجودة مع القواميس.

لم أعد في اليوم الثالث إلى «ماسيز»، ولم أفعل حتى الآن، لأنني حين هممت بالمغادرة في الليلة الماضية، تزحلقت على السلّم ومزّقت جوربي وأخبرني البواب بأنني إن قصدت مديرة قسمي فإنها ستعطيني جوربين جديدين، فعدت فإذا بي حيال الآنسة كوبر التي قالت: «اذهبي لعند المراقب

وسلّميه هذه»، وأعطتني إيصالاً صغيراً ورديّ اللون ذيّل أسفله بـ «الشركة. يحفظ كمرجع. رقم حساب إيداع الزبون. رقم عملية البيع. رقم سجل المبيعات. رقم الفاتورة. رقم الموظف. القسم. التاريخ». وبعد حرف «M» لم يكتب اسمي بل 13–3138. أخذت الإيصال ورميته وصعدت إلى الطابق الرابع واشتريت جورباً بـ 69 سنتاً ونزلت وخرجت من مدخل الزبائن.

كتبت إلى «ماسيز» رسالة طويلة، ووقّعتها بكلّ أرقامي مجتمعة ومقسّمة على 11,700 الذي هو عدد موظفيها. أتساءل إن كانوا يفتقدونني.

-II-

ليس بمقدور المتفرج الجاهل أن يتخيّل مقاصد الرسام بما يتبدّى خطوطاً خشنة وخربشات وهي من أساسيات الصورة، ولتبدو الرموز والأرقام في العمليات الرياضية ترهات... إننا غافلون عن نوايا ومقاصد الآخر؛ وثمة آلاف الخدع في شؤوننا الصغيرة، والتي لن تفصح عن كنهها، حتى للبحاثة الفطنين.

جوزيف غلانفيل: سادوكيسموس تريمباتوس[1]

1- «سادوكيسموس تريمباتوس، أو الدليل الكامل والواضح المتعلق بالساحرات والأشباح»، وهو كتاب صادر في إنجلترا عام 1861، للكاتب والفيلسوف ورجل الدين جوزيف غلانفيل (1636–1680)، ويؤكد في ذلك الكتاب وجود الساحرات وقواهن الخارقة، ويهاجم المشككين بذلك، بالتوازي مع تقديمه قصص وأعمال ومصائر ساحرات معروفات من بقع عدة في أوروبا. المترجم

الساحرة

كانت العربة شبه فارغة وهكذا شغل الصبيّ الصغير مقعداً بمفرده، بينما جلست أمه على المقعد الموازي للممرّ بجوار أخت الصبيّ، الطفلة التي تحمل قطعة «توست» بيد وخشخيشة بالأخرى، وقد رُبطت بحزام في مقعدها بحيث تبقى جالسة باستقامة تراقب ما حولها، وحين تنسلّ ببطء يمسكها الحزام وهي في منتصف المسافة، وما إن تنتبه إليها أمها حتى تعيدها إلى وضعية جلوسها السابقة. ينظر الصبيّ عبر النافذة ويأكل بسكويتة، والأم تقرأ بهدوء، مجيبة عن أسئلة الصبيّ من دون أن ترفع ناظريها.

«نحن فوق النهر»، قال الصبيّ. «هذا هو النهر ونحن فوقه».

«حسناً». قالت الأم.

«نحن على الجسر فوق النهر»، خاطب الصبيّ نفسه.

على متن العربة، الجالسون في الجهة الأخرى، إن عبروا الممرّ لسبب ما، فإن الصبيّ سيلتفت ويقول: «مرحباً»، وغالباً ما يجيبونه بـ «مرحباً»، وليسأله بعضهم ما إذا كان مستمتعاً بركوبه القطار، أو يخبرونه شيئاً من قبيل أنه شاب جميل يُعتمد عليه، ولتشكّل تلك التعليقات مصدر إزعاج للصبيّ فيشيح بوجهه مجدّداً باتجاه النافذة.

«أرى بقرة»، يقول ثم يتنهّد ويردف: «كم من الوقت لنصل؟».

وفي كلّ مرة تجيبه أمه: «ليس كثيراً».

الطفلة الهادئة والمشغولة بالخشخيشة وقطعة «التوست» التي تحرص الأم على تجديدها، مالت وانزلقت كثيراً فارتطم رأسها، وشرعت بالبكاء، وعمّت الحركة عند مقعد الأم، ونزل الصبيّ عن مقعده ومضى عبر الممرّ

ليداعب رجلي أخته ويرجوها التوقّف عن البكاء، ولتتحول الطفلة إلى الضحك وتعود إلى قطعة «التوست»، وليتلقى الصبيّ مصاصة من أمه ويعود إلى النافذة.

«رأيت ساحرة، هناك ساحرة شمطاء بشعة كبيرة عجوز شريرة في الخارج». قال الصبيّ لأمه.

«حسناً».

«ساحرة شمطاء كبيرة بشعة قلت لها اذهبي فذهبت»، واصل الصبيّ حديثه، وهو يسرد لنفسه: «جاءت وقالت سآكلك، وقلت لها لا لن تفعلي، وطارت الساحرة الشريرة الشمطاء الحقيرة».

توقّف عن الكلام ونظر إلى باب العربة وقد فتحه رجل وخطا إلى داخلها. رجل عجوز، بوجه ودود وشعر أشيب، وبدلة زرقاء مجعدة قليلاً جرّاء رحلة القطار الطويلة. كان يحمل سيجاراً، وحين قال له الصبيّ: «مرحباً»، رفع يده التي يحمل بها السيجار وقال: «أهلاً بك يا بنيّ». وقف قرب مقعد الصبي، واتكأ إلى مسنده، ناظراً نحو الأسفل حيث الصبيّ الذي رفع بدوره عنقه لينظر إلى الأعلى. «ما الذي تبحث عنه خارج هذه النافذة؟». سأل الرجل.

«ساحرات، ساحرات شريرات شمطاوات حقيرات». أجابه الصبيّ في الحال.

«هل وجدت العديد منهن؟».

«أبي يدخن السيجار»، قال الصبيّ.

«كلّ الرجال يدخنون السيجار، وأنت يوماً ستدخنه أيضاً».

«أنا رجل الآن».

«وكم عمرك؟».

نظر الصبيّ بريبة إلى الرجل، وهو يواجه هذا السؤال الأبديّ، ثم قال: «ستة وعشرون. ثماني مئة وتسعة وأربعون».

رفعت أمه رأسها عن الكتاب. وقالت مبتسمة ابتسامة حنوناً للصبيّ، «أربعة».

«هل هو كذلك؟». قال الرجل بتهذيب للصبيّ. «إنه في السادسة والعشرين». أحنى رأسه للأم. «هل هي والدتك؟».

أحنى الصبيّ جسمه إلى الأمام ناظراً وقال: «نعم هذه هي».
«ما اسمك؟». سأل الرجل.
بدا الصبيّ مرتاباً مجدّداً. «السيد يسوع»، قال.
«جوني»، قالت أم الصبيّ، وقد التقت عيناها بعينيه فقطّبت حاجبيها وعبست.
«هذه أختي، عمرها اثنا عشر شهراً ونصف». قال الصبيّ للرجل.
سأله الرجل: و«هل تحبّها؟». ثم التفّ الرجل إلى جانب المقعد وجلس إلى جانب الصبيّ.
«اسمع. هل أخبرك عن أختي الصغيرة؟». قال الرجل.
الأم التي بدا عليها القلق لدى جلوس الرجل بجانب الصبيّ، عادت مستكينة إلى كتابها.
«خبّرني عن أختك، هل كانت ساحرة؟». قال الصبيّ.
«ربما».
ضحك الصبي متحمساً، وأسند الرجل ظهره ونفث دخان سيجاره، وأنشأ قائلاً: «كان يا مكان، كان لديَّ أخت صغيرة، مثل أختك». رفع الصبيّ ناظريه نحو الرجل، وراح يهزّ رأسه مع كلّ كلمة. وواصل الرجل: «وكانت أختي الصغيرة جميلة ولطيفة جدّاً وأحببتها أكثر من أيّ شيء في هذا العالم. هل أخبرك بالذي فعلته؟».
هزّ الصبي رأسه هزّات متوالية، ورفعت الأم عينيها عن كتابها وابتسمت وأنصتت.
«اشتريت لها حصاناً هزّازاً ودمية ومليون مصاصة، ثم أخذتها ووضعت يدي حول عنقها وبقيت أضغط عليه وأضغط عليه إلى أن ماتت».
تسارعت أنفاس الصبيّ، وانسحبت البسمة من وجه الأم وباتت تتلفّت حولها، وواصل الرجل: «ثم قمت بفصل رأسها عن جسمها–».
«هل قطّعته قطعاً؟». سأل الصبيّ ونفسه يكاد ينقطع.
«قطعت رأسها ويديها ورجليها ونزعت شعرها وجدعت أنفها، وضربتها بالعصا وقتلتها».

«توقّف»، قالت الأم، إلّا أن الطفلة وقعت، وبينما كانت تعيدها إلى مكانها واصل الرجل.

«وأخذت رأسها ونزعت شعرها و-».

«فعلت هذا لأختك الصغيرة؟». هتف الصبيّ متلهفاً.

«نعم لأختي الصغيرة، ووضعت رأسها في قفص مع دبّ فالتهمه».

«أكل رأسها؟». سأل الصبيّ.

وضعت الأم كتابها جانباً، وجاءت ووقفت بقرب الرجل قائلة: «ما الذي تفعله؟». فنظر نحوها نظرة لا تخلو من الاحترام وأردفت: «اذهب من هنا».

«هل أخفتك؟». خاطب الرجل الصبيّ، ولكزه بكوعه فضحك الصبيّ.

«هذا الرجل قطّع أخته الصغيرة»، قال الصبيّ لأمه.

«أستطيع بمنتهى السهولة أن أطلب مدير الرحلة»، قالت الأم مخاطبة الرجل.

«سيلتهم المدير أمي، سينزع رأسها». قال الصبيّ.

«ورأس الأخت الصغيرة أيضاً»، قال الرجل وهو يقف، بينما الأم تفسح له المجال ليترك مقعده. «لا تفكر بالعودة إلى هذه العربة أبداً»، قالت.

«ستأكلك أمي»، قال الصبيّ.

ضحك الرجل والصبيّ. ثم قال الرجل للأم: «لو سمحت»، ليمرّ من أمامها ويخرج من العربة. حين أغلق الرجل الباب خلفه قال الصبيّ: «كم بقي من الوقت لنصل؟».

«ليس كثيراً»، قالت الأم. أرادت أن تقول شيئاً للصبيّ وهي تنظر إليه، إلّا أنها قالت في النهاية: «اجلس في مكانك وكن مهذباً، وستحصل على مصاصة أخرى».

نزل الصبيّ عن مقعده ولحق بأمّه إلى مقعدها. أخرجت مصاصة من حقيبتها وأعطته إياها. «ماذا علينا أن نقول؟».

«شكراً». ثم سألها: «هل حقاً قطّع أخته إلى قطع؟».

«إنه يمزح فقط»، ثم كرّرت بإصرار: «يمزح فقط».

«ربما»، قال الصبيّ، وعاد بمصاصته إلى مقعده، وجلس ينظر من النافذة مجدّداً. «ربما كان ساحرة».

المارقة

إنها الثامنة وعشرون دقيقة صباحاً. يتلكّع التوأمان وهما يتناولان فطورهما، والسيدة ويلبول، عين على الساعة والأخرى على نافذة المطبخ، وما هي إلّا دقائق حتى تأتي حافلة المدرسة، وقد حلّ بها ضيق غير مبرّر يترافق عادة مع التأخر عن المدرسة، إحساس أشبه بتخبّطها في الدبس وهي تستعجل الولدين.

«يجب عليكما الذهاب مشياً»، قالت متوعدة للمرة الثالثة: «الحافلة لا تنتظر».

«ها أنا أسرع»، قالت جودي. عاينت كوبها الملآن بالحليب متفاخرة. «أنا أقرب إلى إنهائه من جاك».

وضع جاك كوبه إلى جانب كوبها على الطاولة، وقاسا بدقة وحرص. «غير صحيح. انظري كم حليبك أكثر مما لديَّ».

«لا يهمّ»، قالت السيدة ويلبول: «لا يهمّ يا جاك، كلْ رقائق الحبوب».

«ليس لديها أكثر مني لتبدأ به»، قال جاك وأردف: «ماما، هل ما لديها أكثر مني؟».

لم ترنّ الساعة في السابعة كما هي العادة. سمعت السيدة ويلبول صوت مياه مرزاز الحمام في الشقة فوقها وخلصت سريعاً إلى أن إعداد القهوة أبطأ من المعتاد، وأن قشر البيض المسلوق أكثر رقة، وأن لديها الوقت فقط لتصبّ لنفسها كوباً من العصير من دون أن تجد الوقت لشربه. سيتأخر واحد منهم، إما جودي أو جاك أو السيد ويلبول.

«جودي... جاك»، قالت السيدة ويلبول لاشعوريّاً.

شعر جودي لن يكون مضفوراً بشكل جيد. سيذهب جاك من دون منديله. وسيتعكر مزاج السيد ويلبول لا محالة.

احتلّت حافلة المدرسة الصفراء والحمراء المشهد من نافذة المطبخ، واندفع كلّ من جودي وجاك نحو الباب، من دون أن يكملا فطورهما، وقد نسيا كتبهما على الأرجح، ولتلحقهما السيدة ويلبول إلى باب المطبخ وتعطي جاك بعض المال ليشتريا طعاماً في المدرسة قائلة: «عد مباشرة إلى البيت». راقبتهما وهما يستقلّان الحافلة، ثم همّت بأخذ صحنيهما عن الطاولة وتهيئة المكان للسيد ويلبول. ستعدّ فطورها لاحقاً، حين تلتقط أنفاسها مع تجاوز الساعة التاسعة، ما عنى لها بأنها ستتأخر في نشر غسيلها، وإذا ما أمطرت عصراً، فهذا يعني أن شيئاً لن يجفّ. تكبّدت السيدة ويلبول عناء في قول: «صباح الخير عزيزي». حين دخل زوجها إلى المطبخ، والذي بدوره قال: «صباح». من دون أن يرمقها بنظرة، وهي التي كان ذهنها مليئاً بالعبارات غير المكتملة التي تبدأ: «ألا تعتبر أن للآخرين أية مشاعر أو –» وراحت تضع فطوره أمامه. البيض نصف المسلوق في صحنه، «التوست»، القهوة، بينما هو غارق بجريدته، والسيدة ويلبول تودّ لو تقول له: «لا يبدو أنك انتبهت إلى أنه لم تتح لي الفرصة لأتناول فطوري–» وقد وضعت كلّ الصحون بهدوء قدر المستطاع.

رغم تأخرها نصف ساعة، فإن كلّ شيء مضى بسلاسة، إلى أن رنّ الهاتف. خطّ الهاتف في بيت عائلة ويلبول خطّ مشترك، وعادة ما تدع السيدة ويلبول الهاتف يرنّ رنتين لتتبيّن ما إذا كان رقمها هو المطلوب فتجيب، وهذا الصباح، قبل التاسعة، وبينما كان السيد ويلبول يتناول فطوره، بدا رنين الهاتف مزعجاً شديد الوطأة، إذ أجبرت السيدة ويلبول نفسها على تلبيته والإجابة: «ألو»، قالتها بشراسة.

«سيدة ويلبول؟». فقالت: «نعم؟». كان صوت امرأة، «آسفة على الإزعاج، أنا –» وتلفظت باسم مجهول. قالت السيدة ويلبول مجدّداً: «نعم؟». وسمعت زوجها يأخذ إبريق القهوة من الموقد ويصبّ لنفسه فنجاناً ثانياً.

وأردف الصوت: «هل لديك كلب. كلب صيد لونه بني وأسود؟». وقبل

أن تجيب السيدة ويلبول بلحظات بـ «نعم»، تبدّت لها السمات والحيثيات التي لا حصر لها لامتلاك كلبة في الريف (ستة دولارات لإزالة المبايض، النباح الممضّ في وقت متأخر من الليل، الأمن والحماية التي توفرها وهي أشبه بكتلة داكنة نائمة على السجادة قرب سرير التوأمين المزدوج، والضرورة الحتمية لوجود كلب في البيت، الأشبه بضرورة الموقد، أو الشرفة الأمامية، أو الاشتراك بالجريدة المحلية، وأكثر، وبما يفوق كلّ تلك الأشياء، علاوة على أنها عُرِفت بين أوساط الجيران باسم: «الليدي ويلبول»، بما يلتقي مع خصال جاك ويلبول وجودي ويلبول، في الهدوء والكفاءة، والمبالغة في التسامح)، ولئلّا تجد في أيّ من ذلك شيئاً يستدعي هذه المكالمة المبكرة صباحاً مدركة في الوقت ذاته أن الصوت على الهاتف مكدّر مثل صوتها.

«نعم، لديَّ كلبة. لمَ تسألين؟».

«كلبة صيد لونها بني وأسود؟».

إنها ليدي المرقطة ذات الوجه الخاص... وبصوت أكثر تبرّماً قالت: «نعم بالتأكيد هي كلبتي. لماذا؟».

«إنها تقتل دجاجاتي». وبدا الصوت راضياً، بينما ارتبكت السيدة ويلبول.

غرقت السيدة ويلبول في الصمت لبضع ثوانٍ، ما اضطر الصوت ليقول: «ألو؟».

«يا للسخافة، هذا محض سخافة»، قالت السيدة ويلبول.

قال الصوت مستطيباً حديثه: «هذا الصباح طاردت كلبتك دجاجاتنا. سمعنا الدجاجات في التاسعة، وخرج زوجي ليستوضح الأمر فعثر على دجاجتين ميتتين ورأى كلبة لونها بني وأسود تلاحق الدجاجات فلاحقها بالعصا وطردها ثم عثر على دجاجتين أخريين ميتتين». وأردفت بشكل قاطع: «من حظّها الجيد أنه لم يأخذ بندقيته معه، وإلّا لما كان عندك كلبة الآن. لقد أحدثت فوضى عارمة، والدم والريش في كلّ مكان».

«ما الذي يدفعك للاعتقاد أنها كلبتي؟». قالت السيدة ويلبول بوهن.

«جو وايت -جاركم- كان مارّاً حينها ورأى زوجي يطاردها، وقال إنها كلبتك».

بيت واحد يفصل بين بيت ويلبول وبيت العجوز وايت. لطالما كانت السيدة ويلبول دمثة معه، تسأله بمحبّة عن صحته حين تمرّ به وهو على الشرفة، وترمق باحترام صور أحفاده في «ألباني».

«فهمت»، قالت السيدة ويلبول وقد تغيّرت مقاربتها للأمر: «حسناً، ما دمت متأكدة، فإنني في الوقت نفسه لا أستطيع تصديق أنها من أفعال ليدي فهي لطيفة جدّاً».

رقّ صوت المتحدثة في استجابة لارتباك السيدة ويلبول: «هذا مخجل. يؤسفني كثيراً حصول ذلك. لكن...». وتقطّع صوتها.

«سنعوّض ما لحقكم من ضرر».

«لا، لا أبداً، ولا تفكري حتى في ذلك». قالت المرأة كما لو أنها تعتذر.

«لا بدّ من -» قالت السيدة ويلبول مرتبكة.

«الكلبة، يجب أن تفعلي شيئاً بالكلبة».

عصف بالسيدة ويلبول رعب داهم لا محيد عنه. فنهارها سيّئ، وهي لم تحتسِ قهوتها بعد، وقد واجهت حالة لعينة لم تعهدها من قبل، والآن الصوت، نبرته، ونبرته، التفت على إخافتها بكلمة مثل: «شيئاً».

لتتمكن من القول في النهاية: «كيف، أقصد ما الذي تريدين مني فعله؟».

ساد صمت وجيز على الجهة الأخرى من الهاتف، ثم جاء الصوت متوثباً: «لست متأكدة من أنني أعرف. لطالما سمعت بأنه ما من طريقة لإيقاف كلب عن قتل الدجاج، وكما قلت لا حاجة لنا للحديث عن أضرار، إذ إن الدجاجات للحقيقة نُتِفت وهي الآن في الفرن.

تحجرت حنجرة السيدة ويلبول وأغمضت عينيها لدقيقة، بينما الصوت على الوتيرة ذاتها: «لا نسألك شيئاً سوى أن تتولّي أمر الكلبة. لا بدّ أنك أدركت بأننا لا نستطيع تقبل كلبة تقتل دجاجاتنا».

أدركت السيدة ويلبول أنه يجب عليها الردّ، فقالت: «بالتأكيد».

«فإذن...».

رمقت السيدة ويلبول زوجها يشقّ طريقه نحو الباب، ويلوّح لها تلويحة وجيزة وهو يمرّ بها، وتومئ له برأسها. لقد تأخر، وقد كانت تنوي الطلب منه

أن يمرّ إلى المكتبة في المدينة. والآن يجب أن تتصل به لاحقاً: «يجب أولاً أن أتيقّن من أنها كلبتي، وإذا ما كانت هي، فسيكون بمقدوري أن أعدك بعدم تسبّبها بمزيد من المشاكل».

«إنها كلبتك... ألم تتوصلي إلى ذلك بعد». أمسى الصوت محمّلاً باستفزازية ريفية؛ فإذا ما رغبت السيدة ويلبول بالشجار، فإن الصوت يتضمّن تصريحاً بأنها خير من يقوم بذلك.

«وداعاً»، قالت السيدة ويلبول، وهي تدرك أنها ترتكب خطأ بإنهاء مكالمتها مع تلك المرأة بغضب، وأن عليها مواصلة حديث اعتذاري مطول، مستجدية حياة كلبتها من هذه المرأة المتصلّبة الغبية الشديدة الاهتمام بدجاجاتها الغبية.

أغلقت السيدة ويلبول سماعة الهاتف ومضت إلى مطبخها. صبّت فنجاناً من القهوة وسخنت بعض «التوست».

لن أدع لهذا أن يزعجني لحين فراغي من احتساء قهوتي، قالت لنفسها بحزم. أفاضت بالزبدة على قطعة «التوست»، وحاولت أن تسترخي، مسندة ظهرها إلى الكرسي، مرخية كتفيها. الإحساس الذي انتابها في التاسعة والنصف صباحاً، ينتمي إلى ما تحسّ به في الحادية عشرة ليلاً. ولم يكن للشمس المشرقة في الخارج أن تكون أكثر بهجة مما هي عليه. قرّرت فجأة أن تؤجل غسيلها للغد، فهي وعائلتها لم يعيشوا في الريف بما يكفي للإحساس بعار وكارثية الغسيل يوم الثلاثاء؛ فهم ما زالوا من أهل المدينة وسيبقون على الدوام كذلك، أناس يملكون كلبة تقتل الدجاج، ممن يغسلون يوم الثلاثاء، أناس غير قادرين على الاعتماد على أنفسهم في عالم محدود، التربة والغذاء والمناخ يشكّل محور اهتمام الريفيين. في هذه الحالة وفي حالات أخرى –سواء فيما يخصّ التخلص من النفايات، ومصدّات الرياح والعواصف والأمطار، وصولاً إلى إعداد كعكة الملائكة– فإن السيدة ويلبول كانت مجبرة على أخذ النصح، إذ إنه من الصعب في الريف التوصّل إلى شخص يقوم بالأشياء نيابة عنك، بينما اعتاد السيد والسيدة ويلبول على الاستعانة بالجيران فيما يتطلّبانه من المعلومات التي تكون في المدينة

متصلة بالمشرف على البناية، أو البواب، أو موظف شركة الغاز. حين وقعت السيدة ويلبول بناظريها على صحن الكلبة ليدي في المغسلة، بدا جلياً لها مدى إحباطها، فارتدت معطفها وأحاطت رأسها بوشاحها ومضت إلى البيت المجاور.

كانت السيدة ناش في البيت المجاور، تقلي «الدونات»، ولوّحت والشوكة بيدها للسيدة ويلبول التي كانت أمام الباب ونادت: «تفضلي، لا يمكنني أن أترك الموقد». دخلت السيدة ويلبول إلى مطبخ السيدة ناش، وهي تفكر بمطبخها وقد امتلأت مغسلته بالصحون المتسخة، بينما ترتدي السيدة ناش ثوباً منزلياً مهفهفاً ومطبخها لامع نظيف، وهي تقلي «الدونات» من دون إحداث أيّ فوضى.

«يحبّ الرجال الدونات الطازجة مع غدائهم»، قالت السيدة ناش من دون أيّ تمهيد سوى تلويحها ودعوتها للسيدة ويلبول: «أسعى على الدوام إلى صنع المزيد منها لتبقى، لكنني لا أنجح في ذلك».

«أتمنّى لو أعرف إعدادها»، قالت السيدة ويلبول. أشارت السيدة ناش إلى «الدونات» الساخنة المستخلصة للتوّ من المقلاة، فتناولت السيدة ويلبول واحدة، وهي تفكر بأنها ستسبب لها عسر هضم.

«يبدو لي أنها ستُلتهم ما إن أنتهي من قليها»، قالت السيدة ناش، وعاينت «الدونات» الناضجة بإعجاب، وخلصت إلى أنها تستطيع إبعاد ناظريها عنها، وتناول واحدة منها وهي لا تزال واقفة عند الموقد. «ما بك اليوم؟ تبدين شاحبة».

«للحقيقة إنها كلبتنا. اتصلت بي امرأة هذا الصباح قائلة إنها تقتل الدجاجات».

هزّت رأسها: «أعرف. أخبرني هاريس».

من الطبيعي أن تكون قد صارت على علم بذلك الآن، فكّرت السيدة ويلبول.

قالت السيدة ناش وقد عادت إلى «الدونات»: «يقولون لا شيء يمكن القيام به حيال كلب يقتل الدجاج. كان لدى أخي كلب يقتل الخرفان، ولا

أعرف ما الذي فعلوه لتخليصه من ذلك، لكن ما من شيء سينجح، متى ما تذوقوا طعم الدم». رفعت السيدة ناش «دونات» ذهبية من المقلاة، ووضعتها على الورقة البنية لتجفيفها من الزيت. «تمسي معتادة على القتل لمجرد القتل وليس الأكل».

«وماذا أفعل؟ أما من شيء أقوم به؟».

«يمكنك المحاولة بالتأكيد. أفضل شيء هو ربطها بدايةً. أبقيها مربوطة بسلسلة ثخينة جيدة. على الأقل ستضمنين عدم ملاحقتها الدجاجات، وحمايتها من أن تُقتل جرّاء ذلك».

نهضت السيدة ويلبول بتبرّم وبدأت بوضع وشاحها مجدّداً. «من الأفضل أن أحضر السلسلة الآن».

«هل ستذهبين؟».

«أودّ أن أتسوّق قبل مجيء الأولاد إلى الغداء».

«لا تشتري أيّاً من الدونات، سأحضر لك صحناً مليئاً بها. أنت اشتري السلسلة فقط».

«شكراً لك»، قالت السيدة ويلبول. الشمس المشرقة البادية من مدخل مطبخ السيدة ناش، الطاولة الصلبة التي تحمل أطباقاً من «الدونات»، رائحة القلي اللطيفة، جميعها بدت من علائم الطمأنينة التي تشيعها السيدة ناش، عدا عن وثوقها بنهجها في الحياة والطمأنينة البعيدة كلّ البعد عن قتل الدجاج، ومخاوف المدينة، طمأنينة ونظافة عظيمتان ما يدفعها إلى أن تفيض وتغمر بهما عائلة ويلبول، محضرة إليهم «الدونات»، متجاهلة قذارة مطبخ السيدة ويلبول. «أجدّد شكري لك»، قالت السيدة ويلبول كيفما اتفق.

«قولي لتوم كيتردج بأن يحتفظ لي بخاصرة الخنزير، سأمرّ به وآخذها». قالت السيدة ناش.

«سأفعل». قالت السيدة ويلبول وهي تراوح مكانها عند المدخل ثم لوّحت لها السيدة ناش بشوكتها.

«أراكِ على خير»، قالت السيدة ناش.

كان العجوز وايت جالساً يتشمّس في شرفته الأمامية. ابتسم ابتسامة عريضة ما إن رأى السيدة ويلبول وناداها قائلاً: «لا أظنّ أنك ستحتفظين بكلبك بعد الآن».

لأحتفظ بلطافتي معه، قالت السيدة ويلبول لنفسها، فهو ليس غدّاراً أو شريراً وفق المعايير الريفية؛ أيّاً كان سيشير إلى الكلبة قاتلة الدجاجات، لكن ذلك لا يسرّه على هذا النحو، ولتقول له بصوت حرصت على أن يكون لطيفاً: «صباح الخير سيد وايت».

«هل ستطلقين النار عليه؟ هل لدى رجلك مسدس؟». سأل السيد وايت.

«يقلقني ذلك كثيراً»، قالت السيدة ويلبول وقد توقفت عند الممشى أسفل الشرفة الأمامية، محاولة ألّا يبدو وجهها حانقاً وهي تنظر إلى السيد وايت.

«سيّئ جدّاً أن يحلّ ذلك بكلب»، قال السيد وايت.

على الأقل فهو لا يلومني، تبادر إلى ذهن السيدة ويلبول: «وهل من شيء بمقدوري القيام به؟».

فكّر السيد وايت، ثم قال: «أعتقد بأن هناك ما يشفي من قتل الدجاج، أحضري دجاجة ميتة وأحيطي بها عنق الكلب[1]، بحيث لا يستطيع نفضها عنه، ما قولك؟».

«حول عنقها؟». أومأ السيد وايت وابتسم بفمه الأدرد.

«نعم، حين لا يستطيع التخلص منها فإنه يلعب بها في البداية ثم تتحول إلى مصدر إزعاج، نعم، وحينها يسعى إلى نفضها من دون نجاح يذكر، ثم يحاول عضّها وأيضاً لا ينجح في ذلك، وحين يرى أنها ما زالت فإنه يدرك بأن لا مجال للتخلص منها، فيمسي خائفاً، وسترينه يدور حول نفسه وذنبه بين رجليه، وما زال الشيء معلقاً بعنقه والأمور تزداد سوءاً».

أسندت السيدة يدها إلى حافة الشرفة لتوازن نفسها، وسألت: «وماذا ستفعل بعد ذلك؟».

1- يستعمل السيد وايت المذكر «كلب»، رغم أن السيدة ويلبول تبقى تستخدم التأنيث، وهذا سيتكرر في الحوارات التالية. المترجم

«وحينها حسب ما سمعت، فإن الدجاجة ستختمر وتتعفّن وبمقدار ما يستشعر ويشمّ ذلك فإنه سيكره الدجاج، وهو غير قادر على التخلص منها، فهمتِ؟».

«لكن ما المدة التي سنبقي فيها الدجاجة حول رقبة الكلب، أعني الكلبة ليدي؟».

قال السيد وايت بحماسة: «أظنّ أنه يجب تركها لحين اختمارها بما يكفي لكي تسقط وحدها، فهمت، الرأس...».

«فهمت، وهل سينجح ذلك؟».

«لا أعرف، لأنني لم أجرب بنفسي ذلك». جاء صوته بنبرة تشي بأنه لم يمتلك يوماً كلباً قاتلاً للدجاج.

تركته السيدة ويلبول بلا مقدمات، غير قادرة على التخلّص من شعورها بأنه لولاه لما عُرف بأن ليدي هي الكلبة التي تقتل الدجاج؛ وتبادر إلى ذهنها ما إذا كان السيد وايت تخابث واتهم ليدي لأنهم من أهل المدينة، ثم نفضت عنها ذلك، إذ ما من أحد من الجيران سيحمل وزر شهادة زور ضد كلبة.

حين دخلت إلى البقالة كانت فارغة، إلّا من رجل عند «كاونتر» الأدوات ورجل آخر مستند إلى كاونتر اللحوم يتبادل الحديث مع البقّال السيد كيتردج، وحين رآها هذا الأخير داخل المحل نادى قائلاً: «أسعدتِ صباحاً سيدة ويلبول. يوم مشرق».

قالت السيدة ويلبول: «جميل»، وليردف: «مؤسف ما حلَّ بالكلب».

«لا أعرف ما الذي يجب فعله»، نظر إلى الرجل الذي يحادث البقّال ملتفتاً برأسه، ثم أعاده مواجهاً البقّال.

«لقد قتل ثلاثاً من دجاجات هاريس هذا الصباح»، قال البقّال للرجل الذي هزّ رأسه قائلاً: بجدّية: «سمعت بذلك».

توجهت السيدة ويلبول إلى كاونتر اللحوم وقالت: «تسألك السيدة ناش أن تبقي لها خاصرة الخنزير. ستمرّ بك لاحقاً لتأخذها».

«وصل إلى هذا الحدّ، تخلّصي منه». قال الرجل.

«صحيح»، أجاب البقّال.

نظر الرجل إلى السيدة ويلبول وقال: «أعتقد أنه يجب أن ترديه بالرصاص».

«أتمنّى ألّا يحصل ذلك، فكلّنا متعلقون بالكلبة».

تبادل الرجل والبقّال النظرات، ثم قال البقّال برصانة: «لن يكون مقبولاً سيدة ويلبول الإبقاء على كلب يقتل الدجاج».

«تعرفين أن أحدهم سيخردقه برصاصه كاحتمال أول». قال الرجل ذلك وصار يضحك هو والبقّال.

«هل من طريقة تشفى فيها الكلبة؟». سألت السيدة ويلبول.

«بالتأكيد هناك، أطلقي النار عليه». قال الرجل.

«ربط دجاجة بعنقه قد يفي بالغرض». اقترح البقّال.

«سمعت بمن قام بذلك»، قال الرجل الآخر.

«وهل نفع ذلك؟». سألت السيدة ويلبول وكلّها حماسة.

هزَّ الرجل رأسه ببطء وبحزم.

قال البقال وهو يستند إلى «كاونتر» اللحوم وقد كان ثرثاراً لا يشق له غبار: «هل لك أن تعرفي»، ثم كرّرها مرة أخرى: «هل لك أن تعرفي أن والدي كان لديه كلب يأكل البيض، يتسلّل إلى قنّ الدجاج ويكسر البيض ويلحس ما فيه. ربما أكل نصف البيض الذي نحصّله».

«يا للسوء، كلب يأكل البيض». قال الرجل الآخر.

«نعم يا له من فعل سيّئ»، أكد البقّال على ذلك، ووجدت السيدة ويلبول نفسها تهزّ رأسها. وليقول البقّال: «في النهاية لم يعد أبي يحتمل ذلك، وقد التهم الكلب نصف البيض، أخذ بيضة، ووضعها خلف الموقد ليومين أو ثلاثة أيام، إلى أن نضجت، وصارت ناضجة وساخنة، وتفوح منها رائحة نتنة. وحينها –وقد كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة– نادى الكلب فأجابه راكضاً، فمسكته، وفتح أبي فمه ووضع في داخله البيضة ورائحتها قد وصلت إلى عنان السماء، وأغلق فمه بحيث لا يستطيع التخلّص منها ما لم يقم بابتلاعها». هزّ البقّال رأسه ضاحكاً وقد أنعشته الذكريات.

«أراهن على أن الكلب لم يعد إلى أكل البيض»، قال الرجل.

«لم يلمس بيضة قط، لا بل إنه كان يركض كما لو أن الشيطان يلاحقه إن وضعت بيضة أمامه».

«لكن مـاذا كان شعوره نحوك، هل أحبّك من جديد؟». سألت السيدة ويلبول.

نظر كلاهما إليها وسألها البقّال: «ما الذي تعنينه بذلك؟».

«آه، لا» قال البقّال ذلك بعد تفكير مليّ، وأردف: «لا أعتقد أنه كان كذلك يوماً. ليس كما هي الكلاب عادة».

«ثمة شيء واحد يجب تجريبه»، قال الرجل الآخر فجأة للسيدة ويلبول: «إن كنت تريدين الشفاء لذلك الكلب، فيجب محاولة القيام بشيء واحد».

«وما هو؟».

«يجب أن تأخذي ذاك الكلب»، قال الرجل وهو يمطّ جسمه المستند إلى «الكاونتر» مشيراً بإحدى يديه: «خذيه وضعيه في زريبة مع دجاجة بيّاضة لديها صيصان تحميها، وفي الوقت الذي يمضيها معها سيكون كفيلاً بألّا يطارد دجاجة أخرى».

ضحك البقّال والسيدة صارت تنقّل ناظريها بين البقّال والرجل الآخر الذي كان يحدّق إليها بوجه خلا من الضحك، وعينين وسيعتين صفراوين كما لو أنهما عينا قطّ.

«وماذا سيحدث؟». سألت متشككة.

«ستسقط من عينه ولن يعود قادراً على أن يرى دجاجة أخرى». قال البقّال حاسماً الأمر.

أحسّت السيدة ويلبول بالإعياء، وانسحبت ملتفتة بابتسامة، لئلّا تبدو فظّة، وأسرعت مبتعدة عن «كاونتر» اللحوم إلى نهاية المحل. واصل البقّال الحديث مع الرجل، وما هي إلّا دقيقة حتى أصبحت السيدة ويلبول في الخارج، وقد قرّرت الذهاب إلى البيت والتمدّد لحين موعد الغداء، مؤجلة تسوّقها لوقت آخر.

اكتشفت في البيت أنها لن تستطيع التمدّد ما لم ترتب طاولة الفطور وتجلي الصحون، وفي الوقت الذي استغرقته بذلك وجب عليها البدء

بإعداد الغداء. وأثناء وقوفها أمام النملية تقلّب الأفكار في رأسها، تخلّل ضوء الشمس الرابض عند المدخل شكل أسود ولتدرك أن ليدي دخلت إلى البيت. بقيت لوهلة لا تحرك ساكناً. أتت الكلبة بهدوء ووداعة، كما لو أنها أمضت الصباح تتقافز وتلعب مع رفيقتها على العشب، لكن بقع دم كانت على أقدامها، كما أنها راحت تعبّ ماءها بنهم. كان توبيخها أول ما تبادر إلى ذهن السيدة ويلبول، أن تمسكها وتضربها على ما تعمّدت إحداثه من ألم وشرّ، وعلى الوحشية الإجرامية التي نجحت جيداً في إخفائها، هي الكلبة الجميلة ليدي، ولتراها تمضي مسرعة وتجلس في مكانها المعتاد قرب الموقد، ولتأخذ السيدة ويلبول ما رأت أمامها من معلبات في النملية وتضعها على طاولة المطبخ.

ظلّت ليدي جالسة وهادئة إلى أن جاء الولدان صاخبين إلى طاولة الغداء، حينها بدأت تنطّ وتقفز عليهما، مرحّبة بهما كما لو أنهما ضيفان وهي صاحبة البيت. وراحت جودي تشدّ ليدي من أذنيها قائلة: «هالو ماما، هل تعرفين ما فعلته ليدي؟». وانتقلت إلى مخاطبة ليدي: «أنت كلبة شريرة، ستعدمين بالرصاص».

عاود السيدة ويلبول شعورها بالإعياء ورمت بصحن على الطاولة وهي تقول: «جودي ويلبوك».

«سيحصل هذا يا ماما، ستعدم بالرصاص».

لا يعرف الأطفال حقيقة الأشياء، الموت ليس حقيقيّاً بالنسبة إليهم. تحلَّي بالحكمة، جال ذلك في خاطر السيدة ويلبول ومضت إلى مخاطبتهم بمنتهى الهدوء: «اجلسوا وتناولوا غداءكم يا أولاد».

«لكن يا ماما، سيحصل هذا لليدي»، قال كلّ من جودي وجاك ذلك.

جلسا بصخب، وفردا منديلهما وهجما على الطعام من دون أن ينظرا إليه، لا يتوقون إلى شيء سوى الكلام.

«ماما هل تعرفين ما الذي قاله السيد شيفرد؟». وصار جاك يسعى لأن يتكلّم وفمه مليء بالطعام.

«اسمعي ما الذي قاله». قالت جودي.

السيد شيفرد رجل لطيف، بيته بالقرب من بيت عائلة ويلبول، ويعطي الأولاد نكلات ويأخذهم إلى الصيد. «قال إنها ستعدم بالرصاص». قال جاك.

«ماذا عن الشوك، خبّرنا عنه». قالت جودي.

«نعم الأشواك، اسمعي ماما قال إنه يجب أن تحضري طوقاً لليدي...».

«طوقاً قويّاً»، أضافت جودي.

«وتثبّتي على هذا الطوق مسامير كبيرة وثخينة، مدبّبة مثل الشوك».

«على كلّ الطوق»، قالت جودي: «دعني أوضح ذلك جاك. تثبتين المسامير على كلّ الطوق، بحيث تصبح رؤوسها المدبّبة داخله».

«دعيني أحكي هذا الجزء»، قال جاك. تحلّين الطوق وتضعينه حول عنق ليدي...».

«و_» تضع جودي يديها حول عنقها وتصدر صوت خنق.

«انتظري»، قال جاك: «ليس الآن يا غليظة، قبل ذلك نحضر حبلاً طويلاً طويلاً طويلاً طويلاً».

تضخم جودي صوتها: «حبل طويل كثيراً جدّاً».

«تربطين الحبل بالطوق، ثم تضعين الطوق حول عنق ليدي»، قال جاك. كانت ليدي جالسة بالقرب منه، فانحنى عليها وقال: «ثم نضع الطوق بمساميره الشوكية الحادّة حول عنقك»، وقبّل أعلى رأسها، بينما ليدي تنظر نحوه نظرة كلّها عطف وحنان.

«ثم نأخذها إلى حيث يوجد دجاج، وندعها ترى الدجاج ونحلّ لها الحبل». قالت جودي.

«نجعلها تطارد الدجاجات»، قال جاك: «ثمّ، ثمّ، ما إن تصبح قريبة من الدجاجات، نقوووووم بشدّ الحبل -».

«وعندها -» عاودت جودي إصدار صوت الخنق.

«وتقوم المسامير الشوكية بقطع رأسها»، وختم جاك حديثه على نحو درامي.

وراحا يضحكان وليدي تنقّل ناظريها بينهما، وهي تلهث كما لو أنها تضحك أيضاً.

نظرت السيدة ويلبول إليهما، إلى ولديها بأيديهما المقشبة ووجهيهما الملفوحين بالشمس، إلى كلبتها والدم ما زال على أقدامها وهي تشاركهما الضحك. مضت إلى باب المطبخ ونظرت إلى التلال الخضراء الوادعة، وشجرة التفاح تحركها نسمات الظهيرة العليلة.

كان جاك يقول: «نقطع رأسك».

وقد عمّ كلّ شيء الهدوء والسكينة في ضوء الشمس، السماء الوادعة، خطّ التلال الرهيف. أغمضت السيدة ويلبول عينيها، فأحسّت فجأة بأيادٍ غليظة تشدّها نحو الأسفل، والرؤوس المسمارية المدبّبة تكاد تطبق على حنجرتها.

من بعدك يا عزيزي ألفونسو[1]

ما إن أخرجت السيدة ويلسون كعكة الزنجبيل من الفرن حتى سمعت جوني يحادث أحداً في الخارج.

نادته: «جوني، لقد تأخرت، تعالَ وتناول غداءك».

فأجابها: «دقيقة وآتي يا أمي». وأردف: «من بعدك يا عزيزي ألفونسو».

«من بعدك يا عزيزي ألفونسو». قال الصوت الآخر.

«من بعدك يا عزيزي ألفونسو»، قال جوني.

فتحت السيدة ويلسون الباب وقالت: «تعالَ الآن، تغدَّ ثم العب».

لحق بها وقال: «لقد دعوت بويد إلى الغداء».

«بويد؟». سرحت السيدة ويلسون لبعض الوقت. «لا أظنّ أنني التقيت بويد من قبل، وطالما دعوته فدعه يدخل، الغداء جاهز».

وصرخ جوني منادياً: «بويد يا بويد تعالَ!».

«سآتي، يجب أن أنزع عني الأشياء فقط».

«لتسرع إذن، وإلّا ستتضايق أمي».

«جوني في ذلك قلّة تهذيب سواء تجاه صديقك أو تجاه أمك». قالت السيدة ويلسون: «تعالَ بويد واجلس».

وما إن التفتت لترى بويد أين يجلس رأت أنه صبي زنجي، بعمر جوني

1- تعود هذه العبارة إلى سلسلة قصص مصورة بعنوان: «ألفونسو وغاستون» لواحد من رواد هذا الفن، فردريك أوبر (1857-1938). وقد نشرت أول ما نشرت في جريدة «نيويورك جورنال» عام 1901، وقد درجت الشخصيتان على استخدام الكثير من عبارات التبجيل في حوارهما. المترجم

لكنه أصغر حجماً، وقد أحاط ذراعيه بالعديد من الأعواد والأخشاب. «أين أضعها جوني؟». سأل.

التفتت السيدة ويلسون إلى جوني وقالت: «جوني ما الذي دفعت بويد إلى فعله، وما هذه الأخشاب؟».

«قتلى يابانيون». قال جوني برفق. «نصفّهم على الأرض وندهسهم بالدبابات».

«تشرّفت بمعرفتك سيدة ويلسون». قال بويد.

«تشرّفت بك أيضاً يا بويد. ما كان لك أن تدع جوني يحمّلك هذه الأخشاب. اجلسا الآن وتناولا الغداء».

«ولماذا لا يحمل الأخشاب يا أمي؟ إنها له، وحصّلناها من بيته».

«هيّا جوني تناول غداءك». قالت السيدة ويلسون.

«نعم سأفعل». ثم مرّر صحن البيض المقلي إلى بويد. «من بعدك يا عزيزي ألفونسو».

«من بعدك يا عزيزي ألفونسو». قال بويد.

«من بعدك يا عزيزي ألفونسو» قال جوني. وصارا يضحكان.

«هل أنت جائع يا بويد؟».

«نعم سيدة ويلسون».

«حسناً لا تدع جوني يلهيك عن الطعام، فهو دائماً ما يتأفّف منه، لا تلتفت إلّا لحقيقة أنك ستحظى بغداء جيد. هناك الكثير من الطعام لتتناول منه ما تشاء».

«شكراً سيدة ويلسون».

«هيّا يا ألفونسو»، قال جوني بينما كان يضع نصف البيض في صحن بويد، بينما وضعت السيدة ويلسون صحن يخنة الطماطم بجانبه.

«بويد لا يأكل الطماطم، أليس كذلك؟». قال جوني.

«لا تقل هذا يا جوني عن بويد، لأنك لا تحبّ الطماطم، فهذا لا يعني أنه لا يحبّها. بويد سيأكل أيّ شيء».

«أراهن على أنه لن يأكلها» قال جوني ذلك وهجم على البيض.

«بويد يريد أن يكبر ويصبح رجلاً مجدّاً في عمله»، قالت السيدة ويلسون. «أراهن على أن والد بويد يأكل يخنة الطماطم».

«أبي يأكل أيّ شيء يريد، وأنا أيضاً».

«وكذلك أبي»، قال جوني. «وأحياناً بالكاد يأكل شيئاً. إنه رجل صغير، لا يستطيع إيذاء ذبابة».

«وأبي أيضاً رجل صغير»، قال بويد.

«أراهن على أنه قويّ رغم ذلك»، ثم سألت السيدة ويلسون بتردّد: «هل... يعمل؟».

«بالتأكيد يعمل» قال جوني. «والد بويد يعمل في معمل».

«أرأيت؟». قالت السيدة ويلسون: «ويجب بالتأكيد أن يكون قويّاً ليعتّل ويجرّ ويحمّل في المعمل».

«لا يحتاج والد بويد لكلّ ذلك، فهو مشرف على العمال».

أحسّت السيدة ويلسون بشيء من الهزيمة. «وماذا تعمل والدتك يا بويد؟».

فاجأ السؤال بويد: «تتولّى العناية بي وبأخوتي».

«أوه، إنها لا تعمل إذن».

«ولماذا يجب أن تعمل»، قال جوني، وأردف: «أنت لا تعملين أيضاً».

«هل أنت متأكد يا بويد من أنك لا تريد بعضاً من يخنة الطماطم؟».

«لا أريد، شكراً لك سيدة ويلسون».

«لا أريد، شكراً لك سيدة ويلسون، لا أريد، شكراً لك سيدة ويلسون، لا أريد، شكراً لك سيدة ويلسون»، قال جوني. «أخت بويد ستعمل أيضاً، رغم أنها تدرس لتصير معلمة».

«يا له من سلوك حسن يا بويد». سيطرت السيدة ويلسون على اندفاعها نحو التربيت على رأس بويد. «أعتقد أنكم جميعاً فخورن بها؟».

«أظنّ ذلك» قال بويد.

«ماذا عن الأخوة والأخوات الآخرين؟ أعتقد أنكم جميعاً تريدون أن تتوصّلوا إلى أفضل ما بمقدوركم فعله».

«ليس لديَّ من أخت سوى جين، وأنا لم أعرف بعد ما أريد فعله عندما أكبر».

«سنصبح أنا وبويد سائقي دبابات... صوّب»، أخذت السيدة ويلسون كوب الحليب من أمام بويد حين تحوّلت حلقات مناديل المائدة إلى دبابات، وصارت تحرث الطاولة بقوة.

«انظر جوني، هناك خندق. أنا أصوّب نحوك».

أخذت السيدة ويلسون صحن كعك الزنجبيل من الرفّ، بخفّة متأتية من خبرتها الطويلة، ووضعته بين الدبابة والخندق. «الآن كلْ قدر ما تشاء يا بويد، أريد أن أراك أكلت حتى التخمة».

«يأكل بويد كثيراً، لكن ليس أكثر ممّا آكل»، قال جوني: «أنا أكبر منه...».

«ليس كثيراً»، قال بويد: «أستطيع أن أسبقك في الركض».

أخذت السيدة ويلسون نفساً عميقاً «بويد» فالتفت كلاهما إليها. «بويد، لدى جوني بدلات ومعطف شتوي صغر قياسها عليه. بالطبع ليست جديدة، لكن ما زال ارتداؤها ممكناً. ولديَّ بعض الأثواب التي يمكن لأمك وأختك أن ترتديها. ويمكن لأمك أن تصنع منها أشياء كثيرة لكم جميعاً. سيسعدني كثيراً أن أعطيها لك. سأضعها في صرّة قبل أن تذهب لتأخذها أنت وجوني إلى أمك مباشرة». خفت صوتها حين رأت علائم الدهشة على وجه بويد.

«لكن لديَّ الكثير من الثياب، ولا أظنّ أن أمي تعرف أن تخيط بشكل جيد، فنحن على كلّ حال نشتري كلّ ما نريده. ومع ذلك شكراً جزيلاً».

«ليس لدينا وقت لحمل أشياء قديمة، فنحن سنلعب اليوم بالدبابات مع الفتية». قال جوني.

أخذت السيد ويلسون صحن كعك الزنجبيل بينما كان بويد يهمّ بأخذ قطعة منه. «هناك الكثير من الأولاد، ممن هم مثلك يا بويد، سيكونون ممتنّين لكرم من يعطيهم ثياباً».

«بويد سيأخذ الثياب إن أردت ذلك يا أمي»، قال جوني.

«لم أقصد إزعاجك سيدة ويلسون»، قال بويد.

«لا تظنّ أنني غاضبة يا بويد، لقد خاب ظنّي بك، هذا كلّ ما في الأمر. والآن لنتوقف عن قول أيّ شيء بهذا الخصوص».

ومضت ترفع الصحون عن الطاولة، وبدوره شدّ جوني بويد من يده باتجاه الباب. «وداعاً ماما»، ووقف بويد لبعض الوقت متأمّلاً السيدة ويلسون.

«من بعدك يا عزيزي ألفونسو»، قال جوني ممسكاً الباب.

سمعت السيدة ويلسون بويد يسأل جوني بصوت منخفض: «هل ما زالت أمك غاضبة؟».

«لا أعرف، فهي أحياناً تبدو غريبة الأطوار».

«وكذلك أمي»، قال بويد، وأردف بعد تردّد: «من بعدك يا عزيزي ألفونسو».

تشارلز

في اليوم الأول لذهاب ابني لاوري إلى روضة الأطفال هجر «الأفورلات» القطنية والصداري والفوط وبات يرتدي بناطيل الجينز مع أحزمة؛ شيّعته بناظري وهو يمضي في صبيحته الأولى رفقة فتاة تكبره في البيت المجاور، وقد تبدّى لي بوضوح أن فترة من حياتي قد انقضت، وأن صغيري بصوته الحلو في الروضة - المدرسة صار شخصاً مزهوّاً بنفسه يرتدي البناطيل الطويلة، وينسى أن يلوّح لي مودعاً.

عاد إلى البيت كعهدي به، مقتحماً الباب الأمامي بقوة، رامياً قبعته على الأرض، وصوته أمسى فجأة أجشّ وهو يصرخ: «هل من أحدٍ هنا؟».

تكلّم مع أبيه بصلافة إلى مائدة الغداء، وأراق حليب أخته، وأشار إلى أن معلمته قالت إنه يجب ألّا ننطق باسم الرب بالباطل[1].

«كيف كانت المدرسة اليوم؟». سألته متعمدة أن يبدو سؤالي عرضياً.

«جيدة».

«ما الذي تعلمته؟». سأله أبوه.

«لم أتعلّم شيئاً». أجاب لاوري ببرود.

«أيّ شيء، لم تتعلّم أيّ شيء». قلت.

«لقد صفعت المعلمة صبيّاً»، قال لاوري مخاطباً الخبز والزبدة أمامه، وأردف بفم ملآن: «لأنه قليل الأدب».

«ماذا فعل، ومن يكون؟». سألته.

1- إحالة إلى الوصايا العشر في سفر الخروج في الكتاب المقدّس: «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً». المترجم

فكّر لبعض الوقت ثم قال: «إنه تشارلي، لقد قلّل أدبه، صفعته المعلمة وأوقفته في الزاوية، يا له من قليل أدب».

«ماذا فعل؟». سألته مجدّداً، لكن لاوري سحب كرسيه، أخذ كعكعة، وغادر، بينما أبوه يقول له: «انظر هنا يا فتى».

في اليوم التالي، مضى لاوري بمجرد جلوسه، إلى القول: «أساء تشارلز التصرف اليوم». وأردف مكشّراً، «لقد ضرب المعلّمة اليوم».

«يا إلهي»، قلت، حريصة ألّا أذكر اسمه بالباطل: «لا بدّ أنه تلقّى صفعة جديدة؟».

«نعم بالتأكيد»، ثم قال لأبيه: «انظر إلى فوق».

«ما الذي هناك فوق؟». قال أبوه وهو ينظر إلى الأعلى.

«انظر إلى تحت. انظر إلى إبهامك، يا لبلاهتك»[1]. ومضى لاوري يضحك بجنون.

سارعت إلى سؤاله: «لماذا ضرب تشارلز المعلمة؟».

«لأنها حاولت جعله يلوّن بقلم الشمع الأحمر، بينما هو يريد أن يلوّن بالأخضر، فقام بضربها فصفعته وقالت: «لا أحد يلعب مع تشارلز، لكننا جميعاً لعبنا معه».

في اليوم الثالث -يوم الأربعاء من الأسبوع الأول – ضرب تشارلز فتاة بلعبة الميزان فنزف رأسها، ومنعته المعلّمة من الخروج من الصف في الاستراحات. وكان على تشارلز يوم الخميس أن يقف في الزاوية أثناء الحصة المخصصة للحكايات، لأنه لم يتوقف عن ضرب رجليه بالأرض. ويوم الجمعة حُرِم من امتيازات السبورة لأن رمى الطباشير.

السبت قلت لزوجي: «ألا تعتقد أن الروضة مضطربة الأحوال بالنسبة للاوري؟ كلّ تلك الصرامة، والتدريس السيّئ للقواعد، وتشارلز هذا الذي قد يكون ذا أثر سيّئ على لاوري».

«لا بأس ستتحسّن الأمور»، قال زوجي مطمئناً. «من المتوقع وجود أناس مثل تشارلز في هذا العالم. وما لم يلتقِ بهم الآن فلاحقاً سيفعل».

1- يتلاعب لاوري لفظياً بين Thumb و Dumb. المترجم

يوم الإثنين انتظرت لاوري قلقة أمام البيت، إلى أن عاد متأخراً، وراح يصرخ «تشارلز»، ما إن ظهر أعلى التلة: «تشارلز أقدم على فعل شيء مجدّداً».

«ادخل»، قلت له ما إن صار قريباً. «الغداء بانتظارك».

«هل تعرفين ما فعله تشارلز؟». سألني وهو يتبعني إلى داخل البيت. «ملأ تشارلز المدرسة صراخاً، وأرسلوا صبيّاً من الصف الأول ليسأل المعلمة أن تلزمه الهدوء، وهكذا كان على تشارلز أن يبقى معاقباً بعد الدوام، فبقي جميع الصبية معه يراقبونه».

«وماذا فعل؟». سألته.

«بقي جالساً فقط»، قال لاوري ذلك وهو يتسلّق كرسيّه أمام الطاولة. «مرحباً بابا، يا ممسحة مهترئة».

«كان على تشارلز اليوم أن يبقى معاقباً لما بعد انتهاء دوام المدرسة، وبقي معه الجميع». قلت لزوجي.

«من هذا تشارلز، كيف شكله، وما هي كنيته؟». سأل زوجي لاوري.

«أكبر مني، وليس لديه أيّ ممحاة ولا يرتدي جاكيتاً أبداً».

ليلة الإثنين كان موعد أول اجتماع للأهالي مع المعلمين، إلّا أن نزلة برد أصابت الصغيرة حالت دون ذهابي، وكم كنت راغبة بلقاء والدة تشارلز. الثلاثاء قال لاوري إن صديقاً جاء لزيارة المعلمة في المدرسة.

فسألته أنا وزوجي في الوقت نفسه: «مَنْ... أمّ تشارلز؟».

«لاااا»، قال لاوري بازدراء. «لقد كان مدرباً رياضيّاً جعلنا نلامس بأيدينا أصابع أرجلنا. انظروا». نزل عن كرسيّه وراح يحني جذعه ويلامس بيديه أصابع رجليه، «هكذا». ثم عاد إلى كرسيّه بجدّية مفرطة، وقال وهو يلتقط شوكته: «تشارلز لم يقم بالتمارين الرياضية».

«ليكن، فتشارلز لم يرد أن يتمرّن؟». قلت واثقة.

«لاااا»، قال لاوري. «تشارلز قلّل الأدب مع صديق المعلمة فحرمه من التمرين».

«قلّة أدب مجدّداً؟». قلت.

«لقد ركل صديق المعلمة. حين سأل تشارلز أن يلامس أصابع رجليه كما فعلت قام تشارلز بركله».

«ما الذي سيفعلونه بتشارلز، هل تعرف؟». سأله والده.
عمد لاوري إلى هزّ كتفيه وقال: «سيطردونه من المدرسة على الأغلب».
مرَّ يوما الأربعاء والخميس كالمعتاد؛ صرخ تشارلز أثناء حصة القصة وضرب صبياً على معدته وجعله يبكي. يوم الجمعة عوقب بإبقائه بعد دوام المدرسة وبقي معه جميع الأولاد.
ومع الأسبوع الثالث على الروضة أصبح تشارلز الدستور الذي يحكم عائلتنا؛ إن بكت الطفلة طيلة الظهيرة فإنها تشارلز؛ وسيلعب لاوري دور تشارلز إن ملأ عربته بالطين وجاء يجرجرها في المطبخ؛ وحتى زوجي حين يعلّق شريط الهاتف بكوعه ويسحبه، آخذاً معه المنفضة، والمزهرية، عن الطاولة، صار يقول للوهلة الأولى: «هذا أشبه بأفعال تشارلز».
أثناء الأسبوع الثالث والرابع بدا أن تشارلز قد دخل مرحلة الإصلاح، إذ نقل إلينا لاوري متجهّماً إلى مائدة غداء الخميس من الأسبوع الثالث أن تشارلز كان مهذباً وأن المعلمة أعطته تفاحة.
«ماذا؟». قلت. وأضاف زوجي بحذر: «أتقصد تشارلز نفسه؟».
«قام تشارلز بتوزيع أقلام التلوين وجمع الدفاتر، وقالت المعلمة إنه مساعدها».
«ما الذي حصل؟». سألتُ متشكّكة.
«لقد أصبح مساعدها، هذا كلّ ما في الأمر»، قال لاوري، وانكمش على نفسه.
«هل ما صار عليه تشارلز حقيقي، هل يمكن لهذا أن يحدث؟». سألتُ زوجي في تلك الليلة.
«لننتظر ونرى»، قال زوجي متهكّماً. «ما صار عليه تشارلز يشي بأنه في صدد التخطيط لأمر ما».
لكنه كان مخطئاً، ذلك أن تشارلز على امتداد أسبوع أو أكثر بقي مساعد المعلمة، في كلّ يوم يوزّع الأغراض ويجمعها، وما من أحد بقي بعد دوام المدرسة.
«سيقام اجتماع الأهالي مع المدرسين في الأسبوع المقبل، وحينها سألتقي بوالدة تشارلز». فقال زوجي: «اسأليها عمّا حلّ به، أريد أن أعرف».

«وأنا أيضاً أريد أن أعرف»، قلت.

في يوم الجمعة من ذلك الأسبوع عادت الأمور إلى مجاريها. «هل تعرفين ما الذي فعله تشارلز اليوم. سأل فتاة صغيرة أن تقول كلمة فقالتها فغسلت المعلمة فمها بالصابون بينما تشارلز يضحك». قال لاوري ذلك إلى مائدة الغداء بصوت مهيب.

«ما هذه الكلمة؟». سأله والده مندفعاً، وأجابه لاوري: «سأهمس بها لك، إنها بذيئة جدّاً». نزل عن كرسيّه متّجهاً نحو أبيه، الذي بدوره أحنى رأسه، فهمس بها لاوري فرحاً بأذنه. اتسعت عينا أبيه.

«هل طلب تشارلز من الفتاة أن تقول ذلك؟». سأله والده برصانة.

«قالتها مرتين، تشارلز طلب منها أن تقولها مرتين».

«وماذا حصل لتشارلز؟». سأله زوجي.

«لا شيء، ظلّ يوزع أقلام التلوين».

في يوم الإثنين ترك تشارلز الفتاة الصغيرة وشأنها، وبادر هو بنفسه إلى ترديد الكلمة الشريرة ثلاث مرات أو أربعاً، وجرى غسل فمه بالصابون في كلّ مرة قالها فيها، كما قام برمي الطباشير.

في يوم الاجتماع العائلي في المدرسة، لحقني زوجي إلى الباب، وسألني أن أدعو والدة تشارلز إلى البيت: «أريد أن أتعرف عليها».

«عساها تكون حاضرة»، قلت راجية ذلك.

«ستكون هناك، فكيف لهم أن يعقدوا هذا الاجتماع من دون وجود والدة تشارلز».

اتخذت كرسيّاً في الاجتماع، ورحت أتحرّى كلّ وجه مستكين هانئ، ساعية إلى تحديد من منهن تحمل سرّ تشارلز. ولا واحدة منهن بدت عليها علائم الإجهاد، وما من واحدة منهن وقفت واعتذرت عن سلوك ابنها، أو جاءت على ذكر تشارلز.

تبيّنت بعد الاجتماع معلمة لاوري. كانت تحمل فنجان شاي وقطعة كيك بالشوكولا، بينما كان في يدي فنجان شاي وقطعة مارشميلو. بعد عدة مناورات حذرة بيننا، تبادلنا الابتسامات.

«كلّي لهفة للتعرف عليك، أنا والدة لاوري».

«إننا جميعاً مهتمّون بلاوري»، قالت المعلمة.

«وهو يحبّ الروضة كثيراً، ويتكلّم عنها طيلة الوقت».

«واجهنا في الأسبوع الأول أو نحو ذلك مشاكل صغيرة في تأقلمه، لكنه أصبح الآن المساعد الصغير اللطيف، من دون أن يخلو ذلك من بعض الانتكاسات طبعاً».

«من عادة لاوري أن يتأقلم بسرعة. ربما هذا نابع من تأثير تشارلز عليه».

«تشارلز؟».

«نعم»، قلت ضاحكة: «لا بدّ أن الروضة تتعبك بوجود تشارلز».

«تشارلز؟» قالت: «لا وجود لأحد اسمه تشارلز في الروضة».

ظهيرة الكتّان

هي غرفة متطاولة، جميلة، لأثاثها أن يهب الراحة والهناءة، ولنوافذها الوسيعة أن تطلّ على شجيرات الأرطاسيا في الخارج وقد زحفت ظلالها الرهيفة على بلاطها. كلّ من تواجد فيها، ارتدى الكتّان - الفتاة الصغيرة بثوبها الكتاني الوردي وحزامه الأزرق، السيدة كاتور ببدلتها البنية الكتانية وقبعتها الصفراء الكبيرة، والسيدة لينون، جدة الفتاة الصغيرة، ارتدت ثوباً كتانياً أبيض، كذلك هو هاورد ابن السيدة كاتور بقميصه وشورته الأزرقين الكتانيين. تبادر إلى ذهن الفتاة الصغيرة، وهي تحدق إلى جدتها، بأن من في الغرفة أشبه بالجنتلمانات في قصة «آليس في المرآة» الذين كانوا يرتدون الورق الأبيض، لدرجة اعتبرت نفسها جنتلماناً يرتدي ورقاً وردياً. ورغم كون السيدة لينون والسيدة كاتور جارتين، وتلتقيان كلّ يوم تقريباً، إلّا أنها كانت جلسة رسمية لاحتساء الشاي.

كان هاورد جالساً أمام البيانو المواجه لأكبر نافذة في نهاية الغرفة المتطاولة، يعزف بحذر لحن «هوموريسك» بطيء الإيقاع. لقد عزفتُ هذه المقطوعة العام الماضي، فكّرت الفتاة؛ إنها على سلّم الصول. كانت السيدتان لينون وكاتور وفنجانا شايهما بيديهما، تنظران نحو هاورد منصتتين إليه، وبين الفينة والأخرى تتبادلان النظرات وتبتسمان. ما زلت أستطيع عزف ذلك إن أرادتا، فكّرت الفتاة.

حين فرغ هاورد من عزفه، نزل عن كرسي البيانو وتوجّه نحو الفتاة وجلس بجانبها تكسوه علائم الجدّية، منتظراً ما إذا كانت أمه ستسأله أن يعزف المزيد أم لا. إنه أطول مني، خلصت الفتاة إلى ذلك، لكنني أكبر عمراً، أنا في العاشرة. إن سألوني أن أعزف لهم الآن، فإنني سأرفض.

«عزفك حلو يا هاورد»، قالت جدة الفتاة. ساد صمت ثقيل لبضع دقائق، ثم قالت السيدة كاتور: «هاورد ألم تسمع سيدة لينون». همهم هاورد ناظراً إلى يديه على ركبتيه.

«أعتقد أنه يتحسّن»، قالت السيدة كاتور للسيدة لينون: «لا يحبّ أن يتمرّن، لكنه يتحسّن».

«هاريت تحبّ التمرّن»، قالت جدة الفتاة: «تجلس لساعات أمام البيانو مخترعة ألحاناً وأغاني صغيرة».

«لعلّها تتحلّى بموهبة حقيقية بالموسيقى. غالباً ما أتساءل ما إذا كان هاورد يقوم بما تتطلّبه الموسيقى منه». قالت السيد كاتور.

«هاريت، ألن تعزفي لي شيئاً من تأليفك؟». قالت السيدة كاتور مخاطبة الفتاة الصغيرة.

«لا أعرف عزف أيّ معزوفة».

«بالتأكيد تعرفين». قالت جدة الفتاة.

«أرغب كثيراً بسماع مقطوعة من المقطوعات الصغيرة التي ألّفتها بنفسك»، طلبت السيدة كاتور من هاريت.

«لا أعرف عزف أيّ معزوفة».

نظرت السيدة لينون إلى السيدة كاتور نظرة مستهجنة، وهزّت الأخيرة رأسها قائلة: «خجولة»، ثم التفتت ناظرة إلى هاورد نظرة فخر.

زمّت الجدة شفتيها مبتسمة. «عزيزتي هاريت، ولو لم نرغب بعزف ألحاننا الصغيرة، فإنه يجب علينا أن نخبر السيدة كاتور بأن الموسيقى ليست أفضل ما لدينا. أعتقد أن علينا أن نريها إنجازاتنا الحقيقية في مجال آخر». وواصلت الجدّة التفاتها إلى السيدة كاتور: «لقد كتبت عدداً من القصائد، سأسألها أن تلقي لك منها، فإنني ورغم انحيازي»، ضحكت ضحكة مقتضبة: «أرى فيها، موهبة حقيقية».

«ليتها تفعل، كرمى لله!» قالت السيدة كاتور لهاريت بسرور واضح. «لماذا لا علم لي يا عزيزتي بأنك بارعة في أشياء كهذه! أحبّ كثيراً أن أسمعها».

«هاريت، ألقي واحدة من قصائدك على السيدة كاتور».

نظرت الفتاة مبتسمة إلى جدتها والسيدة كاتور، التي أحنت جذعها تنظر إلى هاورد فاتحاً فمه وفي عينيه سرور متعاظم.

«لا أعرف أيّ قصيدة».

«هاريت»، قالت جدتها: «حتى وإن كنت لا تتذكرين أيّاً منها، لديك ما هو مدوّن منها، ولن تمانع السيدة كاتور أن تقرئي منها».

السعادة الهائلة التي كانت تستولي على هاورد تدريجيّاً سرعان ما غمرته، فراح يضحك وهو جالس على الأريكة قائلاً: «قصيدة، هاريت تكتب قصائد». وصارت هاريت تفكر بأنه سيخبر كلّ أولاد الحيّ بذلك.

«أظنّ أن هاورد غيران». قالت السيدة كاتور.

«هاها»، قال هاورد. «لن أكتب قصيدة، ولن تستطيعي دفعي إلى القيام بذلك إن أردت».

«ولن تستطيعي دفعي إلى ذلك أيضاً. وكلّ ما قيل عن القصائد كذب». قالت الفتاة.

ساد الصمت لمدة طويلة، ثم قالت الجدّة بصوت محزون: «ولماذا يا هاريت! ما هذا الذي قلته عن جدتك!» قالت السيدة كاتور: «من الأفضل أن تعتذري يا هاريت»، قالت الجدة. «الأفضل أن تفعلي»، قالت السيدة كاتور.

«لم أفعل شيئاً». ثم همهمت، «أنا آسفة».

وجاء صوت الجدة حازماً: «أحضري الآن قصائدك واقرئيها على السيدة كاتور».

«صدقاً ليس لديَّ أيّ منها يا جدتي، صدقاً ليس لديَّ أيّ قصائد».

«حسناً أنا لديّ، أحضريها من الدرج الأول في الطاولة».

تردّدت الفتاة لبعض الوقت، وهي تنظر إلى فم الجدة المزموم وعينيها المحدقتين.

«حسناً، سيحضرها إليك هاورد سيدة لينون»، قالت السيدة كاتور.

«في الحال»، وقفز هاورد راكضاً نحو الطاولة، وفتح الدرج صارخاً: «كيف أعرفها، ما شكلها؟».

«في مغلف بني، مكتوب عليه: أشعار هاريت»، قالت الجدة متوترةً.

«ها هي»، قال هاورد. أخرج بعض الأوراق من المغلف وتصفّحها لبعض الوقت. «انظري، إنها قصائد هاريت عن النجوم» وركض نحو أمه ضاحكاً والأوراق في يده. «انظري أمي، إنه شِعر هاريت عن النجوم».

«أعطها للسيدة لينون يا عزيزي»، قالت أم هاورد: «من المعيب أن تفتح المغلف». أخذت السيدة لينون المغلف وأعطته لهاريت. «هل ستقرئين أم أقرأ أنا؟». سألتها بلطف. هزّت هاريت رأسها، فتأفّفت الجدة وأخذت أول ورقة، وانكبّت عليها بحماسة، وجلس هاورد عند قدميها، محيطاً ركبتيه بساعديه ودافناً رأسه في حضنه ليخفي ضحكه. تنحنحت الجدة وابتسمت لهاريت، وهمّت بالقراءة.

«نجمة المساء»، قالت معلنة عنوان القصيدة.

حين تنهمر ظلال المساء،
وتصبح العتمة بالمتناول،
وجميع كائنات الليل تنادي،
والريح تعطي للوحيد صوتاً،

أنتظر ظهور أول نجمة،
وأبحث عن أشعتها الفضية،
حين الشفق أزرق وأخضر في الأرجاء،
والنجمة الوحيدة مغرورة تسطع.

لم يعد هاورد قادراً على مسك لسانه. «هاريت تكتب قصائد عن النجوم!».

«قصيدة جميلة عزيزتي هاريت»، قالت السيدة كاتور: «بأمانة إنها جميلة، ولا أجد سبباً لتكوني خجلة منها».

«أرأيتِ يا هاريت»، قالت الجدة: «السيدة كاتور أعجبها شعرك. والآن ألا تشعرين بالأسف على إثارة كلّ هذه الضجة على شيء بهذه البساطة؟».

سيخبر جميع الأولاد في الحيّ، عاودت هاريت التفكير بذلك وقالت: «ليست من تأليفي».

«لا تكوني متواضعة يا بنت، لقد كتبت قصيدة جميلة».

«نسختها، وجدتها في كتاب وقمت بنسخها وقلت لجدتي العجوز إنها من تأليفي».

«لا أصدق أنك تقدمين على شيء مثل هذا»، قالت السيدة كاتور مندهشة.

«نعم لقد قمت بذلك»، قالت هاريت ذلك بإصرار: «نسختها كما هي من كتاب».

«لا أصدقك يا هاريت»، قالت جدتها.

نظرت هاريت إلى هاورد، والذي بدوره كان يحدق إليها بإعجاب. «نسختها من كتاب عثرت عليه يوماً في المكتبة».

«لا أستطيع استيعاب قولها إنها فعلت شيئاً كهذا»، قالت السيدة لينون ذلك للسيدة كاتور، فهزّت الأخيرة رأسها.

«عنوان الكتاب» -فكرت هاريت لبعض الوقت- «قصائد المنزل، نعم هذا عنوانه، وقمت بنسخ كلّ كلمة، ولم أؤلف شيئاً من عندي».

«هاريت، هل هذا صحيح؟». قالت جدتها، ثم التفتت إلى السيدة كاتور. «لعلّه يجب الاعتذار بالنيابة عنك للسيدة كاتور على قراءتي ما هو ملفّق. لم أتخيل يوماً بأنها ستخدعني».

«أوه، يفعلون هكذا أشياء، وسيفعلون أيّ شيء للفت الأنظار ونيل المديح. لكن أنا واثقة من أن هاريت لم تقصد أن تكون - لأقُل، غشاشة»، قالت السيدة كاتور باستهجان.

«نعم لقد قمت بذلك»، قالت هاريت: «أردت أن يعتقد الجميع بأنني كتبتها، وقمت بذلك لغرض في نفسي». ومضت نحو جدتها وأخذت الأوراق من يدها المتراخية. «ولن تريها مرة أخرى»، قالت ذلك وأخفتها عن الجميع خلف ظهرها.

حديقة الورود

بعد أن عاشتا معاً في بيت مزرعة قديم في فيرمونت لأكثر من إحدى عشرة سنة، أصبحتا، الحماة وكنتها، على قدر كبير من الشبه، كما هو حال النساء حين يَعِشْنَ بعضهن لصق بعض لفترة طويلة، ويعملن في المطبخ ذاته، وينجزن الأعمال المتعلقة بالبيت بالأسلوب نفسه. ورغم أن كنية السيدة وينينغ كانت تالبوت، بشعرها الأسود وقصته القصيرة، إلّا أنها أصبحت تحمل لقب وينينغ، بوصفها عضواً في أقدم عائلة في البلدة، وقد أمسى شعرها رمادياً، وقد سبقه إلى هذا اللون شعر حماتها، وليكون لهما، اعتباراً من الصدغين، نفس الوجه النحيف ذي الملامح الحادة، واليدان اللتان لا تعوزهما البراعة، لا بل إنهما حين تقومان على نحو متطابق بالأداء والسرعة بجلي الصحون أو فرط حبوب البازلاء أو تلميع الفضيات، يكون تواصل بعضهما مع بعض يسيراً ومتعاضداً على نحو يتخطّى قدرتهما العقلية. للسيدة وينينغ الصبية أن تفكر بينما هي جالسة بجانب حماتها إلى مائدة الفطور، وطفلتها جالسة على كرسي عالٍ بجانبها، بأن عليهما إعداد صور خاصة بورق جدران نيو إنغلاند، تتضمن الأم والابنة وجدّتها على خلفية مناظر لـ «بلايموث روك وجسر كونراد».

هذا الصباح، وكما وفي صباحات باردة أخرى، طال جلوسهما وهما تحتسيان القهوة، من دون أن ترغبا بمفارقة المطبخ وموقده والجوّ اللطيف الذي يشيعه الطعام وتحدثه النظافة، وهكذا فإنهما لاذتا بالصمت لحين انتهاء الطفلة من فطورها وانتقالها للعب بصمت في الركن المخصص لذلك، والذي لعب فيه ما لا يعدُّ من أطفال عائلة وينينغ، وقد لعبوا جميعاً بدمى متشابهة وجدت مستقرها في الصندوق الخشبي الثقيل ذاته.

«كما لو أن الربيع لن يأتي»، قالت السيدة وينينغ الصبية: «لقد سئمت الطقس البارد».

«عليه أن يكون بارداً لحين»، قالت حماتها، وباشرت فجأة برفع الصحون عن الطاولة ووضع بعضها فوق بعض بسرعة، مؤذنة بانتهاء وقت الجلوس وبدء وقت العمل. نهضت وينينغ الصبية في الحال لمساعدتها، وهي تفكّر للمرة الألف أن حماتها لن تتنازل عن سلطتها في بيتها إلّا حين تبلغ من العمر عتيّاً ولا تعود تقوى على الحركة.

«آمل أن يسكن أحد ما في الكوخ القديم»، قالت وينينغ الصبية، ثم توقفت في منتصف طريقها إلى النملية وأردفت متلهفةً: «لو أن ذلك يحصل قبل مجيء الربيع». أرادت وينينغ الصبية منذ زمن طويل، شراء الكوخ، وأن يكون لها ولزوجها بيت من صنيع يديه، يعيشان فيه مع أولادهما، لكن الآن، وبعد أن اعتادت سُكنى البيت القديم الكبير في أعلى التلة حيث عاشت عائلة زوجها لأجيال، بات الكوخ الصغير مصدراً لمشاعر جميلة، وشوقاً غامضاً إلى رؤية شبان سعداء يشغلونه، وحين عرفت ببيعه، كما تباع كلّ البيوت القديمة في هذه الأيام جرّاء صعوبة العثور على بيوت جديدة، صار ترقبها يوميّاً لأن يطرأ شيء جديد عليه يوحي بأن قاطنيه الجدد قد أتوا، وهكذا فإنها وفي صبيحة كلّ يوم كانت تتحرّى من الشرفة الخلفية ما إذا كان ثمة دخان منبعث من مدخنة الكوخ، وتمرّ به أسفل التلة كلّما ذهبت إلى المتجر، مبطئة خطوها، متحرّية أدنى حركة قد تأتي من داخله. تمّ بيع الكوخ في شهر كانون الثاني، وها قد مرّ شهران على ذلك، وقد بدا الكوخ أكثر جمالاً وأقل دعة، والثلج يغمره برقة ويغطي حديقته المهملة مع نوازل جليدية استقرت أمام نوافذه العارية، إلّا أن ذلك لم يغير من حقيقة خوائه ووحشته، منذ أن تخلت السيدة وينينغ منذ زمن بعيد جدّاً عن فكرة الانتقال إليه.

وضعت السيدة وينينغ المناديل في النملية ثم قامت بنزع ورقة رزنامة المطبخ قبل أن ترتدي رداء المطبخ، وتنضمّ إلى حماتها في جلي الصحون.
«ها قد أتى آذار»، قالت بيأس.

«لقد أخبروني في المتجر بالأمس بأنهم سيقومون بطلاء الكوخ هذا الأسبوع»، قالت حماتها.

«ما يعني أن أحداً سيأتي!».

«لن يستغرق أكثر من أسبوعين طلاء بيت صغير مثله من الداخل»، قالت الحماة.

جاء شهر نيسان، ولم يأتِ السكّان الجدد. ذاب الثلج واستحال أنهراً يتخلّلها الجليد، بينما أمست الأرض طينية وبائسة للمشي، والسماء باهتة رمادية. شهر آخر وتظهر أولى علائم الخضرة على الأرض والأشجار، وليشهد الجزء الأكبر من نيسان أمطاراً باردة ومزيداً من الثلج ربما. لقد طُلي الكوخ من الداخل، وكسيت الجدران بورق جديد، وتمّ إصلاح الدرجات الأمامية، ووضع زجاج جديد لنوافذه المحطّمة. ورغم السماء الرمادية ولطخات الثلج المتسخ بدا الكوخ أكثر رونقاً ومتانة، وللدهّان أن يعود لطلائه من الخارج حين يصفو الجوّ. كانت السيدة وينينغ تقف في آخر ممشى الكوخ، تعاين ما بدا عليه الآن، حيال صورته الماثلة في ذهنها منذ سنوات، حين كانت تتطلّع للسكن فيه. أرادت أن تحيط الورود بشرفته، مع حديقة أنيقة ملوّنة، وتطليه من الخارج بالأبيض، وليبدو لها أن كلّ ذلك ما زال متاحاً. تتذكر السيدة وينينغ غرفه الصغيرة، وإن لم تدخله منذ أن بِيع، ونوافذه المطلّة على الحديقة والتي كان مقدّراً لها أن تكون وضاءة مع ستائر وأفاريز بهيجة، كما تتذكر مطبخه الذي أرادت طلاءه بالأصفر، وغرفتَي النوم في الأعلى، والجدران المائلة تحت الدعامات. تأمّلت السيدة وينينغ طويلاً الكوخ، وهي واقفة في الممشى الندي، ثم مضت بخطوات متثاقلة إلى المتجر.

أتت أولى أخبار السكّان الجدد، من البقّال بعد بضعة أيام، بينما كان يحزم ما يقرب الكيلو ونصفاً من لحم «البرغر» بحبل، وهي الكمية التي تستهلكها عائلة وينينغ الكبيرة في وجبة واحدة. سألها فرحاً: «هل التقيت بجيرانك الجدد؟».

«وهل انتقلوا إلى الكوخ؟». سألت السيدة وينينغ.

«كانت هنا صباحاً، الليدي ومعها ولد صغير، وبديا لطيفين. قالت إن زوجها متوفٍّ. إنها سيدة حسنة المظهر».

ولدت السيدة وينينغ في البلدة وكان والد البقال يعطيها كرات اللبان الملونة وحلوى عرق السوس حين كانت تقصد المتجر، بينما كان البقّال الحالي يدرس في الجامعة. وأملت لفترة في سرّها، وهي في الحادية عشرة وابن البقّال في العشرين، أن يكون راغباً بالزواج بها. لقد أصبح بديناً الآن، في منتصف العمر، وحتى لو أنه ما زال يناديها هيلين وتناديه توم، إلّا أنها تنتمي إلى عائلة وينينغ، وتضطرّ أحياناً إلى أن تخاطبه متبرمةً، وإن لم ترغب بذلك، عندما تكون اللحمة قاسية وسعر الزبدة غالياً. وهي تعرف أن حديثه عن الجارة الجديدة بوصفها «ليدي» يقصد به شيئاً مغايراً عن وصفها بـ «امرأة» أو «شخص»، وأنه يتكلّم عنها وحماتها مع الزبائن الآخرين ملحقاً بهما صفة «الليدي». تردّدت بعض الشيء ثم سألته: «هل انتقلوا ليبقوا؟».

«ستبقى لبعض الوقت، فقد اشترت ما يكفيها لأسبوع»، قال البقال بجفاء.

وفي طريق عودتها وهي تصعد إلى أعلى التلة، أبقت السيدة وينينغ ناظريها باتجاه الكوخ متحرّية أيّ علامة تشير إلى قاطنين جدد. أبطأت خطواتها حين وصلت إلى ممشى الكوخ وحاولت أن تعاينه من دون لفت الأنظار. لم يكن من دخان منبعث من المدخنة، ولا ما يدلّ على أثاث بالقرب منه، كما هي الحال مع من هم في طور الانتقال، لكن كانت هناك سيارة لا هي جديدة ولا قديمة مركونة في الشارع المقابل للكوخ وتراءى للسيدة وينينغ حركة من خلف النوافذ. وباندفاعة مفاجئة لم تستطع مقاومتها استدارت واجتازت الممشى متوجهة إلى الشرفة، وبعد تدوير الأمر في رأسها لدقيقة، وهي واقفة على الدرجة الأخيرة المقابلة للباب، قرعته، وهي تحمل كيس البقالة، وليفتح الباب وتنظر إلى الأسفل نحو ولد صغير، بدا لها بعمر ابنها، الأمر الذي أفرحها.

«مرحباً»، قالت السيدة وينينغ.

«مرحباً»، قال الولد وهو ينظر إليها بجدية.

«هل أمك موجودة؟ لقد أتيت لأرى ما إذا كانت تحتاج مساعدة في انتقالها».

«لقد انتقلنا وانتهى الأمر»، قال الولد، وكان على وشك أن يوصد الباب، لولا سماع صوت امرأة آتٍ من مكان ما في البيت: «ديفي؟ هل تتحدث إلى أحد؟».

«هذه أمي»، قال الولد، وجاءت امرأة من خلفه وفتحت الباب أكثر مما كان عليه، قائلة: «من؟».

«أنا هيلين وينينغ، أعيش على بعد ثلاثة بيوت في أعلى الشارع، وقلت أمرّ وأرى إن كان هناك ما أستطيع مساعدتك به».

«شكراً لك»، قالت المرأة مرتابةً. فكّرت السيدة وينينغ، إنها أصغر مني، بالثلاثين تقريباً، وجميلة. واتّضح لها في لحظة صفاء، لمَ أطلق عليها البقّال صفة «ليدي».

«من اللطيف أن نحظى بجيرانٍ في هذا البيت»، قالت السيدة وينينغ بخفر، واسترقت النظر إلى الموزع الصغير خلف رأس المرأة، وخلفه الصالون الكبير وباب المطبخ إلى اليسار، والدرج إلى اليمين، والدرابزين المطلي حديثاً؛ لقد طلوا الصالون بالأخضر الفاتح، ولتبتسم بودّ للمرأة الواقفة على عتبة البيت وهي تخلص إلى أنها أحسنت صنعاً به، وهذا هو تماماً المظهر المناسب له، وبما يليق بما تعرف عن البيوت الجميلة.

بعد دقيقة بادلتها المرأة الأخرى الابتسام، وقالت وهي تفسح لها الطريق، «تفضلي؟». وليهبط على السيدة وينينغ فجأة إحساس مؤرق دفعها للتساؤل ما إذا كانت تبالغ في جرأتها، وتفرض نفسها بوقاحة... «آمل ألّا أكون أتسبب بأذية نفسي»، قالت على نحو مفاجئ، وأردفت وهي تواجه المرأة الأخرى: «فقد أردت منذ زمن طويل أن أسكن هنا». لماذا قلت ذلك، تساءلت بينها وبين نفسها، لقد مضى زمن طويل لم تقل فيه أول ما يتبادر إلى ذهنها.

«تعالي لتري غرفتي»، قال الولد بإلحاح، فابتسمت له السيدة وينينغ.

«ابني بعمرك نفسه، ما اسمك؟».

«ديفي»، قال الولد والتصق بأمه. «ديفي وليم ماكلين».

«اسم ابني هاورد تالبوت وينينغ»، قالت بجدية.

رفع الصبي ناظريه متحيراً نحو أمه والسيدة وينينغ، التي باتت مشوشة ومحرجة في حضرة هذا البيت التوّاقة إليه منذ زمن، ولتقول: «كم عمرك؟ ابني في الخامسة».

«أنا في الخامسة أيضاً»، كما لو أنه اكتشف ذلك للمرة الأولى. نظر إلى أمه مجدّداً التي قالت بأدب جمّ: «هل ستدخلين لتري ماذا صنعنا بالبيت؟».

وضعت السيدة وينينغ كيس البقالة على طاولة ذات أرجل رفيعة في الموزع الأخضر، وتبعت السيدة ماكلين إلى غرفة المعيشة الأشبه بحرف L المتضمن النوافذ التي رغبت السيدة وينينغ تزويدها بستائر بهيجة ووضع أصص الورود عليها. ما إن خطت إلى داخل الغرفة حتى أدركت، وقد انتابها إحساس داهم براحة كبيرة، بأن كلّ شيء في النهاية سيكون على أحسن ما يرام، بدءاً من الموقد ومناصب الحطب والكتب الموضوعة على الطاولة، فكلّها تتفق مع ما كانت لتفعله حين كانت أصغر بإحدى عشرة سنة؛ ربما بتكلّف أقل، وعلى الأرجح، ما كان لما تختاره أن يكون أقل جودة، لكن ما تراه يبقى بهيّاً وصائباً تماماً. ثمة صورة لديفي على رفّ الموقد، وإلى جانبها صورة استنتجت أنها لوالد ديفي، وهناك إناء أزرق على طاولة القهوة الواطئة، وعند زاوية حرف L صف من الصحون البرتقالية على رفّ، وطاولة لامعة وكراسي.

«جميل»، قالت السيدة وينينغ. كان لهذا أن يكون لي، فكّرت، ووقفت عند الموزع، وأردفت: «ولا أجمل من ذلك».

توجّهت السيدة ماكلين إلى كرسي واطئ قرب الموقد والتقطت منه قماشة زرقاء ناعمة. «إنني أعمل على خياطة الستائر»، قالت، وصارت تتحسّس الإناء الأزرق بأطراف أصابعها، «دائماً ما أجعل من الإناء الأزرق مركز الغرفة، وللستائر أن تكون بالزرقة نفسها، كذلك البساط – عند يأتي! بهذا يكون لدينا درجة الزرقة نفسها في التصميم».

«وهذا ما يماثل زرقة عيني ديفي»، قالت السيدة وينينغ. وحين تبسّمت السيدة ماكلين تبيّن لها أن لعينيها الزرقة نفسها. وأردفت بوهن وقبل أن يتبدّى لها ذلك أشبه بالسحر: «هل طليت المطبخ باللون الأصفر؟».

«نعم»، قالت السيدة ماكلين مندهشة: «تعالي وألقي نظرة». قادتها مروراً بالركن المتضمن الصحون البرتقالية إلى المطبخ، المغمور بآخر أشعة شمس الصباح وقد لمع طلاؤه وشعّ الألمنيوم؛ وانتبهت السيدة وينينغ إلى إبريق القهوة الكهربائي، وآلة إعداد «الويفيل»، ومحمصة الخبز، وخلصت إلى أنها لن تجد ما يعوق الطبخ، سواء لها أو لابنها.

«حين ستصبح لديَّ حديقة، فإنني سأراها من جميع النوافذ»، قالت السيدة ماكلين مشيرة إلى نوافذ المطبخ الوسيعة: «أحبّ الحديقة، وأظن أنني متى تحسّن الطقس سأمضي معظم وقتي في العمل بها».

«إنه بيت مثالي لحديقة، وسمعت أن حديقته كانت الأجمل بين البيوت حوله».

«أعتقد ذلك أيضاً، سأزرع الورود في جهات البيت الأربع، فهذا مقدور عليه مع كوخ كهذا، ولك أن تعرفي ذلك».

«أوه، أعرف، نعم أعرف»، وهامت السيدة وينينغ بأفكارها، حزينة، مستعيدة الحديقة الساحرة الأنيقة التي كان من المقدّر لها أن تقيمها، بدلاً عن صف أزهار أبو خنجر على طرف بيت عائلة وينينغ، هي التي أولت زراعة الورود عناية كبيرة، إلّا أنها لم تنبت كما يجب، لوجود أشجار قيقب كبيرة معمّرة تظلّل فناء بيت آل وينينغ، وقد كانت متواجدة حين بنائه.

وكانت السيدة ماكلين قد طلت الحمام في الطابق العلوي بالأصفر أيضاً، بينما كان الأخضر والوردي من نصيب غرفتي النوم والدعامات. «كلّها بألوان الحديقة»، قالت للسيدة وينينغ، التي استعادت بتنافر غرف النوم وتقشّفها في بيت وينينغ الكبير، وتفكّرت متنهدة بمدى روعة تواجد مكان للجلوس عند النوافذ تحت الدعائم. غرفة ديفي هي الخضراء وفيها سرير صغير بجانب النافذة. «هذا الصباح»، أخبرها ديفي بمهابة: «نظرت إلى الخارج وكانت أربع نوازل جليدية قرب سريري».

أمضت السيدة وينينغ في الكوخ وقتاً أطول مما يجب، وأحسّت، رغم لطف ومودة السيدة ماكلين، بأن زيارتها قد تخطّت حدود الذوق لتصبح على شيء من التطفل، ومع ذلك فإن ما دفعها إلى المغادرة هو إحساسها

بالذنب تجاه لحم «البرغر» وغداء رجال عائلة وينينغ. حين غادرت لوّحت مودعة السيدة ماكلين وديفي الواقفين عند مدخل البيت، ودعت ديفي إلى اللعب مع هاورد، وأن يأتيا للغداء في يوم من الأيام، ولتبادر بكلّ ذلك من دون أن تأخذ الإذن من حماتها.

عادت إلى البيت الكبير مكرهةً واجتازت الباب الأمامي الموصد، واتخذت طريقها إلى الباب الخلفي الذي تستخدمه العائلة شتاءً. استقبلتها حماتها حين دخلت المطبخ وقالت لها منزعجة: «اتصلت بالمتجر وقال لي توم إنك غادرته منذ ساعة».

«عرجت على الكوخ القديم»، قالت ووضعت كيس البقالة على الطاولة وراحت تخرج منه مشترياتها بسرعة، واضعة «الدونات» في صحن، ولحم «البرغر» في المقلاة حريصة ألّا تضيع الوقت. ومضت تعمل بأسرع ما بمقدورها، وما زالت مرتدية معطفها وشالها، بينما حماتها تقطّع الخبز على طاولة المطبخ، وتراقبها بصمت.

«انزعي عنك معطفك، سيكون زوجك هنا في أيّ لحظة»، نطقت أخيراً حماتها. في الثانية عشرة ساد الصخب البيت وتكاثرت آثار الطين العالق بالأحذية على أرضية المطبخ. هاورد الكبير، زوج السيدة وينينغ الحماة، جاء من المزرعة ومضى بصمت وعلّق قبعته ومعطفه في القاعة المظلمة قبل أن يبادر بالحديث مع زوجته وكنته؛ هاورد الصغير، زوج السيدة وينينغ، جاء من الحظيرة بعد أن ركن شاحنته وأومأ برأسه لزوجته وقبّل أمه؛ هاورد الأصغر، ابن السيدة وينينغ الصبية اقتحم المطبخ عائداً من الروضة، صارخاً، «أين العشاء؟».

والطفلة المترقبة للطعام، تسلّقت الكرسي العالي، وبيدها فنجان فضي كان أول من استخدمه العجوز أم هاورد وينينغ الكبير. وضعت السيدة وينينغ الصحون على الطاولة بسرعة فائقة، وقد أدركتا منذ زمن طويل الفاصل الدقيق بين وصول آخر القادمين وتقديم الطعام، وبأقل وقت كانت ثلاثة أجيال من عائلة وينينغ تأكل بصمت وشراهة، وجميعهم متحفزون للعودة إلى أعمالهم: المزرعة، الطاحونة، القطار الكهربائي؛ جلي الصحون،

الخياطة، القيلولة. السيدة وينينغ وبينما كانت تطعم ابنتها، وتسعى إلى تلبية إشارات حماتها المتعلقة بالخدمة، فكّرت بأسى لم يراودها يوماً كما اليوم، بأنها وهبتهم على الأقل هاورد آخر له عينا وفم آل وينينغ، مقابل أكلها ومنامتها.

بعد الغداء، وبعد عودة الرجال إلى أعمالهم وذهاب الأولاد إلى فراشهم، والطفلة إلى رقدتها، وانشغال هاورد بكتاب التلوين وأقلامه، جلست السيدة وينينغ مع حماتها مشاركة إياه الخياطة ومحاولة وصف الكوخ.

«إنه رائع»، قالت: «كلّ ما فيه جميل. لقد دعتنا لزيارتها عندما تفرغ من كلّ شيء، عندما تنتهي من الستائر وكلّ شيء».

«كنت أتحدث مع السيدة بليك، وقالت لي إن زوجها قضى في حادث سيارة، ولديها بعض المال باسمها وأعتقد أنها تريد الاستقرار في الريف لأجل صحة ابنها. لقد قالت لي السيدة بليك إنه معتلّ». قالت السيدة وينينغ الكبيرة.

«إنها تحبّ الحدائق»، قالت السيدة وينينغ والإبرة في يدها: «ستحيط البيت بحديقة كبيرة؟».

«ستحتاج إلى المساعدة»، قالت الحماة متندرة: «فهي ستحظى بحديقة هائلة المساحة».

«لديها أجمل إناء أزرق، ستحبّينه، إنه أشبه بالفضة».

«ربما»، قالت السيدة وينينغ الكبيرة بعد صمت: «ربما عائلتها من مكان قريب من هنا، ولهذا عادت واستقرت في هذه البقاع».

في اليوم التالي مرّت السيدة وينينغ بالكوخ وهي تمشي على مهل، وكذلك فعلت في اليوم الذي تلاه، والذي جاء بعده، وبعد بعده. في اليوم الثاني رأت السيدة ماكلين واقفة أمام النافذة، فلوّحت لها، وفي الثالث التقت ديفي على الرصيف، وسألته: «متى ستأتي لزيارة ابني؟». فحدّق إليها وقال بحزم: «غداً».

في اليوم الثالث لانتقال ماكلين قامت السيدة بيرتون بزيارتها حاملة معها فطيرة تفاح طازجة، وأخبرت بعدئذٍ كلّ الجيران عن المطبخ الأصفر والأجهزة الكهربائية اللامعة. جارة أخرى، قام زوجها بمساعدة السيدة ماكلين في تشغيل فرنها، أوضحت بأنها ترمّلت مؤخراً. واحدة أو أكثر من سكّان البلدة واظبوا على زيارتها يومياً، وغالباً ما كانت السيدة وينينغ ترى وجوهاً تعرفها عبر النوافذ يقيسون الستائر، أو تلوح لمعارفها الواقفين مع السيدة ماكلين يثرثرون على الدرجات الأمامية للكوخ. بعد مرور أسبوع تقريباً على سكنى السيدة ماكلين وابنها، التقتهما في البقّالة وتمشوا معاً عند أعلى التلة، وتحادثتا عن ضرورة وضع ديفي في الروضة. أرادت السيدة ماكلين أن تبقيه معها أكبر قدر من الوقت، وسألتها السيدة وينينغ ما إذا كانت تشعر بأنها مقيدة، لكونه معها طيلة الوقت.

«أحبّ ذلك» أجابت السيدة ماكلين مبتهجة: «نؤنس بعضنا بعضاً»، فأحسّت السيدة وينينغ بأنها حمقاء وفظّة متذكرة أنها مترملة.

ومع تحول الطقس إلى دافئ وظهور أول علائم الخضرة على الأشجار والأرض الندية، أصبحتا صديقتين، وأمسى لقاؤهما في البقّالة وتمشيهما عند أعلى التلة عادة يومية، وجاء ديفي مرتين ليلعب مع هاورد بالقطار الكهربائي، وحين جاءت السيدة ماكلين لتأخذ ابنها واحتست فنجان قهوة في المطبخ الكبير، بينما الولدان يدوران حولهما، والحماة وينينغ تزور إحدى جاراتها، قالت السيدة ماكلين: «يا له من بيت قديم»، ونظرت إلى السقف المسودّ، وأردفت: «أحبّ البيوت القديمة؛ تمنح شعوراً بالأمان والدفء، تبدو كما لو أنها لبَّت على أكمل وجه احتياجات أناس كثر، لهم أن يعرفوا كم كانوا نافعين. لن يأتيك هذا الشعور مع البيوت الجديدة».

«إنه بيت قديم كئيب»، قالت السيدة وينينغ. وبدت السيدة ماكلين بكنزتها الوردية وشعرها الأشقر الناعم، بقعة ملوّنة في المطبخ الذي تعرف السيدة وينينغ بأن لا شبيه له. «سأعطي أيّ شيء في العالم مقابل أن أعيش في بيتك»، قالت السيدة وينينغ.

«أحبّ ذلك البيت، ولم أكن سعيدة يوماً كما أنا الآن، وجميع من حولي

لطفاء، والبيت فائق الجمال، وقد زرعت بالأمس العديد من البصيلات»، قالت السيدة ماكلين ضاحكة: «كنت فيما مضى أعيش في شقة في نيويورك وأحلم بزراعة البصيلات».

نظرت السيدة وينبنغ إلى الصبيين، ورأت كيف أن هاورد أقوى، وأطول بمقدار نصف رأس، وأن ديفي ضعيف وصغير ومولع بأمه.

«هذا مناسب لديفي كما هو بادٍ الآن. لقد استردّ لون وجنتيه»، قالت.

«ديفي يروقه هذا المكان»، قالت السيدة ماكلين موافقة، وليمضي ديفي نحوها حين سمع اسمه ويضع رأسه في حضنها، وتداعب شعره الأشقر الشبيه بشعرها. «لنمضِ إلى البيت يا ديفي». قالت. وليجيبها ديفي: «عسى ولعل أن بعض الورود قد أينعت منذ الأمس».

رويداً رويداً أمست الأيام طويلة ودافئة كما لو أن معجزة وقعت، وبدأت حديقة السيدة ماكلين تفصح عن ألوانها وتتّسق، وبدت رغم نضارتها الفتية والمتردّدة بأنها ستتخذ رونقاً أخّاذاً مع نهاية الصيف، والصيف الذي سيليه، وكلّ فصول الصيف لعشر سنوات من الآن.

«لقد تخطّت توقعاتي»، قالت السيدة ماكلين للسيدة وينبنغ، وهما تقفان عند باب الحديقة: «تنمو الأشياء هنا بأحسن من أيّ مكان آخر».

درج ديفي وهاورد على اللعب يومياً مع مجيء العطلة الصيفية، وبقاء هاورد حرّاً طيلة اليوم. كان هاورد يبقى أحياناً في بيت ديفي لتناول الغداء، ويقومان بزراعة شتلات الخضار معاً في الفسحة الخلفية. وكانت السيدة وينبنغ تمرّ على السيدة ماكلين في طريقها إلى المتجر صباحاً، وتمضيان معاً، وديفي وهاورد يمرحان أمامهما في الشارع، ثم يقومان بأخذ البريد وتصفّح الرسائل في طريق عودتهما، ولتعود السيدة وينبنغ إلى بيت وينبنغ الكبير مبتهجة بعد أن أمضت معظم طريق عودتها برفقة السيدة ماكلين.

في ظهيرة يوم من الأيام وضعت السيدة وينبنغ طفلتها في العربة ومضت مع الولدين في نزهة طويلة في ربوع الريف. قطفت السيدة ماكلين ورود الدانتيل ووضعتها في عربة الطفلة، وعثر الولدان على أفعى مقلّمة حاولا

التقاطها. في طريق العودة الصاعد إلى أعلى التلة ساعدت السيدة ماكلين في دفع عربة الطفلة وورود الدانتيل، ثم توقفتا لتستريحا، فقالت السيدة ماكلين: «انظري، تستطيعين مشاهدة حديقتي من على هذه المسافة إنها بقعة ملوّنة». ووقفتا تنظران إليها بينما الطفلة ترمي الورود من العربة. «لطالما أردت أن أقف هنا وأنظر إليها»، قالت السيدة ماكلين وأردفت: «من هو هذا الطفل الجميل؟».

نظرت السيدة وينينغ، ثم ضحكت. «إنه ولد جذاب، أليس كذلك؟ إنه بيلي جونز». وحاولت السيدة وينينغ أن تراه كما رأته السيدة ماكلين. كان الفتى في الثانية عشرة من العمر تقريباً، يجلس ساكناً على جدار في الشارع، وذقنه مستندة إلى يديه يراقب بصمت ديفي وهاورد.

«أشبه بتمثال لشاب، ثم إنه بني اللون، هلّا نظرتِ إلى وجهه؟». قالت السيدة ماكلين وتوجّهت نحوه تريد أن تراه عن قرب، فتبعتها السيدة وينينغ: «هل أعرف أمه وأبو -؟».

«أولاد جونز نصف زنوج»، قالت السيدة وينينغ بسرعة: «لكنهم أولاد جميلون، يجب أن تري الفتاة. بيتهم خارج البلدة».

وتناهى إليهما صوت هاورد يحمله نسيم الصيف: «زنجي، زنجي، ولد زنجي».

وصار ديفي يكرّر خلفه وهو يضحك، «زنجي... زنجي».

شهقت السيدة ماكلين، ثم قالت: «ديفي»، بنبرة صوت جعلت ديفي يلتفت متوجساً؛ صوت لم تسمعه السيدة وينينغ يخرج عن صديقتها من قبل، فباتت تراقبها بتوجّس أيضاً.

«ديفي»، قالت السيدة ماكلين مجدّداً، واقترب منها ديفي ببطء: «ما الذي سمعتك تقوله؟».

«هاورد، دع بيلي وشأنه»، قالت السيدة وينينغ.

«اذهب واعتذر من الولد»، قالت السيدة ماكلين: «اذهب حالاً وقل له أنا آسف».

نظر ديفي إلى أمه بعنين ترمشان وقد خضلتهما الدموع، ثم توجّه إلى طرف الثلة ونادى: «آنا آسف».

شهد هاورد وأمه ذلك بتوتر، بينما رفع بيلي جونز رأسه عن يديه ونظر إلى ديفي والسيدة ماكلين لبعض الوقت، ثم أعاد رأسه سيرته الأولى.

وفجأة نادت السيدة ماكلين: «يا فتى - هلاّ أتيت إلى هنا لو سمحت؟».

صُعقت السيدة وينينغ بذلك، لكن حين لم يستجب الولد، قالت بحدة: «بيلي، بيلي جونز، تعالَ إلى هنا في الحال!».

رفع الولد رأسه ونظر إليهم، ثم نزل عن الجدار ببطء وعبر الشارع، وحين أصبح على بعد خمس أقدام توقف مترقباً.

«مرحباً»، قالت السيدة ماكلين بلطف. «ما اسمك؟».

نظر الولد إليها ثم إلى السيدة وينينغ، ولتقول لها الأخيرة: «اسمه بيلي جونز، أجب حين تُسأل يا بيلي».

«بيلي»، قالت السيدة ماكلين، «أنا آسفة على ما ناداك به ولدي، فهو صغير لا يعرف دائماً ما الذي يقوله، لكنه آسف الآن».

«حسناً»، قال بيلي، وظلّ ينظر إلى السيدة وينينغ. كان حافياً، يرتدي بنطال جينز قديماً، و«تي شيرت» ممزقاً، ولشعره وبشرته اللون نفسه، إنها التدرجات المذهبة للسمرة الحنطية، وشعره مجعد قليلاً؛ لديه نظرة تماثل في حديقة.

«ما رأيك يا بيلي أن تعمل عندي وتكسب بعض المال؟».

«بالتأكيد».

«هل تحبّ البستنة؟». سألته السيدة ماكلين، فأحنى بيلي رأسه بجدية، ثم واصلت متحمسة: «أحتاج لمن يساعدني في الحديقة، وهذا هو فقط المطلوب منك». توقفت عن الحديث لبرهة، وأردفت، «هل تعرف أين أسكن؟».

«بالتأكيد»، قال بيلي وأبعد ناظريه عن السيدة وينينغ، وحوّل عينيه العسليتين الخاليتين من أيّ تعبير إلى السيدة ماكلين لبرهة، ثم عاد إلى النظر إلى السيدة وينينغ التي كانت تراقب هاورد في الشارع.

«حسناً، هل تأتي غداً؟».

«بالتأكيد». قال بيلي وراح ينقّل ناظريه بين السيدتين، ثم ركض باتجاه الجدار حيث كان جالساً وقفز من فوقه، بينما السيدة ماكلين تراقبه بإعجاب، ولتبتسم بعدئذٍ للسيدة وينينغ وتدفع العربة دفعة إيذاناً بصعود التلة. ساد الصمت لحين أصبحوا على مقربة من الكوخ، قالت السيدة ماكلين: «لا أستطيع تحمل سماع أطفال يتهجّمون على أناس لا يد لهم بما هم عليه».

«عائلة جونز غريبة الأطوار»، قالت السيدة وينينغ مباشرة: «الوالد شغّيل يعمل هنا وهناك؛ ربما صادفته. ثم إنه» -أخفضت صوتها- «الأم بيضاء من هنا. صبية من البلدة». أكّدت على الأمر، لإيضاح ذلك لمن هو غريب عن المنطقة. «تركت كلّ وخمهم حين كان بيلي في الثانية من عمره، وهربت مع رجل أبيض».

«يا للأطفال المساكين».

«لا بأس أمورهم جيدة، فالكنيسة تولّت أمرهم، وغالباً ما يتصدّق الناس عليهم. لقد صارت الفتاة صبية وبمقدورها العمل. إنها في السادسة عشرة، لكن...».

«لكن ماذا؟».

تردّدت السيدة وينينغ قليلاً ثم قالت: «يتكلّم الناس عنها كثيراً، كما لك أن تعرفي. أمها وحدها تكفي لذلك، وهناك ولد آخر، أكبر من بيلي ببضع سنوات».

توقفنا أمام الكوخ، وراحت السيدة ماكلين تداعب شعر ديفي قائلة: «يا له من فتى مسكين عاثر الحظ».

«الأولاد يتلفظون بهكذا أشياء»، قالت السيدة وينينغ. «ليس بمقدورنا فعل الكثير».

«حسناً... يا للفتى المسكين».

في اليوم التالي، وبعد الانتهاء من جلي صحون العشاء، وبينما كانت السيدة وينينغ وحماتها يرفعانها عن المجلى، قالت السيدة وينينغ الكبيرة

كما لو أنه حديث عابر: «أخبرتني السيدة بليك أن صديقتك تسأل الجيران عن الولد جونز».

«إنها تبحث عمّن يساعدها في حديقتها الكبيرة». قالت السيدة وينينغ بنبرة متراخية.

«لن تنفعها هكذا مساعدة. هلّا أخبرتها عنهم؟».

«لقد أشفقت عليهم»، أجابت حماتها. واستغرقت وقتاً طويلاً في توضيب الصحون في النملية، لكي تصفي رأسها. فكّرت، ما كان لها أن تفعل ذلك، من دون أن تخلص إلى سبب لذلك. عليها أن تسألني أولاً.

في اليوم التالي قصدت السيدة وينينغ الكوخ وهي عائدة من المتجر. جلستا في المطبخ الأصفر تحتسيان القهوة، والأولاد يلعبون في الفسحة الخلفية. وبينما كانتا تتناقشان حول احتمالات وضع أرجوحة نوم بين شجرتي تفاح سمعتا قرعاً على باب المطبخ، فتحته السيدة ماكلين لترى أمامها رجلاً، وتقول بلطف: «نعم من؟».

«صباح الخير»، قال الرجل. نزع قبعته وأحنى رأسه لها. «أخبرني بيلي بأنك تبحثين عمّن يعتني بحديقتك».

«لماذا...». وصارت السيدة ماكلين تنظر متوترة إلى السيدة وينينغ بطرف عينيها.

«أنا والد بيلي»، وأشار بحركة من رأسه نحو الفسحة الخلفية، ولترى السيدة ماكلين بيلي جونز جالساً تحت واحدة من أشجار التفاح طاوياً ذراعيه أمامه محدقاً بالعشب تحت قدميه. «تشرّفت بمعرفتك»، قالت السيدة ماكلين كيفما اتفق.

«أخبرني بيلي بأنك طلبت منه أن يأتي ليعمل في الحديقة، وبما أنه عمل صيفي فإنني أعتقد بأنه سيكون شاقاً على صبي بعمره، من المفترض أن يمضي وقته باللعب في هذا الطقس الجيد. وهذا النوع من العمل هو عملي في كلّ الأحوال، وبالتالي قلت أمرّ بك لأرى إن كان الأمر ما زال قائماً أم وجدت أحداً آخر». إنه رجل كبير الجثة، يشبه بيلي، إلّا أن شعره مجعّد أكثر، مع خط يحيط برأسه حيث تستقر حوافّ قبعته دائماً، وإن كانت بشرة بيلي

حنطية أقرب إلى لون الذهب، فإن والده أشد سواداً، بلون البرونز تقريباً. وحين يتحرك، فإن حركاته برشاقة حركات بيلي، كذا هما عيناه العسليتان اللتان لا يسبر غورهما. «يسعدني أن أعتني بهذه الحديقة»، قال السيد جونز وهو ينظر حوله. «ستصبح مكاناً فائق الجمال».

«لطف شديد منك أن تأتي، نعم أنا بحاجة ماسة إلى مساعدة».

ظلّت السيدة وينينغ جالسة محتفظة بصمتها، غير راغبة بالكلام أمام السيد جونز. عليها أن تطلب مني، لا أصدق ذلك، كانت تفكر... وبقي السيد جونز واقفاً وصامتاً، ينصت بأدب، وعيناه الغامقتان تحدّقان إلى السيدة ماكلين وهي تتكلّم. «أظن أن هذا القدر الكبير من العمل سيكون كثيراً على ولد مثل بيلي. هناك الكثير من الأعمال التي سأقوم بها بنفسي، وكنت أتطلع لمن بمقدوره مدّ يد العون لي في بعض الأعمال».

«جيد إذن، أستطيع القيام بمعظمها»، قال السيد جونز.

«حسناً، كلّ شيء صار واضحاً الآن. متى تريد أن تباشر؟».

«ما رأيك أن أبدأ الآن؟».

«عظيم»، قالت السيدة ماكلين متحمسة، ثم استأذنت من السيدة وينينغ، وأخذت قفازات الحديقة وقبعة القش الكبيرة من رفّ بجانب الباب. «أليس جميلاً هذا اليوم؟». سألت السيد جونز بينما كانت تخرج إلى الحديقة وقد أفسح لها الطريق.

«عد إلى البيت الآن يا بيلي»، قال السيد جونز بينما كانا في طريقهما إلى جانب البيت.

«أوه، لمَ لا تدعه يبقى؟». وواصلت السيدة وينينغ سماع صوت صديقتها آتياً إليها من الخارج، «يمكنه اللعب قرب الحديقة، وقد يستمتع بذلك...».

ظلّت السيدة وينينغ جالسة تراقب الحديقة من الزاوية التي يظهر فيها السيد جونز يمشي خلف السيدة ماكلين، إلى أن ظهر وجه هاورد من طرف الباب وقال: «هاي، ألم يحن موعد الطعام؟».

«هاورد»، قالت السيدة وينينغ بهدوء، فدخل متّجهاً نحوها. «حان الوقت لتذهب إلى البيت. لن أتأخر لألحق بك».

بدأ هاورد يعترض، فأردفت: «ستذهب في الحال. خذ معك كيس البقالة إذا كنت قادراً على حمله».

استاء هاورد من تقييم أمه لقوته، هو صاحب الكتفين العريضتين والمتسقتين مثل والده وجده. رفع كيس البقالة، فأربكه الثقل، ثم وازن قدميه، وسألها معتداً بنفسه: «ألست قوياً؟».

«قوي جدّاً. قل لجدتك بأنني لن أتأخر، سأنهي حديثي مع السيدة ماكلين وآتي».

اختفى هاورد من المطبخ، وصارت تسمع خطواته المتثاقلة من وطأة ما يحمل، خارجاً من الباب الأمامي ونازلاً الدرجات. وقفت السيدة وينينغ وصارت عند باب المطبخ حين طالعتها السيدة ماكلين عائدة.

«لا لن تذهبي قبل أن تنهي فنجان قهوتك». قالت لها ذلك حين رأتها قد ارتدت معطفها.

«من الأفضل أن ألحق بهاورد، لقد سبقني».

«آسفة لأنني تركتك هكذا»، قالت السيدة ماكلين وهي تقف إلى جانب السيدة وينينغ على عتبة الباب تنظر إلى الحديقة في الخارج. «يا لروعة كلّ ذلك»، قالت، وراحت تضحك مبتهجة.

اجتازتا البيت، وقد أمست الستائر الزرقاء معلقة، والبساط مفروشاً على الأرض مضفياً لمسته الزرقاء.

«وداعاً»، قالت السيدة وينينغ عند الدرجات الأمامية، ومضت مبتسمة تتبعها السيدة ماكلين. التفتت فرأت السيد جونز عاري الصدر وظهره القوي يلمع تحت الشمس، وهو منكبّ على اجتثاث الأعشاب الطويلة بجانب البيت بالمنجل، وبيلي ممدّد تحت ظلّ الأشجار يلاعب قطة رمادية. «سيكون لديَّ أجمل حديقة في البلدة»، قالت السيدة ماكلين متفاخرة.

«لن تدعيه يعمل لديك عدا اليوم، أليس كذلك؟». سألت السيدة وينينغ. «لن تبقيه بالطبع ليوم آخر؟».

«لكن حتماً -» باشرت السيدة ماكلين القول بابتسامة سمحة، ولترمي عليها السيدة وينينغ نظرة مرتابة، وتلتفت وتمضي صاعدة التلة محرجة وساخطة.

أوصل هاورد البقالة بأمان، وكانت حماتها قد فرغت من إعداد المائدة.

«قال هاورد إنك أرسلته من بيت السيدة ماكلين»، قالت حماتها. «خشيت أن أتأخر عليك». قالت السيدة وينينغ.

في صباح اليوم التالي، حين وصلت السيدة وينينغ إلى الكوخ في طريقها إلى المتجر رأت السيد جونز يلوّح بمنجله بمهارة بجانب البيت، وبيلي جونز وديفي جالسان على الدرجات الأمامية يراقبانه. نادت: «صباح الخير ديفي، هل أمك جاهزة لنذهب؟».

سألها ديفي من دون أن يأتي بأيّ حركة: «أين هاورد؟».

«لازم البيت مع جدته اليوم. هل أمك جاهزة؟».

«إنها تعدّ الليمونادة لبيلي ولي، سنشربها في الحديقة».

«إذن قل لها إنني على عجلة من أمري ويجب أن أمضي فوراً. أمرّ عليها لاحقاً». ونزلت التلّة مسرعة.

التقت في المتجر السيدة هاريس، التي عملت أمها لدى السيدة وينينغ الكبيرة لأكثر من أربعين سنة. «هلين»، قالت السيدة هاريس: «تزدادين شيباً سنة بعد سنة، يجب أن تتخلصي من كلّ ما تقومين به».

ضحكت السيدة وينينغ بخفر، وقد كانت المرة الأولى من أسابيع التي تقصد فيها المتجر من دون السيدة ماكلين. قالت إنها بحاجة إلى إجازة.

«إجازة!» قالت السيدة هاريس. «دعي زوجك يقوم بأعمال المنزل من باب التغيير. ليس لديه شيء آخر ليفعله». وصارت تضحك من قلبها، وتهزّ رأسها، مكرّرة قول: «لا شيء آخر يفعله»، وقبل أن تخطو السيدة وينينغ مبتعدة، أردفت، وقد طغى على ضحكها فضول عارم: «أين هي صديقتك الأنيقة؟ غالباً ما أراكما تتمشيان معاً في الشارع، أليس كذلك؟».

ابتسمت السيدة وينينغ ابتسامة مقتضبة، وأردفت السيدة هاريس ضاحكة، «لا أصدق أنها ترتدي تلك الأحذية، إنها المرة الأولى التي أرى شيئاً كهذا. هل هي أحذية!».

وحين عاودت الضحك مجدّداً، تركتها ومضت إلى كاونتر اللحوم للتباحث مع البقّال بشأن كتف الخنزير ومعاينته. قالت السيدة هاريس فقط ما يقوله الجميع، راحت تفكّر، هل يتكلّمون هكذا عن السيدة ماكلين؟ هل يسخرون منها؟ حين تفكر فيها يعاودها البيت الوادع، بألوانه الناعمة، وصورة أم وابن في الحديقة، أما أحذيتها فصنادل عالية خضراء وصفراء مفتوحة، وهي غريبة مقارنة بأحذية السيدة وينينغ الصلبة البيضاء الزاحفة المغلقة، ولتبدو أحذية السيدة ماكلين متسقة تماماً مع بيتها وحديقتها... ولتأتي السيدة هاريس وتقول ضاحكة: «ما حالها، لكي تدع هذا الجونز يعمل لديها؟».

حين وصلت السيدة وينينغ إلى البيت، مسرعة من خطوها حين مرورها من أمام الكوخ، لم ترَ سوى حماتها أمام البيت، تنتظرها وهي تقطع الأمتار الأخيرة باتجاهها. «مبكرة اليوم على غير العادة، هل سافرت ماكلين؟».

اكتفت السيدة وينينغ بالقول مستاءة: «لقد دفعتني نكات السيدة هاريس للفرار من المتجر».

«علّة لوسي هاريس الوحيدة هي زوجها وما عدا ذلك فلا بأس بها»، قالت الحماة. ثم دارتا معاً حول البيت متوجهتين إلى الباب الخلفي، ولتلحظ السيدة وينينغ أن الأرض تحت الأشجار اكتست بعشب جميل، وأن ورود أبو خنجر أينعت متوهجة.

تكلّمت حماتها أخيراً، وقالت: «هلين أريد محادثتك بأمر».

«تفضلي».

«إنها ماكلين، عن الصبية ماكلين، أقصد، إنك على علاقة وثيقة بها، ويجب أن تتكلّمي معها بخصوص ذلك الرجل الملوّن الذي يعمل لديها».

«أظن أني فعلت».

«هل أنت متأكدة من أنك حدثتها عن هؤلاء الناس؟».

«نعم أخبرتها».

«يتواجد يومياً هناك، ويعمل عاري الصدر، ويدخل إلى البيت وهو على هذه الحال».

في تلك الليلة جاء السيد بيرتون جار السيدة ماكلين لمقابلة هاورد وينينغ، ليحصل على ألواح خشبية جديدة للمطحنة؛ وليلتفت فجأة إلى السيدة وينينغ، التي كانت تخيط على الطاولة بجانب حماتها في الغرفة الأمامية، ويرفع صوته قائلاً: «أتمنى يا هيلين أن تقولي لصديقتك أن تبقي ذلك الولد بعيداً عن خضرواتي».

«ديفي؟». قالت السيدة وينينغ تلقائياً.

«لا»، وقد التفت آل وينينغ إلى كنتهم: «لا، الثاني، الولد الملون. فهو يركض طليقاً في فسحتنا الخلفية، الأمر الذي يستفزني كثيراً، وأنا أرى ذاك الولد يدنس ملكية الناس الآخرين، كما لك أن تدركي». وأردف موجهاً حديثه إلى هاورد وينينغ الأب والابن: «تعرفان مقدار استفزاز ذلك». ساد الصمت، وأضاف السيد بيرتون قائلاً بصوت عالٍ: «أظنّ أنه يجب عليّ أن أستئذن متمنياً لكم ليلة سعيدة».

رافقه الجميع إلى الباب ثم عاد كلّ واحد منهم إلى عمله محتفظاً بصمته. يجب القيام بشيء ما سريعاً، فكّرت السيدة وينينغ، فهم سرعان ما سيتوقفون عن المجيء إليّ، ويجدن أحداً آخر يكلّمها. رفعت ناظريها، فوجدت حماتها تحدّق إليها، ومعاً خفضتا ناظريهما بسرعة.

ثمّ مضت السيدة وينينغ في صباح اليوم التالي إلى المتجر أبكر من المعتاد، واجتازت رفقة هاورد الشارع الذي يعلو بيت ماكلين، نازلة التلة من الجهة الأخرى.

«ألن نمرّ بديفي؟». سألها هاورد في الحال، فأجابته غير مبالية: «ليس اليوم هاورد. قد يأخذك أبوك معه إلى المطحنة بعد الظهر».

تجنّبت السيدة وينينغ وهي تعبر الشارع النظر إلى بيت ماكلين، وأسرعت خطواتها لتواكب خطوات هاورد.

بعدئذٍ باتت لقاءات السيدة وينينغ بالسيدة ماكلين عابرة، يتبادلان الحديث في المتجر أو مكتب البريد، ولم يعد اجتياز السيدة وينينغ للكوخ بعد أسبوع أو أكثر مصدر إرباك لها، لا بل صارت تنظر باتجاهه مليّاً لمرة

أو مرتين. تزايد جمال الحديقة؛ وغالباً ما كان ظهر السيد جونز بادياً عبر الأجمات، بينما يجلس بيلي جونز أو يتمدّد إلى جانب ديفي على العشب.

في أحد الصباحات، وبينما كانت السيدة وينينغ في طريقها نزولاً من التلة سمعت حديثاً يدور بين ديفي ماكلين وبيلي جونز، وهما جالسان بين الأجمات؛ وسمعت صوت ديفي المألوف كثيراً بالنسبة إليها يقول: «هل تريد يا بيلي أن تبني معي بيتاً اليوم؟».

«حسناً»، قال بيلي. وأبطأت هي من خطواتها لتسمع.

«سنبني بيتاً كبيراً من الأغصان، وحين نفرغ منه سنسأل أمي أن تسمح لنا بتناول الغداء فيه»، قال ديفي.

«لا تستطيع بناء بيت من الأغصان فقط، يجب أن يكون لديك خشب وألواح»، قال بيلي.

«وكراسي وطاولات وصحون وجدران»، قال ديفي موافقاً.

«اسأل أمك إن كانت تسمح لنا بوضع كرسيين هنا، وحينها سنعتبر كلّ الحديقة بيتاً لنا».

«وحينها سأحضر بعض الكعك أيضاً، وأسأل أمك وأبي أن يأتوا إلى زيارة بيتنا». سمعتهما السيدة وينينغ بينما كانت تجتاز الممشى.

وخاطبت نفسها متحلية بعدالة صارمة، يجب أن تعترفي بأن السيد جونز يقدم الكثير للحديقة، وأنها الأجمل على امتداد الشارع، وأن تصرفات بيلي توحي بأحقية تواجده هناك كما هو الحال مع ديفي.

وطالما أن أيام الصيف الطويلة توالت من دون تمييز واحد عن آخر، فقد بدت معرفة ما إذا هطلت زخّة مطر بالأمس أو قبل الأمس مستحيلة، وصار آل وينينغ يجلسون في الفسحة الخلفية بعد العشاء، ولتجد السيدة وينينغ في هذه العتمة الحميمة فرصة للجلوس إلى جانب زوجها وملامسة ذراعه، هي التي لم تنجح في تعليم هاورد الركض نحوها ووضع رأسه في حضنها، أو أن توحي له بشيء يتخطّى اللامبالاة العاطفية التي يتحلّى بها آل وينينغ، إلّا أنها عزّت نفسها بالتفكير في أنهم على الأقل عائلة، وشيء عليه القيمة.

تصاعدت حرارة الجوّ، وأصبحت السيدة وينينغ تمضي وقتاً أطول في المتجر، مؤجلة مشوارها الطويل المنهك أعلى التلة، وهكذا صارت تثرثر مع البقّال، وأمهات شابات في البلدة، وعجائز من صديقات حماتها، متبادلة الحديث عن الطقس، وعدم وجود نية لإقامة مسبح لائق في البلدة، وعمّا يجب القيام به قبل عودة المدارس في الخريف، وأحاديث أيضاً عن مرض الجدري، واجتماعات الأهالي بالمدرّسين. والتقت في أحد الصباحات السيدة بيرتون في المتجر، وتحادثتا عن أزواجهن، والحرارة، ومشاغل أولادهن في الطقس الحارّ قبل أن تقول السيدة بيرتون: «على فكرة جوني سيبلغ السادسة يوم السبت وسيقيم حفلة عيد ميلاد، فهل يمكن لهاورد أن يأتي؟».

«رائع»، قالت السيدة وينينغ، وهي تفكر في الشورت الأبيض، والقميص الكحلي، مع الحرص على هدية وتغليفها بعناية بورق الهدايا.

«المدعوّون هم ثمانية أولاد»، قالت السيدة بيرتون، باستهتار محبّب دأبت عليه الأمهات اللاتي يُقمن حفلات عيد الميلاد: «سيبقون حتى موعد العشاء طبعاً – أرسلي هاورد في الثالثة والنصف».

«جيد جدّاً، سيسرّ هاورد حين أخبره بذلك».

«سأدعهم يلعبون معظم الوقت في الخارج في هذا الطقس، وربما سيلعبون بعدئذٍ بضع ألعاب في الداخل، حيث سيتناولون العشاء، سأتحلّى بالبساطة– كما لك أن تعرفي». وتردّدت قليلاً وهي تمرّر أصبعها على حافة علبة قهوة قبل أن تقول: «أرجو ألّا تعارضي سؤالي، لكن هل سيزعجك إن لم أقم بدعوة الصبي ماكلين؟».

دوّخ هذا السؤال السيدة وينينغ، وتطلّبت منها الإجابة انتظار صوتها كي يتسق قبل أن تقول بنبرة خفيضة: «هذا يناسبني طالما أنه يناسبك، لماذا تسألينني؟».

ضحكت السيدة بيرتون: «حسبت أنك ستعترضين إن لم يأتِ».

فكّرت السيدة وينينغ. يا لسوء الحاصل، يظنّ الناس أنهم يعرفون عني ما لا يريدون البوح به، ويتظاهرون بأن لاشيء من هذا صحيح، وهذا شيء

جديد عليّ؛ أعيش مع عائلة وينينغ، أليس كذلك؟ «حقاً»، قالت بنبرة فيها ثقل بيت وينينغ العتيق: «ولماذا سيزعجني ذلك؟». ثم تساءلت، وهل بالغت في اهتمامي، أم أبديت الكثير من القلق، هل يجب عليّ ألّا أبالي؟

أحسّت السيدة بيرتون بالإحراج، وتركت علبة القهوة وانتقلت إلى رفّ آخر معاينة ما فيه وهي تفكّر. ثم قالت: «آسفة على ما ذكرته».

أحسّت السيدة وينينغ بأنه يجب قول المزيد، قول شيء يضعها في مكان لا عودة عنه، بحيث لا تتجرّأ فيه السيدة بيرتون على استخدام نبرة كهذه معها، على الأقل، مفترضة تصدير سؤالها بشيء مثل «أرجو ألّا تمانعي سؤالي لك». إلّا أن السيدة وينينغ قالت: «على كلٍ، هي بمثابة أم ثانية لبيلي».

التفتت السيدة بيرتون إليها لتتأكد ممّا سمعت، ثم قالت باشمئزاز: «لطفك يا رب!».

هزّت السيدة وينينغ كتفيها وابتسمت، فبادلتها السيدة بيرتون الابتسامة، وقالت وينينغ: «أشعر بالأسف على ابنها».

«هذا الكائن الجميل»، قالت السيدة بيرتون.

وما إن قالت السيدة وينينغ: «يُمضي كلّ وقته الآن مع بيلي»، حتى رأت السيدة ماكلين تنظر إليها واقفة في آخر الممرّ بين الرفوف؛ وبدا من المستحيل معرفة ما إذا كانت قد سمعتها أم لا. بقيت لبرهة تحدق إلى السيدة ماكلين، وقالت بعدئذٍ، وبالقدر المطلوب من المودة: «صباح الخير سيدة ماكلين. أين هو ابنك؟».

«صباح الخير سيدة وينينغ»، أجابتها السيدة ماكلين، وتحركت مجتازة الرفوف، بينما أمسكت السيدة بيرتون ذراع وينينغ وحرّكت يدها محاولة إخفاء وجهها بها، من دون أن تتمكنا هي والسيدة وينينغ من منع نفسهما من الضحك.

لاحقاً، ورغم احتفاظ العشب في ساحة بيت وينينغ بخضرته ونضرته تحت أشجار القيقب، باتت السيدة وينينغ تلاحظ في رحلتها اليومية العابرة لكوخ السيدة ماكلين أن حديقة الأخيرة تعاني من وطأة الحرّ، حيث الأزهار

لم تعد مشرئبة يانعة براقة، بل ذابلة تحت أشعة شمس الصباح، وتخلّل العشب مساحات بنية اللون، وحلّ الموت بأجمات الورود التي استبشرت بها السيدة ماكلين خيراً. بدا السيد جونز رائقاً دائماً، يعمل بجدّ، تارة يكون منكبّاً على الأرض، وأخرى واقفاً قرب البيت، ينصب عريشة أو يقلّم شجرة، والستائر الزرقاء معلقة لا حياة فيها. ما زالت السيدة ماكلين تلاقي السيدة وينينغ مبتسمة في المتجر، وفي أحد الأيام التقتا عند بوابة حديقة ماكلين، وبعد تردّد قالت السيدة ماكلين: «هل لك أن تدخلي لبضع دقائق؟ هناك ما أريد محادثتك به، إن كان لديك الوقت».

«بالتأكيد»، وتبعتها في الممشى، المحافظ على أبهة أن تكون على جانبيه أجمات الورود، وإن فقدت شيئاً من سحرها، كما لو أن حرارة الصيف شوت الأرض مستخلصة منها خصوبتها. جلستا في غرفة المعيشة ذاتها، السيدة ماكلين كالعادة على الكنبة، والسيدة وينينغ على كرسي، بجلستها المتصلبة المؤدبة، ولتسأل في النهاية: «كيف أحوال ديفي؟»، طالما أن السيدة ماكلين لم تكن في وارد بدء الحديث.

«أحواله ممتازة»، قال السيدة ماكلين مبتسمة كما دأبها حين تأتي على سيرة ديفي. «إنه في الخارج مع بيلي».

حلّ صمت وجيز، ثم قالت السيدة ماكلين وهي تحدق إلى الآنية الزرقاء على طاولة القهوة: «أريد أن أسألك، ما الذي حصل يا ترى حتى صار ما صرنا عليه؟».

كانت السيدة وينينغ متشنّجة ومترقّبة لسؤال كهذا، وحين قالت: «لا أعرف ماذا تقصدين بذلك»، رأت نفسها شبيهة تماماً بحماتها، وأدركت أنها تستمتع بذلك بقدر ما تفعل حماتها؛ وبغضّ النظر عمّا فكّرت فيه فإنها لم تكن قادرة على منع نفسها من أن تضيف قائلة: «هل من مشكلة؟».

«بالتأكيد»، تأمّلت الآنية الزرقاء، وأردفت متكلّمة ببطء: «حين جئت، كان الجميع لطفاء، ومحبّين لي ولديفي ويرغبون في مساعدتنا».

هذا خطأ، فكرت السيدة وينينغ، ليس لك أن تتحدثي بالمطلق عمّا إذا كان الناس يحبّونك، هذا إحساس قاصر.

«وكانت أمور الحديقة ماضية على أحسن وجه»، واصلت السيدة ماكلين حديثها: «والآن ما عاد أحد يكلّمنا -درجت على إلقاء تحية الصباح من خلف السياج على السيدة بيرتون، أقول لها (صباح الخير)، وهي بالكاد تجيب بـ (صباح...) وتدخل إلى بيتها- لا بل ما من أحد يبتسم في وجهي أو أيّ شيء من هذا».

هذا مريع، وطفولي، ومنفّر؛ كما تعاملين الناس يعاملونك، فكّرت السيدة وينينغ، ورغبت بقوة أن تأخذ بيد ماكلين وتسألها أن تعود إلى سابق عهدها وتكون من الناس اللطفاء مجدّداً، لكنها جلّست من استقامة ظهرها على الكرسي فقط وقالت: «أنا متأكدة من أنك مخطئة، لم أسمع أحداً يأتي على سيرة ذلك».

«هل أنت متأكدة؟». وأردفت وهي تنظر إليها: «هل أنت متأكدة من أن لا علاقة لعمل السيد جونز هنا بذلك؟».

رفعت السيدة وينينغ ذقنها قليلاً وقالت: «ولمَ لأيّ كان أن يجافيك بسبب جونز؟».

رافقتها السيدة ماكلين إلى الباب، بينما تتفقان على الأيام التي ستذهبان فيها معاً للسباحة أو التنزه أثناء الأسبوع المقبل، ولتمضي السيدة وينينغ نازلة التلة، مستاءة، وهي تسعى إلى إلقاء اللوم على الملوّنين.

ومع نهاية الصيف جاءت عاصفة رعدية، وضعت حدّاً للحرّ المستطير. هبّت رياح عاتية، وهطلت أمطار غزيرة طيلة الليل، مجتاحة الأشجار بلا رحمة، مقتلعة الأجمات والورود بعنف؛ ضربت إسطبلاً قائماً على أحد أطراف البلدة، وقوّضت الأسلاك في طرف آخر. فتحت السيدة وينينغ صباحاً الباب الخلفي لتجد الفناء مبعثراً بأغصان أشجار القيقب، والعشب ممهداً على الأرض.

جاءت حماتها من الباب خلفها، وقالت: «عاصفة قوية. هل أيقظتك؟».

«استيقظت مرة واحدة في الثالثة تقريباً لأتفقد الولدين».

«وأنا استيقظت في وقت لاحق، بغرض تفقدهما، وكانا نائمين».

وعادتا معاً إلى الداخل ليجهّزا الفطور.

بعدئذٍ مضت السيدة وينينغ إلى المتجر، وما إن وصلت على مقربة من الكوخ حتى رأت السيدة ماكلين واقفة في الحديقة وإلى جانبها السيد جونز، وبيلي وديفي على الشرفة الأمامية. كانوا جميعاً يحدّقون إلى فرع شجرة كبير آتٍ من إحدى أشجار آل بيرتون وقد استقر وسط الحديقة، وخرّب أغلب أجمات الورود، وهشّم ما كان له أن يكون حوض ورود توليب بديعة. توقفت السيدة وينينغ تراقب، وخرجت السيدة بيرتون إلى شرفتها الأمامية تتفقّد ما خلّفته العاصفة من أضرار، فنادتها السيدة ماكلين قائلة: «صباح الخير سيدة بيرتون، يبدو أن لدينا جزءاً من شجرتك هنا».

«يبدو كذلك»، قالت السيدة بيرتون، ودخلت إلى بيتها صافقة الباب.

ظلّت السيدة وينينغ تراقب السيدة ماكلين التي احتفظت بصمتها، ثم نظرت إلى السيد جونز مستبشرة، وظلّا يتبادلان النظرات لبعض الوقت، إلى أن قالت السيدة ماكلين بصوت واضح حمله برقّة الأثير النظيف وقد غسلته العاصفة: «هل تعتقد أنه يجب عليّ التخلّي عنها سيد جونز، وأن أعود إلى المدينة حيث لن أحظى أبداً بحديقة أخرى؟».

هزّ السيد جونز رأسه بيأس. بكتفين متهدلين وخطوات بطيئة، توجّهت السيدة ماكلين إلى الدرجات الأمامية وجلست عليها، والتحق بها ديفي وجلس إلى جانبها. أمسك السيد جونز بفرع الشجرة الكبير غاضباً وحاول تحريكه، هزّه وجرّه إلى أن تشنجت كتفاه جرّاء ما بذله من جهد، والفرع ما تحرك إلّا قليلاً.

«دعك منه يا سيد جونز، لنتركه لمن سيسكن البيت من بعدي».

لكن السيد جونز واصل محاولاته، بينما وقف ديفي فجأة صارخاً: «لقد جاءت السيدة وينينغ، مرحباً سيدة وينينغ!» التفت السيد جونز، وكذا فعلت السيدة ماكلين التي نادت: «مرحباً!» فغيّرت السيدة وينينغ من وجهتها من دون أن تتلفّظ بحرف، ومضت صاعدة التلة مختالة بوقار عظيم، وبيت وينينغ القديم قصدها.

دورثي وجدتي والبحارة

ثمة وقت من السنة في سان فرانسيسكو -أواخر آذار على ما أظنّ- تعصف فيه الريح والجوّ صاحٍ، وتهيمن الريح على المدينة حاملة ملوحة ونضرة البحر. إن أجلت النظر، مع بدايات هبوب هذه الريح، في «ماركت ستريت» و«فان نس» و«كيرني»، ستجد الأسطول الحربي راسياً. يعود ذلك طبعاً، إلى ماضٍ قريب، لكن حينها بإمكانك من «غولدن غيت»، قبل إقامة الجسر، أن ترى البوارج الحربية. قد ترى حاملات طائرات ومدمرات، وأتذكر أنني رأيت غواصة، لكنها جميعاً بالنسبة لي ولدوت بوارج. ستكون هناك سليمة، وهاجعة، ومؤهّلة باللون الرمادي، والبحارة منتشرون في الشوارع، يتمشون كما موج البحر، يعاينون واجهات المحلات.

لم أكن أعرف أسباب قدوم الأسطول؛ جدتي قالت واثقة إنه يتزود بالوقود؛ لكنني أنا ودوت ومنذ ابتداء هبوب الرياح، نمسي أكثر حذراً، نمشي متلاصقتين، ونخفض صوتينا حين نتبادل الحديث. ورغم أن ثلاثين ميلاً تفصلنا عن مرسى الأسطول، إلّا أننا كنا نشعر بالبوارج تبحر خلفنا حين ندير ظهرينا إلى المحيط، ونرى من تلك المسافة وجه بحار حين ننظر إلى المحيط معتصرين عيوننا.

الأمر كلّه متعلق بالبحارة. أمي تخبرنا عن صنف الفتيات اللاتي يلاحقن البحارة، وتخبرنا جدتي عن صنف البحارة الذين يطاردون الفتيات. وحين كنا نُعلِم والدة دوت برسوّ الأسطول، كانت ترجونا: «لا تقتربا من أيّ بحّار». وفي إحدى المرات وقد كنت أنا ودوت في الثانية عشرة، والأسطول متواجد، استوقفتنا أمي وتفحصتنا، ثم التفتت إلى جدتي قائلة: «لست موافقة

على ذهابهما وحدهما إلى السينما ليلاً»، فقالت جدتي: «كلام فارغ، فهما لن تذهبا كلّ المسافة إلى شبه الجزيرة تلك، فأنا أعرف أين يتواجد البحارة».

كان مسموحاً لي ولدوت الذهاب إلى السينما لليلة واحدة في الأسبوع، ومع ذلك أرسلتا معنا أخي الذي كان في العاشرة. في المرة الأولى التي ذهبنا فيها نحن الثلاثة إلى السينما قامت أمي بمعاينتي ودوت أكثر من مرة، ونظرت متشككة إلى أخي بشعره الأحمر المجعد، وصارت تهمهم ساهمة، وتنظر إلى جدتي وتغيّر رأيها.

نسكن في «بورلنغام»، البعيدة عن سان فرانسيسكو بما يكفي لتنتصب أشجار النخيل في حدائقنا، وعلى مسافة تتيح لي ولدوت المضيّ إليها، إلى شبه الجزيرة، والحصول على معطف ربيعي كلّ سنة. والدة دوت غالباً ما تعطي دوت ثمن معطفها، والتي بدورها تسلّمه إلى أمي، ثم تنتقي أمي لنا أنا ودوت معطفين متطابقين. وهذا عائد لصحة والدة دوت التي لم تكن يوماً على ما يرام لتذهب إلى سان فرانسيسكو للتسوّق، وخاصة برفقتنا أنا ودوت. وعليه اعتاد كلانا أنه كلّما هبّت الرياح ورسا الأسطول، على ارتداء الجوارب الحريرية، وحمل حقيبتين صغيرتين، فيهما مرآة، ونرد للفأل الحسن، ومنديل شيفون يرفل من الحقيبة وقد أغلق على طرف منه، لنشغل مقعد سيارة أمي الخلفي وقد جلست على المقعد الأمامي جدتي، متوجهين إلى سان فرانسيسكو والأسطول.

دائماً ما كنا نرتدي معاطفنا صباحاً، ونمضي إلى «بيجن ويسل» لتناول الغداء، وبينما نكون أنا ودوت على مقربة من إنهاء آيس كريم الشوكولا المرشوش بالبندق والمغمور بالشوكولا المذابة، تتصل جدتي بخالي أوليفر، وترتّب معه موعد الغداء، والذي بدوره يأخذنا إلى حيث يتواجد الأسطول.

وللخال أوليفر أن يصحبنا إلى هناك لكونه أولاً، رجلاً، ولأنه خدم في الحرب السابقة عامل لاسلكي في بارجة، ثانياً، وصولاً إلى خالي بول، الذي ما زال يخدم في البحرية (وتعتقد جدتي أنه يخدم في بارجة اسمها سانتا فوليتا، أو بونتيا، أو ربما كارمليتا). وقد كان خالي أوليفر يساعدنا في السؤال عنه حين ملاقاة من يوحون بأنهم يعرفونه. ما إن نصبح على متن

القارب حتى تقول جدتي، كما لو أن ذلك لم يتبادر إلى ذهنها يوماً: «انظروا إلى ذلك الرجل يبدو أنه ضابط، اذهب يا أولي واسأله إن كان يعرف أخاك الكبير بول».

لا يعتقد أوليفر، طالما أنه كان واحداً منهم، أن البحارة يشكّلون خطراً داهماً عليّ وعلى دوت إن كنا برفقة أمي وجدتي، هو المغرم بالسفن، الذي يرافقنا ويفارقنا ما إن نصبح على متنها؛ وبينما نخطو بحذر على أسطحها النظيفة ونحن نعاين متوجسين زوارق النجاة، يمضي خالي أوليفر بتحسّس الطلاء الرمادي بشغف ويمضي باحثاً عن أجهزة اللاسلكي.

كان خالي أوليفر حين يلاقينا إلى الغداء يشتري لي ولدوت الآيس كريم ويشير إلى السفن حولنا ويسمّيها لنا، وغالباً ما يتبادل الحديث مع البحارة الذي يتناولون الغداء حولنا، ليعلن بتواضع، آجلاً أو عاجلاً: «خدمت في البحرية عام 1917»، فيحني البحارة رؤوسهم تقديراً. وحين نغادر المطعم لنصعد السلّم إلى البارجة، تهمس أمي لي ولدوت: «اخفضا تنانيركن»، وهكذا نصعد السلّم ممسكين الدرابزين بيد وبالأخرى مكورين قبضة اليد على قماش التنورة من الأمام. تتقدمنا جدتي دائماً وتتبعنا أمي والخال أوليفر. حين نصل إلى سطح البارجة تمسك أمي بذراع واحدة وتمسك جدتي بذراع الثانية، ونمشي ببطء في المساحات المسموح لنا رؤيتها، متجاهلين الطوابق السفلية التي توتر جدتي. ننظر إلى المقصورات بريبة، ونمشي على الأرضيات المنبسطة التي تقول جدتي إنها كوثل السفينة، وحين ننظر إلى الأضواء تقول إنها الميسرة (كلا الجانبين هما ميسرة بالنسبة لجدتي؛ وتعتقد أن الميمنة في الأعلى، على اعتبار أن أعلى الصواري يشير دائماً إلى نجم القطب). عادة ما نرى مدافع -كلّ الأسلحة مدافع- وليؤكد خالي أوليفر لجدتي، مازحاً، بأنها مذخّرة على الدوام: «في حال حدوث أيّ تمرّد».

غالباً ما يتواجد العديد من الزوار على متن البارجة، ما يتيح لخالي أوليفر ممارسة ولعه بشرح كيفية عمل نظام اللاسلكي لمجموعة من الفتية والشبان. حين قال إنه كان مسؤول اللاسلكي في عام 1017، سأله أحدهم بثقة: «هل أطلقت يوماً نداء استغاثة؟»، وليحني خالي أوليفر رأسه إيجاباً، ويقول: «لكنني ما زلت هنا لأخبرك بذلك».

في إحدى المرات التي كان خالي أوليفر يستعيد فيها عام 1917 بينما تشهد أمي وجدتي ودوت القطار المارّ بمحاذاة المحيط، رأيت ثوباً شبيهاً بالذي ترتديه أمي فتبعته مسافة لا بأس بها قبل أن تلتفت المرأة وأكتشف أنها ليست أمي، وبالتالي فإنني تهت. استعدت ما قالته لي جدتي، بأنني أكون بأمان طالما لم أفقد صوابي، فتوقفت ونظرت حولي إلى أن ميّزت رجلاً طويلاً بلباس البحرية مع الكثير من النياشين والشرائط. لا بدّ أنه الكابتن، قلت لنفسي، وبالتأكيد سيهتمّ بي. كان مفرط التهذيب. أخبرته أنني تهت لكنني متأكدة من أن أمي وجدتي وصديقتي دوت وخالي أوليفر في مكان ما من السفينة، لكنني أخشى العودة إليهم وحدي. قال إنه سيساعدني في أن أعثر عليهم، وأخذني من يدي ونزل بي إلى الأسفل. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى عثرنا على أمي وجدتي يتراكضن باحثات عني ودوت في إثرهن تحاول اللحاق بهن. حين رأتني جدتي ركضت نحوي وأمسكتني بذراعي، وجذبتني بعيداً عن الكابتن وهزّتني: «لقد أرعبتنا رعبة العمر»، قالت.

«كلّ ما في الأمر أنها تاهت»، قال الكابتن.

«يسعدني أننا لم نتأخر بالعثور عليها»، قالت جدتي، وقادتني إلى الخلف نحو أمي. انحنى الكابتن ومضى، وأخذتني أمي بذراعي وهزّتني قائلة: «ألا تخجلين؟». وراحت دوت تحدق إليّ مرتابة.

«لكنه الكابتن–» قلت.

«ربما ادّعى أنه كابتن»، قالت جدتي. «وهو في النهاية بحّار».

«بحار!» قالت أمي، وهي تنظر جانباً لترى ما إذا كان الزورق متواجداً ليعود بنا. وأردفت مخاطبة جدتي: «أحضري أوليفر وقولي له لقد رأينا ما يكفي».

جرّاء ما حصل في تلك الأمسية، كانت تلك آخر سنة سُمح لنا فيها برؤية الأسطول. أوصلنا الخال أوليفر إلى البيت كالمعتاد، وأخذتنا أمي وجدتي أنا ودوت إلى مطعم «ميري غو راوند» لتناول العشاء، وقد كنا عادة ما نتناوله في سان فرانسيسكو بعد زيارة الأسطول، ثم نشاهد فيلماً في السينما، ونعود في وقت متأخر إلى البيت في «بورلنغام». تناول العشاء في «ميري غو راوند»

أمر متكرّر، حيث تأتي الأطباق على منصة متحركة ونختار منها بينما تمضي أمامنا، ذهبنا إلى هناك لأني أنا ودوت نحبّه، ويأتي في سان فرانسيسكو بالمرتبة الثانية بعد البوارج من حيث الخطورة، إذ يتوجب دفع خمسة عشر سنتاً مقابل كلّ طبق تختاره ولا تكمله، ويجب علينا أنا ودوت أن ندفع ذلك من مصروفينا. في الليلة الأخيرة خسر كلانا خمسة وأربعين سنتاً، ويرجع السبب الرئيس لذلك إلى حلوى «كريمة الموكا» التي لم تكن دوت تعرف أنها مليئة بجوز الهند. كما أن مقاعد الفيلم الذي اخترناه أنا ودوت كانت محجوزة بالكامل، رغم أن مرشد السينما أخبر جدتي أن هناك الكثير من المقاعد. رفضت أمي الانتظار بالدور لاستعادة مالها، لكن جدتي قالت إنه يجب علينا مواصلة انتظارنا لنحصل على مقاعدنا. ما إن شغر مقعدان حتى دفعتني جدتي أنا ودوت نحوهما. كان الفيلم قد بدأ فإذا بمقعدين بجانب دوت شغرا، وصرنا نبحث عن جدتي وأمي، ولتلتفت إليّ دوت وتشدني بذراعي قائلة كما لو أنها تتأوّه: «انظري»، فرأيت بحارين يجتازان صفّ المقاعد نحو المقعدين. وصلا إلى المقعدين بمجرد أن نزلت أمي وجدتي إلى الممرّ بين الصفوف، وجدت جدتي الوقت لتصرخ من الطرف الآخر وهما في طريقهما إلى مقعدين فرغا في صف آخر: «دعوا هاتين الفتاتين وشأنهما».

تحركت دوت في مقعدها مقتربة مني وتشبّثت بذراعي.

«ماذا يفعلان؟». همستُ.

«إنهما جالسان فقط، ماذا يجب أن أفعل؟». قالت دوت.

أحنيت جسمي قليلاً ونظرت من أمام دوت بحذر، وقلت: «لا تهتمي لأمرهما، ربما سيذهبان».

«تستطيعين توجيه النصائح، فهما لا يجلسان بجانبك»، قالت دوت نائحة.

«أنا من يجلس بجانبك، ثم إنك قريبة مني جدّاً».

«ماذا يفعلان الآن»، سألتني.

أحنيت جذعي مجدّداً. «إنهما يتابعان الفيلم».

«لا أستطيع احتمال ذلك، أريد الذهاب إلى البيت».

هبط علينا الهلع فجأة، ومن حسن الحظ أن أمي وجدتي رأتانا نمضي في الممرّ، ولاقتانا خارج القاعة.

سألتنا جدتي: «ماذا قالا لكما؟ سأخبر المرشد».

وعدتنا أمي بأنها ستأخذنا إلى قاعة الشاي المجاورة وتحضر إلينا شراب الشوكولا الساخنة إن هدأت دوت وأفصحت. في القاعة أخبرناهما بمجرد جلوسنا بأننا بخير، ونريد بدل شراب الشوكولا قطعة من كيك شوكولا آيس الكريم. وبدأت دوت تنتعش وتبتهج قليلاً قبل أن يفتح باب القاعة ويدخل البحاران، وما هي إلّا قفزة واحدة مجنونة حتى صارت دوت خلف كرسي جدتي، تتشبّث مرتعدة بذراعيها، وتنوح قائلة: «لا تدعوهما يأخذاني».

«لقد تبعانا»، قالت أمي متوترة.

أحاطت جدتي دوت بذراعيها، وقالت: «يا للطفلة المسكينة، إنك بأمان معنا».

باتت دوت عندنا في تلك الليلة، وأرسلنا أخي ليخبر أمها بذلك، وأنها اشترت معطفاً رمادياً بتطريزات الأميرة، وبطانته عملية ومثالية لتحاط بالدفء، وقد ارتدته طيلة ذلك العام.

-III-

في اعترافات مارغريت جاكسون، التي حوكمت مع من اتُّهموا بممارسة السحر والشعوذة في قصر آل شو، ورد قولها... إنها وقبل أربعين سنة مضت، أو ما يقاربها، كانت في حقل من حقول بولوشو، تحمل بضعة أخشاب على ظهرها، فجاءها ذلك الرجل الأسود، فأسلمت نفسها له، من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها؛ وهذا مما حصل بعد إقرار نزع معموديتها عنها؛ وكان اسم تلك الروح، التي تلبستها لوكاس. وفي الثالث أو الرابع من كانون الثاني، وبلمحة عين، استيقظت ليلاً، ووجدته ينام بجوارها، والذي من المفترض أن يكون زوجي، وإن مضى على وفاته عشرين سنة تقريباً، وسرعان ما اختفى ذلك الرجل: وصرّحت قائلة: إن ذلك الرجل المختفي كان الشيطان.

جوزيف غلانفيل: سادوكيسموس تريمباتوس

حوار

للدكتور مظهر يوحي بالثقة والاحترام، ما منح السيدة أرنولد شعوراً مبهماً بالراحة، خفّف من ارتباكها قليلاً. أدركت أنه لاحظ ارتجاف يدها حين انحنت قليلاً إلى الأمام ليشعل لها سيجارتها، فابتسمت معتذرة، إلّا أنه بادل ابتسامتها بنظرة جادّة.

«يبدو أنك منزعجة»، قال بوقار.

«منزعجة جدّاً»، قالت السيدة أرنولد، وسعت إلى الحديث بتأنٍّ: «هذا واحد من الأسباب التي قادتني إليك بدلاً عن الذهاب إلى الدكتور ميرفي – طبيب العائلة».

علا وجه الدكتور بعض العبوس، وأردفت السيدة أرنولد: «لا أريد لزوجي أن يعرف بمخاوفي، ولعل الدكتور ميرفي سيجد أنه من الضروري إخباره». أحنى الدكتور رأسه، كما لو أنه لا يُلزم نفسه بما قالت، وأدركت السيدة أرنولد ذلك.

«ما المشكلة؟».

أخذت السيدة أرنولد نفساً عميقاً، وقالت: «كيف للبشر يا دكتور أن يعرفوا بأنهم باتوا مجانين؟».

نظر الدكتور إلى الأعلى.

«أليس هذا تافهاً»، قالت: «لم أقصد قول ذلك على هذا النحو. على كلٍّ من الصعب توضيح الأمر، ما لم أجعله دراميّاً».

«الجنون أعقد ممّا تظنين»، قال الدكتور.

«أعرف أنه معقّد»، قالت. «إنه الشيء الوحيد المتأكدة منه. أقصد أن الجنون واحد من الأشياء المعقّدة أقصد».

«المعذرة لكن كيف؟».

«إنها مشكلتي يا دكتور». أسندت السيدة أرنولد ظهرها وأخذت قفازيها من تحت حقيبتها ووضعتهما فوقها باهتمام. ثم أخذتهما مجدّداً ووضعتهما تحت الحقيبة.

«أظن أنك أخبرتني بكلّ شيء عنها»، قال الدكتور.

«يبدو أن الجميع يفهمون، أما أنا فلا أبدو أنني أفهم». أحنت جذعها قليلاً إلى الأمام، وراحت تحرك يدها وهي تتكلّم: «لا أفهم كيف يعيش الناس. لقد كان كلّ شيء فيما مضى بسيطاً. لقد عشت حين كنت فتاة صغيرة في عالم يعيش فيه الكثير من الأناس وجميعهم يعيشون معاً والأمور تمضي من دون هرج ومرج». نظرت إلى الدكتور، وقد عاوده التجهّم، وواصلت بصوت أعلى قليلاً: «لتعلم. البارحة صباحاً توقف زوجي في طريقه إلى المكتب ليشتري جريدة. لقد درج على شراء (التايمز) تحديداً ومن الموزع نفسه، لكن (التايمز) كانت قد نفدت بالأمس وحين عاد زوجي إلى البيت لتناول العشاء قال إن السمك محروق والحلويات شديدة الحلاوة، وأمضى الليل كلّه يكلّم نفسه».

«كان يجب أن يجرب شراء الجريدة من موزّع آخر»، قال الدكتور: «غالباً ما يكون لدى الموزعين في وسط المدينة كمية أكبر من التي لدى موزعي الضواحي».

«لا»، قالت السيدة أرنولد بوضوح وأناة، «أظنّ أنه يجب عليَّ البدء من جديد. حين كنت فتاة صغيرة –» توقفت، ثم قالت بإلحاح: «هل كان ثمة مصطلحات مثل دواء سيكوسوماتي؟[1] أو الكارتل[2] الدولي؟ أو التمركز البيرقراطي؟

1- دواء نفسي. المترجم
2- اتحاد شركات أو أعمال تجارية في مجال واحد تجتمع معاً لمنع المنافسة والسيطرة على الأسعار. المترجم

«حسناً»، مضى الدكتور قائلاً.

«ما الذي تعنيه هذه الكلمات؟».

«أثناء الأزمات الدولية»، قال الدكتور بلطف، «حين ترين، على سبيل المثال، تحلّلاً سريعاً لأنساق ثقافية...».

«أزمات دولية»، قالت السيدة أرنولد، وأضافت كما لو أنها تصرخ لكن بصوت خفيض: «أنساق». وأردفت بغضب: «لا يمتلك ذلك الرجل الحقّ بألّا يحتفظ بنسخة من التايمز لزوجي»، وراحت تتحسّس جيوبها بحثاً عن منديل، وراح الدكتور يتكلّم عن التخطيط الاجتماعي على المستوى المحلي والضريبة المضافة على صافي الدخل، والمفاهيم الجيوسياسية وانكماش التضخم. فإذا بالسيدة أرنولد تصرخ لدرجة العويل: «هل قال حقّاً انكماش التضخم».

«سيدة أرنولد، لن ينفع هذا في إحراز أيّ تقدم»، قال الدكتور ذلك وهو يعود ليجلس خلف مكتبه.

«أيّ نفع في هذا؟ وهل الجميع مجانين بحقّ ما عداي؟». قالت السيدة أرنولد.

«سيدة أرنولد، أريدك أن تتماسكي، ففي عالم مضطرب مثل عالمنا اليوم، تغريب الواقع لطالما -».

«مضطرب»، قالت السيدة أرنولد ووقفت: «تغريب، واقع»، وتوجّهت إلى الباب وفتحته قبل أن يستوقفها الدكتور: «واقع»، قالت، ثم مضت.

إليزابيث

قبل أن يرنّ جرس المنبّه بقليل، كانت متمدّدة في حديقة دافئة مشمسة، تحيط بها المروج الخضراء على امتداد بصرها، وجاء جرس الساعة مزعجاً، وبمثابة تحذير عليها أن تتخذه على محمل الجدّ، فاستخلصت نفسها بعناء من حرارة الشمس وأيقنت بأنها في طور اليقظة. حين فتحت عينيها رأت المطر منهمراً وحوافّ النافذة بيضاء والسماء رمادية، تقلّبت في سريرها وحاولت دفن رأسها في العشب الأخضر، لكن الوقت كان صباحاً وبحكم العادة نهضت وجرجرت نفسها إلى يوم ممطر كئيب.

لا بدّ أن الساعة تخطّت التاسعة. الساعة أدلت بذلك، وقرقرت المسخنات، وتصاعدت ضجة الصباح البشعة للناس وهم يمضون متحمسين إلى العمل من الشارع القابع مسافة طابقين في الأسفل. أخرجت رجليها بجهد جهيد من تحت البطانية وأنزلتهما إلى الأرض، ورفعت جسدها لتجلس على حافة السرير. وها هي واقفة بعدئذٍ بثوب الحمام وقد دخل اليوم في روتينه؛ فبعد تمرّدها اللاإرادي على رنين المنبّه اليومي، ها هي تستسلم تدريجيّاً للحمام، والمكياج، وارتداء الثياب، ثم الفطور، في سياق جدول يؤذن ببدء اليوم وخروجها إلى الصباح حيث يمكنها نسيان العشب الأخضر والشمس الدافئة والتطلّع إلى العشاء والمساء.

ولأن اليوم ماطر عديم الأهمية فإن أول ما تبادر إلى ذهنها ارتداء بدلتها التويد الرمادية، وهي تدرك أن لا شكل لها وهي ثقيلة على جسمها النحيف، وارتدت معها كنزتها الزرقاء التي لم تمنحها يوماً إحساساً بالراحة. هي تعرف وجهها جيداً وتمضي وقتاً طويلاً مستمتعةً بتفحصه وهي تتزين

بالمكياج، وفي حدود الرابعة عصراً تتّقد وجنتاها الشاحبتان الضيقتان وتمتلئان، ويمسي أحمر الشفاه وردياً رغم زرقة كنزتها، والذي هو أصلاً يبدو فاقع الحمرة مع سواد شعرها وعينيها، لكنها تمنت هذا الصباح، كما في جميع صباحاتها تقريباً، أن تكون شقراء؛ غير متبينة تماماً أن مردّ ذلك إلى ظهور شيب طفيف في شعرها.

تجوّلت في شقتها المكوّنة من غرفة واحدة بخطوات سريعة واثقة متأتية من العادة لا القناعة، فبعد أكثر من أربع سنوات في هذا البيت عايشت فيها كلّ إمكانياته، خلصت إلى أنه قادر على أن يكتسي بمظاهر الدفء والحميمية حين تطلبه كملاذ، وبمقدوره أيضاً أن يشدّ من أزرها حين تستيقظ فجأة في الليل، محافظاً على استرخائه وسط حالة الفوضى، والأغراض المتداخلة كيفما اتفق، وهو توّاق في صباحات كهذه لخروجها والعودة إلى النوم. الكتاب الذي كانت تقرؤه قبل النوم مفتوح ومقلوب على وجهه على الطاولة، والمنفضة المجاورة لها متسخة، والثياب المرمية خلف الكرسي، تنتظر أن تأخذها إلى المصبغة في هذا الصباح.

رتّبت السرير بسرعة، وهي مرتدية معطفها وقبعتها، سحبت الغطاء على امتداد السرير فوق ثنيات الملاءة، وكوّمت الملابس التي يجب أخذها إلى المصبغة ورمت بها في عمق الخزانة، وتوصّلت إلى أنها في هذه الليلة ستمسح الغبار وترتّب وربما تشطف الحمام، أعود إلى البيت وآخذ حماماً ساخناً وأغسل شعري وأطلي أظافيري؛ وفي هذه الأثناء قفلت باب الشقة خلفها ونزلت السلّم، وهي تفكر في أنها ستشتري اليوم بعض الأغطية والمفارش البراقة، بحيث أفرشها مساء لئلّا يبدو المكان كئيباً حين أستيقظ في الصباح، يمكن أن أحضر بعض الصحون الصفراء وأصفّها على الحائط، كما المدموزيلات المحترمات أو شيء كهذا. أخبرت نفسها ساخرة حين توقفت عند المدخل، هي المرأة العاملة النشطة صاحبة بيت الغرفة الواحدة، المناسب للترويح عن امرأة الأعمال الشابة النشيطة. أتمنى أن يكون لديَّ مكتبة في جهة وطاولة كتابة موديل «شيرتون» في الجهة الأخرى، وطاولة سفرة تتسع لاثني عشر شخصاً.

وبينما هي عند باب المدخل، تشدّ قفازاتها آملة بأن يتوقف المطر في هذه الأثناء، فإذا بالباب المجاور للدرج يُفتح وتسمع صوت امرأة: «مَن هناك؟».

«أنا ستايل»، قالت: «السيدة أندرسن؟».

فُتِح الباب على مصراعيه وأخرجت العجوز رأسها: «حسبتك ذلك الشاب الساكن في الشقة التي فوق شقتك»، قالت. ثم أردفت: «كنت أريد أن أمسك به لأسأله ألّا يترك زلاجاته خارج بابه. كنت سأكسر رجلي بسببها».

«تمنيت لو أن بمقدوري ألّا أخرج. إنه يوم سيّئ».

خرجت العجوز ومضت إلى باب المدخل. أزاحت الستارة ونظرت إلى الخارج، وشابكت ذراعيها. كانت ترتدي ثوباً منزليّاً وسخاً جعل البدلة الرمادية تبدو نظيفة ودافئة في عينيها.

«ليومين وأنا أحاول أن أمسك به. إنه يخرج ويعود بهدوء تام»، قالت العجوز ضاحكة، وهي تنظر جانبيّاً إلى الآنسة ستايل: «التقيته مساء أول من أمس ينزل الدرج بهدوء تام، وتصادف أن ضبطته متلبساً بتلك الحالة». ضحكت مجدّداً: «أظنّ أن كلّ الرجال ينزلون الدرج بهدوء. جميعهم خائفون من شيء ما».

«حسناً، طالما أنني خارجة فالأفضل أن أفعل»، قالت الآنسة ستايل. بقيت واقفة في المدخل لدقيقة، متردّدة في الخروج إلى الصباح والمطر والبشر. إنها تعيش في شارع هدوؤه معقول، وإن تخلّله لاحقاً صراخ صبية ينادون بعضهم بعضاً، أو عزف على الأرغن في يوم مشرق، لكن اليوم كلّ شيء موحل جرّاء المطر. تكره أن ترتدي أحذية مطاطية لنحافة أقدامها؛ وبالتالي فإنها في يوم كهذا تمشي ببطء، وتخطو بحذر بين تجمعات المياه.

لقد تأخر الوقت، وبضعة أشخاص ما زالوا جالسين إلى «كاونتر» المقهى الذي على الناصية. جلست على الكرسي العالي، مهادنة الوقت، وانتظرت متلهّفة إلى أن جاء الموظف إلى «الكاونتر» مقدماً لها عصير البرتقال المعتاد.

«مرحباً تومي»، قالت بمزاج متعكر.

«صباح الخير آنسة ستايل. إنه يوم مزعج».

«نعم هو كذلك، يوم مناسب لئلّا نخرج من البيت». قالت.

«جئت اليوم، وقد كنت مستعداً أن أفعل أيّ شيء لئلّا أفارق سريري. يجب أن يوجد قانون ضد المطر»، قال تومي.

تومي رجل ضئيل وقبيح ومتحفظ، خلصت الآنسة ستايل إلى ذلك وهي تحدق إليه. كان عليه أن يستيقظ ويذهب إلى العمل صباحاً كما أفعل أنا ويفعل الجميع في هذا العالم؛ والمطر ليس إلّا سيئة من بين ملايين السيئات الأخرى، المرتبطة بالاستيقاظ والتوجّه إلى العمل.

«لا أعترض على الثلج»، واصل تومي حديثه: «ولا الطقس الحارّ، لكنني بلا أدنى شك أكره المطر».

التفت في الحال حين ناداه أحدهم، ومضى متراقصاً إلى الطرف الأخر من «الكاونتر»، ووقف أمام الزبون باستعراضية: «يوم مزعج، أليس كذلك؟». قال: «أتمنى لو أنني في فلوريدا».

شربت الآنسة ستايل عصيرها، وهي تستعيد منامها. تذكرت بوضوح الورود والدفء، وقد تلاشت أمام الجوّ البارد الماطر في الخارج.

عاد إليها تومي بفنجان قهوة وصحن من «التوست». «لا شيء يبهج في الصباح مثل القهوة».

«شكراً تومي»، قالت بفتور: «صحيح، ما أخبار مسرحيتك؟».

رفع تومي رأسه وقال بعزم: «لقد أنهيتها، كنت سأخبرك. أنهيت كلّ شيء وأرسلتها أول من أمس».

مسخرة، موظف في مقهى، يستيقظ صباحاً ويأكل ويتجول هنا وهناك، ويؤلف مسرحية كما لو أنها حقيقة، مثلها مثل حقيقة بقية البشر، مثلي أنا.

«جميل»، قالت.

«أرسلتها إلى وكيل وصفه أحد معارفي بأنه الأفضل».

«ولمَ لم تعطها لي يا تومي؟».

ضحك محنياً رأسه وهو ينظر إلى علبة السكر التي يحملها إليها، وقال: «اسمعيني، صديقي قال إنك لا تريدين مسرحيات كمسرحيتي، تريدين أناساً، مثل، من هم وافدون إلى المدينة أو شيء كهذا، ممن لم يتبينوا ما إذا كانوا فالحين بذلك أم لا»، وأردف منفعلاً: «أنا لست ممن يفلّون المجلات بحثاً عن إعلان».

«أفهم ذلك»، قالت.

استند تومي على الكاونتر قائلاً: «لا تنزعجي من ذلك، تعرفين ماذا أقصد، وتعرفين عملك بأحسن مما أعرف».

«لست منزعجة».

راقبتْ تومي وهو يهب لتلبية طلب، وفكّرت – انتظر حتى أخبر روبي. انتظر حتى أخبره أن ساقي الكولا يحسب نفسه ذا شأن.

«اسمعيني»، قال تومي لها، ونصف المسافة إلى «الكاونتر» تفصله عنها: «كم يجب أن أنتظر؟ كم يستغرق هؤلاء الوكلاء في قراءتها؟».

«أسبوعين ربما، أو أكثر».

«كما اعتقدت. هل تريدين مزيداً من القهوة اليوم؟».

«لا، شكراً». ونهضت عن كرسيّها ومضت لتدفع الحساب، بينما كانت تفكّر بأنهم قد يشترون منه هذه المسرحية، وحينها سأبدأ بتناول طعامي في كشك «الهمبرغر» على الجهة الأخرى من الشارع.

خرجت إلى المطر مجدّداً لترى حافلتها واقفة في الشارع. ركضت نحوها، غير مبالية بإشارة المشاة الضوئية، حاشرة نفسها في الجمع الصاعد إليها. وجرّاء الحنق الذي ألمّ بها من تومي ومسرحيته دفعت الناس أمامها، والتفتت امرأة نحوها قائلة: «ماذا تحسبين الذين أمامك؟». وضعت كوعها بكيد مقابل أضلاع المرأة وصعدت الحافلة قبل الجميع، ودفعت قيمة التذكرة وحصلت على آخر مقعد متوفر، وسمعت المرأة خلفها تقول: «هؤلاء الذين يزاحمون كلّ من حولهم يحسبون أنفسهم مهمّين». وصارت تنظر حولها لترى ما إذا كان هناك من تعرّف على المرأة التي تقصدها؛ الرجل الجالس بجانبها على المقعد المجاور للنافذة ساهم وعلى وجهه تعابير التعب الكثيرة التي تعلو وجوه ركاب الحافلة صباحاً؛ فتاتان في المقعد أمامها تنظران عبر النافذة إلى رجل في طريقه ليستقلّ الحافلة، وفي الممرّ تقف المرأة إلى جانبها، وما زالت تتكلّم عنها: «أناس يعتبرون عملهم هو الوحيد المهمّ في العالم، ويعطون أنفسهم الحق بدفع من حولهم». ولم يكن من أحد في الحافلة يستمع إلى ما تقوله: فالجميع كان مبلّلاً ومتضايقاً ومحشوراً، والمرأة تواصل على نفس الموجة الرتيبة – «تظنّ لا أحد سواها يملك حقّ ركوب الحافلات».

أبقت عينيها على الرجل في الخارج الذي اختفى وانحشر الحشد داخل الحافلة ودفع بالمرأة مبعداً لها. حين وصلت إلى محطتها أحسّت بشيء من الخجل لدفعها المرأة، ولدى وصولها إلى الباب كانت تلك المرأة بجانبه، تحدّق إليها كما لو أنها تريد حفظها. «عانس شمطاء»، قالت لها المرأة بصوت عالٍ، وضحك كلّ من حولها.

أظهرت الآنسة ستايل، بينما تنزل بحذر إلى الرصيف، تعابير تنمّ عن الاحتقار. نظرت إلى الحافلة وهي تستعدّ لتمضي لترى أن المرأة ما زالت تراقبها. مشت والمطر منهمر إلى البناء القديم حيث يقبع مكتبها، وهي تفكّر في أن تلك المرأة كانت متأهبة لمجابهة أيّ أحد تقع عليه، ولزم أن تردّ عليها.

«صباح الخير آنسة ستايل»، قال لها عامل المصعد.

«صباح الخير»، قالت وخطت إلى المصعد المفتوح وأسندت ظهرها إلى حائطه الخلفي.

«يوم سيّئ»، قال العامل. انتظر برهة وأغلق الباب قائلاً: «يوم مناسب لملازمة البيت».

«نعم هو كذلك»، وعاودتها تلك المرأة. ما كان لي أن أدع الأمر يمرّ، تاركة نهاري يبدأ مع حادثة مقرفة، كان يجب أن أردّ عليها بما يرضيني ويمنحني شعوراً جيداً، يجعل يومي يوماً جيداً.

«ها قد وصلنا»، قال العامل. «وهكذا لن تضطري للخروج».

«يسعدني ذلك»، قالت وخرجت من المصعد إلى المكتب. كانت عبارة «روبرت شاكس، وكلاء أدبيون» منارة. وقفت أمام الباب. راودها إحساس بالبهجة. لا بدّ أن روبي في الداخل مبكراً كعادته.

إحدى عشرة سنة وهي تعمل في «روبرت شاكس»، منذ مجيئها إلى نيويورك في عيد الميلاد حين كانت في العشرين من عمرها، فتاة سمراء نحيلة مهندمة، مصففة الشعر، تطبق على حقيبتها بكلتا يديها، خائفة في «المترو»، وهي تلبي إعلان توظيف، وتقابل روبرت شاكس قبل أن تحظى بغرفة تعيش فيها. وقعت على الإعلان من حيث لا تدري، إدارية مساعدة في وكالة أدبية،

ولم يكن من أحد حول إليزابيث ستايل، وهي تسأل الناس بخجل عن السبيل للوصول إلى العنوان، وعمّا إذا حصلت على الوظيفة فهل ستكون جيدة. كانت الوكالة قائمة على روبرت شاكس ورجل لمّاح نحيف لم يطق إليزابيث، ولتدفع بروبرت شاكس بعد سنتين إلى إنشاء وكالته الخاصة. اسم روبرت شاكس كان على الباب وعلى جميع الشيكات، وإليزابيث ستايل غارقة في مكتبها، تكتب الرسائل، وتحفظ السجلات، وتفارقه أحياناً لاستشارة روبرت شاكس ببعض الملفات الحريص على الاطلاع عليها.

لقد أمضيا وقتاً طويلاً على امتداد السنوات الثماني يسعيان فيها إلى جعل بيئة المكتب تبدو صارمة ومناسبة لازدهار الأعمال، وكانت النتيجة أنه أصبح مكاناً بائساً، أصحابه مشغولون جدّاً عن تجميله وترتيبه بما يتناسب مع تطلعات زبائنهم. يفتح الباب على غرفة استقبال بسيطة، طُليت بلون حنطي منذ سنة، تحتوي كرسيين بنيين مصنوعين من الكروم، وأرضية بنية، وصورة مؤطرة لآنية فيها ورود معلقة فوق طاولة صغيرة تجلس إليها الآنسة ويلسون إلى الخامسة عصراً على امتداد الأسبوع، وهي فتاة شاحبة تشهق حين تجيب على المكالمات الهاتفية. يوجد خلف طاولة الآنسة ويلسون بابان، لا يوحيان بأنهما ينفتحان على عدد لامتناهٍ من المكاتب على امتداد الطابق، الأمر الذي أمل روبرت شاكس أن يحصل؛ إلى اليسار باب مكتوب عليه: «روبرت شاكس»، والباب إلى اليمين حمل اسم: «إليزابيث ستايل»، وعبر زجاج البابين المحجّر، يمكن بصعوبة رؤية شكل النافذتين الضيقتين لكلّ مكتب، وتظهران قريبتين من الباب والجدران، ممّا يجعل مقاس الغرفتين مماثلاً لغرفة الاستقبال، كما أن خصوصية كلّ من السيد شاكس والآنسة ستايل مصانة عبر قواطع خشبية رقيقة طليت لتبدو على هيئة جدران.

تأتي إليزابيث ستايل صبيحة كلّ يوم إلى المكتب وفي رأسها أن إمكانية القيام بشيء ما زالت واردة، أي إيجاد طريقة تظهر المكتب على نحو لائق، باستخدام ستارة ذات شرائح معدنية أو بساط مزخرف، أو مكتبة لطيفة تحمل أرففها كتباً من الكلاسيكيات والإصدارات الحديثة التي من المفترض أن روبرت شاكس باع حقوقها إلى ناشريها، أو حتى طاولة صغيرة للمجلات الفاخرة. رأت الآنسة ويلسون حصولها على راديو أمر لطيف،

لكن تطلع روبرت شاكس كان إلى مكتب باهظ بأثاث ثقيل وطاولات صلبة على الأرض وكتيبة من السكرتيرات.

بدا المكتب بهيجاً على غير العادة، ربما لأن المطر ما زال ينهمر في الخارج، أو لأن الأضواء منارة وأجهزة التدفئة شغّالة. توجهت إليزابيث ستايل إلى مكتبها وفتحت الباب، وقالت: «صباح الخير روبي»، طالما أن لا أحد في المكتب، فلا داعي للتظاهر أن القواطع الخشبية جدران.

«صباح الخير ليز، هل لك أن تأتي؟». قال روبي.

«سأنزع عني معطفي وآتي»، هناك خزانة صغيرة في زاوية مكتبها، يجب عليها أن تعصر نفسها وهي تمرّ بطاولتها للوصول إليها لتعلّق فيها المعطف. لاحظت وجود بريد على طاولتها، أربع أو خمس رسائل منها مغلف سميك ربما يكون مخطوطاً. بسطت الرسائل لتتأكد من عدم وجود ما يستدعي اهتماماً خاصّاً، ثم خرجت وفتحت باب غرفة روبي.

كان منكبّاً على طاولته، مبديّاً ما يظهره في حالة من التركيز التام؛ تقابلها صلعة يافوخه ومنكباه الضخمان المكوران المتهدلان قد غطّيا نصف مساحة النافذة. مكتبه مماثل لمكتبها تقريباً، عدا خزانة صغيرة للملفات وصورة موقعة لواحد من الكتاب الناجحين الذين أدارت شؤونهم الوكالة. كُتب على الصورة: «إلى بوب، مع امتناني العميق، جيم»، وكان روبرت شاكس مولعاً باستخدامها مثالاً على التشاركية مع الكاتب الطموح. حين أغلقت الباب كانت إليزابيث على مسافة خطوة من كرسي الزوار المائل إلى المكتب؛ جلست ومدّت رجليها أمامها.

«تبلّلت حتى العظم صباحاً»، قالت.

«يوم مريع»، قال روبي من دون أن يرفع رأسه. حين يكون وحده معها يترك لحماسته أن تظهر على سجيتها والتي غالباً ما يستجمعها في صوته، ترك لمعالم التعب والقلق أن تظهر على وجهه. كان يرتدي بدلة رمادية لائقة في ذلك اليوم، وفي يوم آخر، مع أناس آخرين، سيبدو كلاعبي الغولف، رجل يأكل لحم العجل المحمّر الجيد ويحبّ الجميلات. «إنه يوم مريع»، كرّرها رافعاً رأسه نحوها: «ليز، هذا الوزير اللعين جاء إلى المدينة مجدّداً».

«اتّضح الآن سبب قلقك»، قالت. كانت في صدد الشكوى إليه، وإخباره عن تلك المرأة في الحافلة، وتسأله أن يعدل جلسته ويحسن التصرف، لكنها لم تعد في وارد هذه الأحاديث، فقالت: «يا لروبي العجوز المسكين».

«وصلتني رسالة منه، ووجب عليَّ الذهاب لملاقاته. لقد استأجر غرفة في سكن مشترك مجدّداً».

«ماذا تنوي أن تقول له؟».

نهض روبي واستدار واقفاً أمام النافذة. حين ترك كرسيه ما كان عليه إلّا أن يستدير ليقابل النافذة بدلاً عن الخزانة، أو تلك الصغيرة المخصصة للملفات؛ ولو في يوم ألطف لكانت تندرت على وزنه: «لا أعرف أيّ شيء لعين سأقوله له. سأعده بشيء ما». قال روبي.

أعرف أنك ستفعل، فكّرت. في ذهنها صورة ثابتة لمناورات روبي في التملص من هذا الموقف المحرج: تراه يصافح يد ذلك الرجل العجوز بحفاوة، مخاطباً إياه بـ «سير» وهو رافع كتفيه، مثنياً على قصائد العجوز: «جميلة سير، رائعة بحقّ»، مطلقاً وعداً كيفما اتفق، ليهرب منه بصلافة.

«سيتسبب ذلك بمشكلة»، قالت بشيء من العتب.

ضحك روبي قائلاً: «لكنه سيتوقف عن إزعاجنا لبعض الوقت».

«يجب أن تتصل به، أو تكتب له رسالة».

«ولماذا؟». بدا لها أن فكرة خوض غمار مشكلة بتملصه من المسؤولية أو ما يسميه راحة البال يبهجه، وهكذا سيقوم برحلة طويلة بـ «المترو» إلى مركز المدينة، حيث غرفة الوزير، ثم يأخذ سيارة أجرة مسافة بضعة مبانٍ ليحافظ على مظهره وهندامه، ويمضي ساعة من الحديث المنهك مع العجوز، فقط لكي ينعم براحة البال أو ما قد يسميه شهامة.

يهبه ذلك شعوراً جيداً، تبادر إلى ذهنها. يجب أن يذهب بنفسه، لا أن أذهب أنا. «لا تؤتمن على إدارة الأعمال بنفسك. أنت أخرق».

استدار حول مكتبه وهو يضحك مجدّداً، وربّت على رأسها: «نحن منسجمان ومتفاهمان كثيراً، أليس كذلك يا ليز؟».

«طبعاً».

بدأ يدوّر الأمر في رأسه؛ واضعاً رأسه بين يديه وأمسى صوته رصيناً: «سأخبره أن أحدهم يريد قصيدة من قصائده لكتاب مختارات شعرية»، قال.

«فقط لا تعطه أيّ مبلغ. لديه من المال أكثر مما لدينا الآن».

أخرج معطفه الأنيق من الخزانة ووضعه على ذراعه، ووضع باستهتار القبعة على الجزء الخلفي من رأسه وحمل حقيبته. «سأحضر كلّ قصائد العجوز إلى هنا. أظنّ أن بمقدوري تزجية الوقت بإلقاء قصائده أمامه».

«رحلة سعيدة».

ربّت على رأسها مجدّداً، وتوجه إلى الباب: «ستهتمين بكلّ شيء هنا؟».

«سأحاول تدبّر الأمر».

تبعته إلى الباب ثم خطت باتجاه مكتبها. توقف في منتصف المسافة إلى خارج المكتب، وقال من دون أن يلتفت: «ليز؟».

«نعم؟».

«حسناً؟». فكّر لبرهة. «هناك شيء أريد أن أخبرك به. ليس مهمّاً كثيراً».

«نلتقي عند الغداء؟».

«سأعود في الثانية عشرة ونصف».

أغلق الباب وسمعت وقع أقدامه تمضي متتابعة نحو المصعد؛ خلصت إلى أنها خطوات منهمكة، في حال كان هناك من يصيخ السمع إليها في هذا المبنى القديم المخيف.

جلست إلى مكتبها تدخّن وتتمنى لو أن بإمكانها طلاء جدرانه بالأخضر الفاتح. تستطيع القيام بذلك وحدها في وقت متأخر من الليل، ولن يتطلّب الأمر سوى سطل طلاء واحد، حدّثت نفسها بمرارة، وخلصت إلى أن القيام بذلك في المكتب، يجب أن يراعي ترك ما يكفي لطلاء واجهة المبنى. أطفأت سيجارتها، وانتقلت إلى التفكير في أنها عملت لمدة طويلة، ولا بدّ أن يأتي يوم تحظى فيه بزبون المليون دولار، حينها تنتقل إلى بناية تجارية بحقّ، فيها جدران عازلة للصوت.

احتوى البريد على مكتبها فاتورة من طبيب الأسنان، ورسالة من «أوريغون»، وإعلانين، ورسالة من والدها، ولا بدّ أن المغلف السميك

يحتوي مخطوطاً. رمت بالإعلانين وفاتورة طبيب الأسنان وقد كتب عليها «يرجى إعادة إرسالها»، ووضعت المخطوط والرسالة الأخرى جانباً، وفتحت رسالة والدها.

طالعها أسلوبه الخاص بادئاً بـ «ابنتي الغالية»، ومختتماً الرسالة بـ «والدك المهمل». وهو يخبرها أن أمور متجر بيع العلف سيئة، وأن أختها في كاليفورنيا حامل مجدّداً، والعجوز السيدة جيل سألت عنها، وأنه يشعر بالوحدة الشديدة بعد وفاة أمها، متمنياً أن تكون على ما يرام. رمت بالرسالة التي استقرت فوق فاتورة طبيب الأسنان في سلّة المهملات.

وصاحب الرسالة من أوريغون يستفسر عن مخطوطه الذي أرسله منذ ثلاثة أشهر؛ ويحتوي المغلف السميك مخطوطاً مكتوباً بخط اليد من قبل شاب من «أليتاون»، يريد أن يبيعه سريعاً طالباً اقتطاع الرسوم من أجر المحرّر. تأمّلت المخطوط باستهتار، ثم قلّبت بضع صفحات وقرأت من كلّ واحدة بضع كلمات؛ ثم عدلت عن ذلك وقرأت صفحة كاملة، ثم عادت بالصفحات وقرأت المزيد. انحنت قليلاً وعيناها على المخطوط، ووصلت إلى درج مكتبها الأخير، ونبشت في الأوراق إلى أن استخلصت دفتراً صغيراً (أبو العشرة سنتنات) وقد امتلأ نصفه بالملاحظات. فتحت صفحة بيضاء، ونسخت مقطعاً من المخطوط، وفكرت بأنها تستطيع جعل الرجل امرأة؛ سجلت ملاحظة أخرى، «ليستعمل دبليو أيّ اسم باستثناء هيلين»، الذي كان اسم المرأة في القصة. وضعت الدفتر بعيداً لإفساح المجال أمام الآلة الكاتبة التي قرّبتها منها. أخذت ورقة مذيلة بـ «روبرت شاكس، وكلاء أدبيون، إليزابيث ستايل، قسم الأدب القصصي»، ووضعتها في الآلة الكاتبة، وما إن بدأت تطبع اسم الشاب والعنوان: يسلم باليد، «أليتاون»، حتى سمعت الباب الخارجي يُفتح ويُغلق.

«هالو»، قالت من دون أن ترفع رأسها.

«صباح الخير».

جاءها صوت عالٍ لفتاة، وحينها رفعت رأسها. كانت الفتاة التي دخلت ضخمة وشقراء، واجتازت غرفة الاستقبال الصغيرة كما لو أنها مستعدة لتلقّي أيّ شيء يحصل هنا بإعجاب.

«هل تريدين مقابلتي؟». سألتها إليزابيث، ويداها ما زالتا على مفاتيح الآلة الكاتبة. إن كان لله أن يرسل إليّ زبوناً، فكّرت، فما الضير بأن يكون زبوناً أدبياً.

«أريد مقابلة السيد شاكس»، قالت الفتاة وهي تقف عند باب مكتب إليزابيث.

«خرج لأمر ضروري، هل لديك موعد؟».

تردّدت الفتاة كما لو أنها متشككة في صلاحيات إليزابيت. قالت في النهاية: «ليس تماماً. أنا هنا لأعمل على ما أظنّ».

كان هناك ما يـودّ قوله لي، فكّرت إليزابيث، الجبان. «فهمت. تفضلي بالجلوس».

خطت الفتاة بخجل، رغم افتقارها لما يشي بالحياء. شأنه هو أن يخبرها، وليس شأنها، فكّرت إليزابيث وقالت: «هل طلب منك السيد شاكس أن تأتي لتعملي هنا؟».

«حسناً»، قالت الصبية، كما لو قرّرت أن لا ضير بالثقة بإليزابيث، «الإثنين في الخامسة كنت أسأل عن عمل في كلّ المكاتب في المبنى، وجئت إلى هنا فأراني السيد شاكس المكتب، وقال إنه يعتقد بأنني مناسبة للعمل». ثم استدركت: «لم تكوني هنا».

وافقتها إيزابيث، وراحت تفكر بأنه على علم بذلك منذ الإثنين، اليوم! اليوم الأربعاء، ويجب اكتشاف ذلك مع التحاقها بالعمل. «لم أتعرف على اسمك».

«دافني هيل»، قالت الفتاة بتواضع.

كتبت إيزابيث في مفكرتها «دافني هيل»، لتبدو كما لو أنها في صدد اتخاذ قرار هامّ ولترى ما الذي يبدو عليه اسم «دافني هيل» كتابةً.

«قال السيد شاكس»، ثم عدلت عن المواصلة. كان صوتها عالياً وبدا أنها حين تكون مضطربة فإنها تفتح عينيها العسليتين على اتساعهما وترمش. وعدا عن شعرها الأشقر الغامق والمجدول أعلى رأسها، فما من شيء مميز سوى أنها خرقاء ومتشنجة، وقد تأنّقت بثياب تناسب أول يوم عمل لها.

«ما الذي قاله السيد شاكس؟». سألتها إليزابيث حين بدت أنها تراجعت عمّا ستقوله.

«قال إنه ليس راضياً عن عمل الفتاة الحالية، ويجب أن أتعلّم عملها ليتخلّص منها، ويجب المجيء اليوم لأنه سيكون قد أخبرها».

«طيب، هل تستطعين الطباعة على الآلة الكاتبة، يفترض أنك تعرفين؟».

«أعتقد ذلك».

نظرت إليزابيث إلى الرسالة في الآلة الكاتبة أمامها وقالت: «هل لك أن تجلسي إلى الطاولة في الخارج وتجيبي على المكالمات إن تلقينا اتصالاً، يمكن أن تقرئي أو تفعلي أيّ شيء».

«نعم سأفعل آنسة ستايل».

«رجاء أغلقي باب المكتب»، قالت إليزابيث، وراقبتها وهي تمضي إلى ردهة الاستقبال وتغلق الباب بحرص. ما تودّ قوله للصبية يمكن أن ينتظر. ربما تصيغ بعض العبارات لروبي لحين الغداء.

ثم تساءلت متخوفة، وما الذي يعنيه هذا، الآنسة ويلسون تعمل هنا منذ التحاقي بالعمل. هل يسعى بذلك إلى تحسين المكتب بأسلوبه الطائش؟ الأفضل أن يشتري مكتبة؛ من سيعلّم هذه الصبية الخارقة الإجابة على المكالمات وكتابة الرسائل ما لم تكن الآنسة ويلسون؟ ومن غيري. سيكون عليَّ استمهاله في هذه اللفتة العفوية الجميلة كما دائماً؛ والحديث عن الأشياء الكثيرة التي أقدمها لهذا المكتب البائس وتوفير فرصة لكسب المال. على كلّ الأحوال، قد تساعدني دافني في طلاء الجدران بعد الخامسة؛ ربما هو الشيء الوحيد الفالحة فيه.

عادت إلى الرسالة في الآلة الكاتبة. إنها رسالة تشجيعية لزبون جديد؛ ومضت بلا تردّد إلى كتابة صيغة بسيطة ماثلة في ذهنها، وراحت تضرب المفاتيح بسرعة على نحو تعوزه المهارة والسلاسة. «السيد العزيز بيرتون. قرأنا قصتك باهتمام بالغ. الحبكة مصاغة بعناية، ونؤمن أن شخصية – توقفت وراحت تقلّب بالمخطوط كيفما اتفق –الليدي مونتاج، تحديداً، تحتكم على خصال تستدعي الثناء. لكن ولكي تصل القصة إلى أسواق

تحقّق من خلالها مردوداً ماليّاً مجزياً، فإنها بحاجة للمسة محرّر ماهر، وهي خدمة أساسية نوفرها لزبائننا، مقابل رسم قدره -».

«آنسة ستايل؟».

ورغم رقّة القواطع، قالت إليزابيث: «إن كنت تريدين التحدث معي آنسة هيل، فتعالي».

بعد دقيقة فتحت الآنسة هيل الباب ودخلت. استطاعت إليزابيث من كرسيها رؤية حقيبة هيل على الطاولة في الخارج، وأحمر الشفاه وعلبة مكياج صغيرة بجانبها. «متى سيعود السيد شاكس؟».

«لن يأتي قبل الظهر على الأرجح، لقد خرج لأمر مهمّ مع زبون. لماذا تسألين هل اتصل أحد؟».

«لا، فقط أتساءل»، قالت وأغلقت الباب وعادت متثاقلة إلى طاولتها. عادت إليزابيث إلى رسالتها، ثم أدارت كرسيها ووضعت رجليها اللتين ما زالتا مبللتين على جهاز التدفئة تحت النافذة. بعدئذٍ فتحت الدرج وأخرجت كتاب جيب لقصة من أدب الألغاز، واستدارت لتقرأها ورجلاها على جهاز التدفئة.

ولأن الجوّ ما زال ماطراً، ولأنها محبطة ومعتكرة المزاج، وروبي لم يأتِ في الواحدة والربع، طيّبت إليزابيث نفسها بكأس مارتيني بينما كانت تنتظر جالسة على كرسي ضيق غير مريح في المطعم، تراقب الناس يخرجون ويدخلون من وإلى المطعم. كان المطعم مزدحماً، وأرضيته مبلّلة جرّاء خطوات الداخلين من الخارج الماطر، وقد سادته العتمة والكآبة. درجت إليزابيث وروبي على تناول غدائهما في هذا المطعم مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، منذ افتتاح مكتبهما في المبنى المجاور. تتذكر إليزابيث للآن المرة الأولى التي قصداه فيها، وذلك في الصيف وهي ترتدي ثوباً أسود شفافاً -أنحف مما هي عليه الآن- وقبعة بيضاء صغيرة وقفازين أبيضين، وكم كانت متحمسة وفرحة بالمهنة الجديدة التي فتحت أبوابها أمامها، وحينها أمسك بعضهما بيدي بعض على الطاولة وتحادثا بحماسة بأنهما سيبقيان في المبنى القديم لسنة أو سنتين على الأكثر، ثم سيكون لديهما المال الكافي للانتقال إلى وسط المدينة؛ فالكتّاب الذي سيقصدون وكالة روبرت شاكس

سيكونون محط ثقة وسمعة جيدة، مع الكثير من مخطوطات الكتب الجاهزة لكي تكون الأعلى مبيعاً؛ وسينضم إليهما المحررون في مطاعم وسط المدينة الراقية، ولن يكون احتساء كأس قبل الغداء حدثاً استثنائياً. ولكن الطلبية الأولى من الأدوات المكتبية المروسة بعبارة: «روبرت شاكس، وكلاء أدبيون، إليزابيث ستايل، قسم الأدب القصصي»، لم تصل، وقد قاما بتصميم الترويسة معاً إلى طاولة غداء ذلك اليوم.

فكّرت إليزابيث أن تطلب كأس مارتيني ثانية، لكنها رأت روبي يدخل متأفّفاً مجتازاً الممرّ من بين الناس. رآها في القاعة ولوّح لها، مدركاً أنه محطّ أنظار الناس، بوصفه مديراً متأخراً عن موعد غداء، حتى وإن كان ذلك في مطعم بائس.

حين وصل إلى الطاولة، وظهره إلى القاعة، بدا وجهه متعباً وصوته منهكاً. «أخيراً فعلتها»، قال، ونظر متفاجئاً إلى كأس المارتيني الفارغة. «لم أتناول فطوري بعد»، قال.

«هل كان لقاء سيئاً مع الوزير؟».

«مريع»، قال. «يريد لكتاب قصائده أن يطبع هذا العام».

«وبماذا أجبته؟». محاولة ألّا تظهر صوتها المتوتر. سيكون هناك متسع لذلك لاحقاً، فكّرت، حين يحبّ أن يجيبني.

«لا أعرف، اللعنة وكيف لي أن أعرف ماذا قلت للأحمق العجوز؟». وتهالك على الكرسي. «ربما شيء مثل: سنبذل قصارى جهدنا».

وخلصت إليزابيث إلى أنه خرّب الأمر. لو أحسن الفعل لأخبرني تفصيلاً. أحسّت فجأة بالتعب تاركة كتفيها تتهدلان، وعادت تراقب الناس يخرجون ويدخلون من وإلى المطعم. وما الذي سأقوله، وأيّ الكلمات تناسب روبي؟

«ما سبب تجهّمك هكذا؟». سأل روبي فجأة. «لم يرسلك أحد إلى وسط المدينة من دون فطور».

«على كلّ صباحي سيّئ»، قالت إليزابيث، بينما كان روبي ينظر إليها مترقّباً ما ستقول. «لديّ موظفة جديدة اقتحمت المكتب».

ظلّ روبي مترقّباً، مصوباً ناظريه نحوها، وقد احمرّ وجهه قليلاً؛ كان ينتظر ما ستقوله قبل أن يعتذر، أو يفقد أعصابه، أو يسعى لتحويل كلّ الأمر إلى نكتة مضحكة. تأملته إليزابيث: هذا هو روبي، أعرف ما سيفعله، وما سيقوله، وربطة العنق التي سيرتديها في كلّ يوم من أيام الأسبوع، وعلى امتداد إحدى عشرة سنة أدركت هذه الأمور، ولإحدى عشرة سنة وأنا أتساءل عن كيفية قولي الأشياء حتى يفهمها؛ ومنذ إحدى عشرة سنة جلسنا هنا وأمسكنا أيادي بعضنا بعضاً وقال إن النجاح سيكون من نصيبنا. «كنت أستعيد يوم غدائنا هنا عند انطلاقتنا الأولى»، قالت بهدوء، وبدت الحيرة على وجه روبي. «يوم انطلاقتنا الأولى»، كرّرت العبارة مشدّدة على مخارج الحروف أكثر. «هل تتذكر جيم هاريس؟». هزّ رأسه وفمه فاغر قليلاً. «كنا سنجني الكثير من الأموال لأن جيم سيحضر كلّ أصدقائه إلينا ثم تشاجرت معه ولم نره منذ ذلك الوقت، ولا أحد من أصدقائه، والآن لدينا صديقك الوزير زبوناً وصورة جميلة لجيم معلقة على حائط مكتبك. موقعة، موقعة مع الامتنان، وإن كان يجني ما يكفي من المال فإننا سنكون بجواره نحاول الاستدانة منه».

«إليزابيث»، قال روبي. وكان محتاراً بين أن يبدو متأذياً أو أن يتبين ما إذا سمع أحد ما قالته.

«وحتى الفتى في المقهى على ناصية الشارع». حدقت إليه إليزابيث لدقيقة. «دايفي هيل»، قالت. «يا إلهي».

«فهمت»، قال روبي مبتسماً ابتسامة حلّ لغزاً. «دايفي هيل». التفت حين رأى النادلة قادمة. «آنسة»، قال بصوت عالٍ، مخاطباً إليزابيث أيضاً، «أعتقد أنه يجب شرب كأس أخرى، لتبهجك قليلاً». حين نظرت إليه النادلة قال: «كأسَي مارتيني»، والتفت إلى إليزابيث مبتسماً مجدّداً. «سأشرب على معدة خاوية»، ثم مدّ يده ملامساً يدها. «ليز اسمعيني، إن كان هذا ما يزعجك فقط، فأنا أحمق، حسبت أنك ستتوصلين إلى أنني أسأت التصرف مع الوزير. اسمعيني، لا بأس بالنسبة لدايفي، ظننت أننا بحاجة لمن يضفي بعض الإشراق على المكان».

«لكان من الأجدى طلاء الجدران»، قالت إليزابيث بصوت محايد، وحين حدّق إليها روبي أردفت: «لا شيء، لا شيء»، وواصل بجدية وهو مستند بذراعيه إلى الطاولة.

«ليكن بعلمك، إن لم تعجبك دافني فسنستغني عنها. هذا أمر لا جدال فيه، فقراراتنا مشتركة في هذا العمل». قال ذلك وراح يحدق إلى الفراغ عائداً في ذاكرته، ثم قال بصوت خفيض وهو ينظر إلى إليزابيث نظرة كلّها محبّة: «أتذكر تلك الأيام. كنا سنصنع العجائب».

تبسّمت إليزابيث مرغمةً. «يجب أن تنزل الدرج بهدوء أكثر. زوجة البواب تعتقد أنك أنت من يترك زلاجاته في الفناء، وكانت ستتسبب بكسر رجلها».

«لا تضحكي عليّ»، قال روبي. «إليزابيث، يجرحني حقّاً انزعاجك من فتاة مثل دافني هيل».

«طبعاً أزعجتني»، قالت إليزابيث. أثار روبي إعجابها بخفّة دمه. لو أنني أستطيع الحفاظ على الأحاسيس نفسها، فكّرت إليزابيث، حتى وإن كنت أهزأ به. «ها قد جاء فطورك لتحتسيه»، قالت.

«نريد يا آنسة أن نطلب وجبة الغداء لو سمحت»، قال روبي للنادلة.

ناول روبي قائمة الطعام لإليزابيث بحفاوة، «كروكيت الدجاج وبطاطا مقلية». قالت إليزابيث، «الطبق نفسه لو سمحت»، وأعاد القائمة. رفع روبي حين ذهبت النادلة كأس المارتيني وأعطاها لإليزابيث. «تحتاجينه، يا فتاتي الكبيرة»، ورفع الأخرى ونظر إليها، ثم قال مخفضاً صوته إلى نبرته المحبّبة المعهودة: «نخبك، ونخب نجاحنا المستقبلي».

ابتسمت إليزابيث بعذوبة وأخذت رشفة من كأسها، وبدا لها روبي متردّداً بين أن يتجرّع كأسه جرعة واحدة أو أن يشربها على مهل، هو الذي تورّط أصلاً به.

«إن تجرّعته بسرعة على معدة خاوية سيزعجك»، قالت.

بالكاد تذوّق الكأس ثم أعادها إلى الطاولة. «لنناقش أمر دافني بجدية الآن».

«حسبت أنها ستغادرنا»، قالت إليزابيث.

أفزعه قولها ذلك، وقال مشدّداً على كلماته: «طبيعي، إن كنت تريدين أن يمضي الأمر على هذا النحو. لكن سيكون من السوء بمكان أن نوظف فتاة ونطردها في اليوم ذاته جرّاء غيرتك».

«لست غيورة. لم أقل ذلك قط».

«طالما أنني لا أستطيع توظيف فتاة حسنة المظهر».

«بل تستطيع. أريد من يتقن الطباعة على الآلة الكاتبة».

«دافني تستطيع تولي العمل بشكل جيد».

«روبي»، قالت إليزابيث، ولم تكمل. عاهدت نفسي للتوّ ألّا أهزأ به، أتمنى لو أنني بقيت على حالتي منذ دقيقة، وليس هكذا. نظرت إليه متملّية من وجهه الأحمر، وشعره الخفيف الرمادي، وكتفيه الثقيلتين؛ وقد استند إلى الطاولة مرجعاً رأسه إلى الخلف وذقنه مشدودة لعلمه أنها تحدق إليه. يظنّ أنني هِبْتُه، فكّرت، يحسب نفسه رجلاً وقد أخافني. «لتبقَ». قالت إليزابيث.

«على كلٍّ»، أسند روبي ظهره إلى الكرسي ليتيح للنادلة وضع صحنه أمامه، «على كلٍّ»، وواصل بعد ذهاب النادلة: «ليس الأمر كما لو أنني لا أملك سلطة لتعيين موظفة في مكتبي».

«أعرف». قالت إليزابيث متعبة.

«إن كنت تريدين التبرّم من أشياء صغيرة»، قال روبي وقد تهدّل فمه متجنباً ملاقاة عينيه بعينها. «أستطيع إدارة مكتبي بنفسي». كرّر العبارة.

«تخشى كثيراً أن أتخلّى عنك. تناول غداءك».

أخذ روبي شوكته. «من الطبيعي أن أخجل من فضّ شراكة جميلة جرّاء غيرتك».

«لا يهمّ»، قالت إليزابيث، «لن أخوض في مواضيع أخرى».

«آمل ذلك»، وراح يأكل بنهم لدقيقة، ثم قال واضعاً شوكته على الطاولة: «لنجربها لأسبوع وإن لم تجديها أفضل من الآنسة ويلسون فسنتخلّى عنها».

«لكن لا–» أجابت، ثم قالت: «ليكن. على هذا النحو ستتمكن من معرفة مدى ملاءمتها لنا».

«رائع، لقد تحسَّن وضعي الآن». مدَّ يده وربت على يدها. «ليز الكبيرة الطيبة».

«أتعرف أشعر الآن بأنني مضحكة». كانت تنظر إلى المدخل. «أظنّ أني رأيت أحداً أعرفه».

التفت روبي ونظر إلى المدخل. «من هو؟».

«لا أحد من معارفك. إنه فتى من بلدتي. لا ليس الشخص نفسه».

«دائماً ما يظنّ المرء أنه يرى أناساً يعرفهم في نيويورك»، قال روبي والتقط شوكته.

استعادت إليزابيث حديثها مع روبي عن الأيام الخوالي وشربها للكأسين، وخلصت إلى أن سنوات مرّت لم يتبادر فيها فرانك إلى ذهنها، فضحكت بصوت عالٍ، وتوقف روبي عن الأكل: «ما بك؟ سيظنّ الناس أن شيئاً ما أصابك».

طرأ على إليزابيث إحساس بأنها يجب أن تحادث روبي، كما لو أنها مع شخص عميق الصلة بها، كزوج تقريباً. «كنت أفكّر بأن سنوات مرّت لم أتذكّر فيها ذلك الفتى»، قالت.

«الفتى صديقك القديم؟». سألها روبي من دون اهتمام يذكر.

أحسّت إليزابيث بوخزة الخوف ذاتها التي انتابتها منذ خمس عشرة سنة: «أوه، لا، لقد أخذني إلى حفل راقص. أمي اتصلت بأمه وسألتها أن يأخذني».

«آيس كريم شوكولا مع سائل الشوكولا فوقها»، قال روبي للنادلة.

«قهوة فقط». وقالت لروبي: «كان فتى رائعاً». لماذا لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه؟ باتت تقول لنفسها، لم أفعل ذلك منذ سنوات.

«هل قلت لدافني بأنها تستطيع الخروج لتناول الغداء؟».

«لم أقل لها أيّ شيء».

«من الأفضل أن نسرع إذن. لا بدّ أن الفتى[1] يتضور جوعاً».

ظنّت إليزابيث أنه يتحدث عن فرانك. «حقّاً»، قالت: «ما الذي توصلت إليه مع الوزير؟».

1- يستخدم روبي Kid للإشارة إلى دافني. المترجم

«سأخبرك لاحقاً، عندما تنتظم أفكاري، فأنا الآن لست متأكداً ممّا توصلنا إليه».

وسيخبرني بذلك على حين غرة، بحيث لا يكون لديَّ الوقت لأفكّر؛ لقد وعده بطبع قصائده على نفقته؛ أم أنه سافر؛ هل سأتولى أمر ذلك؛ أم أن أحدهم سيقاضينا. ليس لفرانك أن يقصد مكاناً كهذا، بل سيقصد مكاناً يسوده الهدوء ينادى فيه بـ«سير» وكلّ النساء من حوله جميلات، هذا إن كان يأكل أصلاً. قالت إليزابيث، «لا يهمّ».

«بالتأكيد لا يهمّ»، وبدا جلياً إحساسه بضرورة إضافته تلك اللمسة التوكيدية قبل العودة إلى دافني هيل. «طالما أننا نناضل معاً، فإننا سنتوصل إلى الأفضل، نعمل معاً على نحو جيد، ليز». نهض والتفت ليأخذ معطفه وقبعته. كانت بدلته مجعدة وبدت ضيقة عليه من طريقة تحريكه كتفيه بصعوبة.

أنهت إليزابيث آخر رشفة قهوة في فنجانها، وقالت: «تزداد بدانة كلّ يوم».

نظر إليها بعينين وجلتين: «أتظنين أنه يجب أن أعود إلى الحمية مجدّداً؟».

استقلّا المصعد معاً، كلٌّ في زاوية، متقابلين، وكلاهما يحدقان إلى الفراغ، عبر شبك المصعد المعدني نحو شيء خاص وسرّي. لقد صعدا وهبطا في هذا المصعد لست أو ثماني أو عشر مرات في اليوم منذ انتقالهما إلى هذه البناية، مرّات كانا سعيدين، وفي أخرى حانقين بعضهما على بعض، وأحياناً ضاحكين أو متخاصمين يتبادلان عبارات غاضبة خاطفة، ولعامل المصعد أن يعرف عنهما أكثر مما تعرفه مالكة شقة إليزابيث أو الزوجان الشابان في الشقة المجاورة لشقة روبي، وهما على اتخاذهما المصعد يومياً والعامل يكلّمهما بتهذيب ويقف وظهره إليهما، يصعدان وينزلان، يتدخل بإيجاز في خلافاتهما، أو يبتسم وهو يدير ظهره إليهما.

قال اليوم: «ما زال الطقس سيئاً؟». فأجابه روبي: «أسوأ من أيّ يوم. يجب استصدار قانون ضده»، قال عامل المصعد وهو يفسح لهما الطريق إلى طابقهما.

«أتساءل كيف ينظر إلينا عامل المصعد»، قالت إليزابيث وهي تلحق روبي باتجاه مكتبهما.

«يتمنى ربما أن يترك المصعد ويجلس في مكتب»، قال روبي. فتح باب المكتب وقال: «آنسة هيل؟».

كانت الآنسة هيل تجلس إلى طاولة الاستقبال، تقرأ الرواية التي تركتها إليزابيث قبل ذهابها إلى الغداء. «مرحباً سيد شاكس». قالت.

«هل أخذتها عن طاولتي؟». قالت إليزابيث، مندهشة لبرهة من شروعها في الحديث مباشرة من دون تفكير.

«هل من مشكلة في ذلك؟». سألت دافني: «لم يكن لديَّ ما أعمله».

«سنجد لك الكثير لتفعليه، يا أيتها الليدي الشابة»، قال روبي، بحماسة رجل أعمال متوقد: «المعذرة على تأخيرنا غدائك».

«خرجت وأحضرت شيئاً آكله»، قالت دافني.

«جيد»، قال روبي وهو ينظر بطرف عينيه إلى إليزابيث. «يجب أن نعدّ بعض الترتيبات المتعلقة بالمستقبل».

«مستقبلاً»، قالت إليزابيث محتدة: «لا تدخل إلى مكتبي من دون استئذان».

«بالتأكيد»، قالت دافني مذعورة: «هل أعيد إليك الكتاب؟»

«لا خلّيه». وذهبت إليزابيث إلى مكتبها وأوصدت الباب. سمعت روبي يقول: «الآنسة هيل لا تحبّ خربطة أغراضها. تفضلي إلى مكتبي لو سمحت». كما لو أن هناك ما يعزل بين المكاتب بحقّ، فكّرت إليزابيث. سمعت روبي يخطو بسرعة إلى مكتبه ودافني خلفه بخطوات بطيئة، ثم أوصد الباب.

تنهّدت، وقالت لنفسها سأتظاهر بوجود ما يعزل بيننا بحقّ، وروبي سيفعل أيضاً. وجدت رسالة على آلتها الكاتبة، حيث رسالتها إلى السيد بيرتون التي انتهت من نصفها. أخذت الرسالة وقرأتها بتركيز شديد لتمحو صوت موظفة روبي من الجانب الآخر من الحائط الفاصل. كانت الرسالة من الآنسة ويلسون، تقول:

«آنسة ستايل، لم يخبرني أحد بمجيء فتاة جديدة وبما أنني أعمل هنا منذ زمن طويل كان الأجدر بك أن تخبريني. أظنّ أن بمقدورها أن تتعلّم بنفسها. رجاء إعلام السيد شاكس بأن يقوم بإرسال مستحقاتي المالية إلى

البيت، العنوان في الملف كما يعرف. جاءك اتصال من السيد روبرت هانت، فهل لك أن تعاودي الاتصال به في فندقه (أديسون هاوس). أرجو أن تخبري السيد شاكس أن يرسل المال، إنه راتب أسبوعين إضافة إلى أسبوع فترة الإخطار بإيقاف العمل. آليس ويلسون».

لا بدّ أن ذلك أغضبها لدرجة لم تنتظر فيها أن تحصل على مستحقاتها، لا بدّ أنها حانقة، إذ إن دافني أول من أعلمها، وبالتالي أحسّت بأنني أنا من فعل؛ لن يرسل لها أيّ مبلغ. تستطيع سماع روبي يقول: «أوضاع العمل ولا أسوأ، أعلم أن هذا محبط جدّاً». يتحدث عن الكتابة الحرة، تريد دافني ربما أن تبيع تاريخ حياتها.

خرجت من مكتبها باتجاه مكتب روبي وقرعت الباب. إن قال روبي: «من؟»، فكّرت، لقلت: «لقد جاء عامل المصعد، ويريد الجلوس لبعض الوقت». لكن روبي قال: «ادخلي ليز، لا تتساخفي».

«روبي»، قالت وهي تفتح الباب: «الآنسة ويلسون كانت هنا وتركت رسالة».

«نسيت أن أخبرك»، قالت دافني: «لم تتح لي الفرصة بطبيعة الحال. قالت أن أخبر السيد شاكس بإرسال مستحقاتها».

«آسف على ذلك»، قال روبي. «كان يجب إعلامها بذلك أمس. من المعيب جدّاً أن تعرف بهذه الطريقة». كانت دافني تجلس على واحد من الكرسيين في غرفته، وليقول بعد تردّد: «اجلسي هنا إليزابيث».

انتظرت إليزابيث ليقوم عن كرسيه وقالت: «لا بأس روبي، سأعود إلى العمل». قرأ روبي رسالة ويلسون بعناية، وقال: «آنسة هيل، أعدّي رسالة إلى الآنسة ويلسون تتضمن مستحقاتها ومبلغ الأسبوع الإضافي الذي طلبته».

«ليس لديَّ ما أصنع به رسالة»، قالت دافني. أخذت إليزابيث دفتراً وقلم رصاص عن طاولة روبي وأعطتها لها، فخطّت دافني عبارة على الصفحة الأولى من الدفتر.

«من هو هانت هذا؟». سأل روبي إليزابيث. «حبيبك السابق؟».

لم يكن عليّ أن أخبره، فكّرت إليزابيث: «أظن أنه صديق أبي في بلدتي».

«الأفضل أن تعاودي الاتصال به»، قال روبي وأعطاها الرسالة.

«سأفعل، ألا تظن أن الأفضل هو أن تكتب إلى الآنسة ويلسون وتشرح لها ما حصل؟».

أربك ذلك روبي، ثم قال: «الآنسة هيل ستقوم بذلك بعد الظهر».

«جيد، هذا سيمنحها شيئاً تفعله». قالت إليزابيث متجنبةً النظر إلى دافني.

أغلقت الباب بهدوء شديد حين خرجت، وأغلقت باب غرفتها لتُوهم نفسها بشيء من الخصوصية. كانت تعرف أنه سيتنصت عليها وهي تتكلم هاتفياً؛ تراءت لها صورة غريبة لروبي ودافني جالسين صامتين إلى طرفي طاولة روبي ينصتان وأنظارهما متجهة نحو الجدار الفاصل، وقد كست وجهيهما معالم الجدية، بينما هي تحادث صديق والدها القديم؟

بحثتْ عن رقم الفندق في الدليل، وهي تسمع روبي يقول: «أخبريها بأسفنا العميق، وأن مردّ ذلك هي ظروف خارجة عن إرادتنا. اجعلي الرسالة على أكبر قدر من اللطف. تذكّري أن تقولي لها إنها أول من سنفكر فيها متى توفر عمل جديد هنا».

حين حلّ الصمت في مكتب روبي، طلبت إليزابيث الرقم. سألت موظف الفندق عن السيد روبرت هانت، وحين أجابها أخفضت صوتها: «عم روبرت؟ معك بيث».

أجابها بحماس شديد: «بيث! جميل أن أسمع صوتك. اعتقدت ماما بأنك ستكونين مشغولة جداً بحيث لن تعاودي الاتصال».

«هل هي معك؟ جميل أن تكون معك، كيف حالكما؟ كيف حال أبي؟».

«الجميع بخير»، قال: «كيف هي أمورك بيث؟».

حافظت على انخفاض صوتها: «الأمور عظيمة، عم روبرت، أتدبر أموري. متى أتيت؟ وكم ستبقى؟ ومتى أستطيع أن أراك؟».

صار يضحك. «ماما تكلّمني من طرف وأنت من الطرف الآخر، ولا أستطيع سماع ما تقولان. على كلٍّ، كيف هي أحوالك؟».

«عظيمة»، قالت مجدّداً.

«بيث، نحن متلهفون جداً للقائك. لدينا الكثير من الأخبار من البلد».

«مشغولة جدّاً في هذه الأيام، لكنني أحبّ كثيراً أن أراك. إلى متى أنت باقٍ؟».

«إلى الغد، جئنا لتمضية يومين لا أكثر».

كانت تستقرئ ما ستسمعه سريعاً، حتى وهي تقول بارتباك شديد: «أوه لا، لماذا لم تعلمني مسبقاً؟».

«تريد ماما أن تقول لك إن الجميع يرسلون إليك حبّهم».

«أنا متعبة»، قالت ذلك بنبرة مشدّدة جرّاء إحساسها بالذنب. «لا أعرف كيف سأرتب أمر لقائنا. ربما صباح غد؟».

«ماما تنوي غداً الذهاب إلى لونغ أيلاند لترى أختها، ثم سيقلّوننا إلى القطار. ظننا أنك سترافقيننا الليلة».

«يا إلهي، عندي موعد عشاء لا أستطيع الاعتذار عنه، فهو مع زبون للأسف للأسف». «سنذهب إلى العرض وظنّنا أنك سترافقيننا»، ثم قال: «ماما، ما اسم العرض الذي سنذهب إليه». صمت لبعض الوقت ثم قال: «لا تتذكر، لقد حجز لنا الفندق التذاكر».

«أتمنى لو أستطيع، كنت أتمنى بحق أن أتمكن من المجيء». وراحت تفكر بالتذكرة الإضافية التي حرصا على شرائها لها، هما العجوزان اللذان يسعيان للاحتفال في مدينة غريبة. لقد خصصا الليلة لي. «لو أن عشائي مع أيّ شخص آخر في العالم، غير هذا الزبون، لكنت اعتذرت، لكن هذا واحد من أهم زبائننا ولن أجرؤ على فعل ذلك».

«بالطبع». ساد صمت طويل ثم قالت إليزابيث بسرعة: «على كلٍّ، ما أخبار أبي؟».

«بخير، الجميع بخير. أظن أنه يتمنى وجودك بقربه».

«أتخيل أنه وحيد»، قالت إليزابيث حريصة على ألّا يظهر صوتها التزامها بأيّ شيء. أمست تواقة لتنهي المكالمة، وتفصل نفسها عن عائلة هانت ووالدها، والتلميحات المتكرّرة بضرورة زيارة بيتها. أعيش في نيويورك الآن، أخبرت نفسها، بينما صوت العجوز يواصل سرد طرائف مملّة عن والداها وأشخاص عرفتهم منذ زمن طويل؛ أعيش وحدي في نيويورك ولا

أتذكر أولئك الأشخاص؛ على أن يكون العم روبرت ممتناً لأنني تكلّمت معه أصلاً.

«سرّني أنك اتصلت بي»، قالت فجأة وهو في خضم حديثه. «يجب العودة إلى العمل».

«طبعاً»، قال بنبرة اعتذارية. «حسناً بيث، اكتبي لنا جميعاً، هل ستفعلين؟ ماما ترسل إليك حبّها».

يتشبثون بي، ولا يفعلون شيئاً سوى إرسال الرسائل و«والدك المهمل»، وإرسال الحبّ جيئة وذهاباً. «وداعاً»، قالت إليزابيث.

«تعالي لزيارتنا قريباً»، واصل الحديث.

«سأفعل متى أتيح لي». وأغلقت إليزابيث الهاتف ما إن قال: «وداعاً». متبوعة باستدراكه: «أوه، بيث انتظري». لم أعد أقوى على سماع المزيد ووجب عليّ أن أتواقح.

وعاد صوت روبي إلى مسامعها من المكتب الآخر: «أظن أنك فهمت ما هو متعلق بالمكالمات وغير ذلك».

«نعم أعتقد ذلك»، قالت دافني.

عادت إليزابيث إلى رسالتها للسيد بيرتون، التي أمست مجعدة جرّاء بقائها في الآلة الكاتبة، وسمعت روبي ودافني يتحادثان بعض الوقت، عن أسماء الزبائن، ومفتاحي تحويل المكالمات في الهاتف على طاولة الاستقبال، ثم سمعت خطواتهما متوجهين إلى غرفة الاستقبال لاختبار التحويلة، وقد بديا لها طفلين يلعبان في المكتب. كانت تسمع بين الفينة والأخرى ضحكة روبي الصاخبة، متبوعة بضحكة دافني المتروية والمندهشة. ورغم سعيها للتركيز على الأسعار الخاصة بالسيد بيرتون إلّا أنها كانت تجد نفسها تنصت، متتبعة حركات روبي ودافني في أرجاء المكتب، وحين علا صوت روبي الفائق الخبرة والمعرفة عن مجرد همهمات التزما بحضورها سمعته يقول: «مطعم هادئ وصغير»، وعندما انخفض الصوت إلى نبرته الحذرة قالت لنفسها، حيث يمكنهما الحديث بحرية، متجنبة كونها متطفلة عليهما. انتظرت لحين

سماعها دافني تستقر على كرسيّها في غرفة الاستقبال وروبي في طريقه إلى مكتبه، فقالت: «روبي؟».

ساد الصمت ثم جاء وفتح باب مكتبها. «تعرفين أنني لا أحبّك أن تصرخي في المكتب».

احتفظت بصمتها قليلاً لرغبتها بالانتقال بصوتها إلى نبرة متودّدة. «هل ستتعشى معاً الليلة؟». سألت. عادة ما يتعشيان لأربع أو خمس مرات في الأسبوع، في المطعم الذي تناولا فيه غداءهما، أو في مطاعم أصغر أقرب إلى شقة روبي أو شقة إليزابيث. حين رأت التواء فمه والتفاتته الواهنة إلى خارج المكتب رفعت صوتها قليلاً: «أسعى إلى تجنب لقاء هذين الأحمقين هذه الليلة، ولديَّ الكثير لأقوله لك».

قال روبي بسرعة وصوت خفيض: «للحقيقة، أنا ملتزم بموعد عشاء». وأضاف متظاهراً بالانزعاج: «عندي موعد عشاء لا أستطيع الاعتذار عنه، فهو مع زبون». غير مدرك أنه يعيد قول ما سمعها تقوله على الهاتف منذ دقائق. حين بدت إليزابيث مندهشة، قال: «إنه الوزير، لقد وعدته صباحاً بأن نلتقي الليلة، لم يتح لي أن أقول لك ذلك».

«طبعاً لا يمكنك أن تخلف هذا الوعد»، قالت إليزابيث بسلاسة. راقبت روبي وهو جالس بصعوبة إلى زاوية طاولتها، يلعب شارداً بقلم رصاص، وهو يرغب بالذهاب إلّا أنه يخشى أن يباغتها بذهابه. فكّرت إليزابيث أن ما تفعله أشبه بلعبة الغميضة؟ «لمَ لا تذهب إلى السينما أو هكذا أمكنة؟».

ضحك روبي متأسفاً. «أتمنى لو أستطيع».

أخذت إليزابيث قلم الرصاص منه وقالت: «يا لروبي العجوز المسكين، أنت متضايق بحقّ، يجب أن تخرج إلى مكان لترتاح وتسترخي».

تجهّم روبي وبدا عليه القلق: «ولماذا يجب أن أخرج، أليس هذا مكتبي؟».

قالت إليزابيث وقد حوّلت صوتها إلى نغمة حنونة: «يجب أن تغادر المكتب لبضع ساعات، أنا جادة فيما أقول. لن تستطيع العمل هذه الظهيرة». قرّرت أن تسمح لنفسها بتلميحة ماكرة أخيرة. «خاصة إن كان يجب أن تلتقي ذلك العجوز المريع الليلة».

فتح روبي فمه وأغلقه من دون أن ينطق، إلى أن قال: «لا أستطيع التفكير حين يكون الطقس سيئاً. المطر يجنّني».

«أعرف ذلك»، قالت إليزابيث، ونهضت. «ضع قبعتك ومعطفك، واترك حقيبتك وكلّ شيء هنا»، وراحت تدفعه إلى الباب: «ثم عد بعد أن تمضي ساعتين في السينما، وحينها ستشعر بأن لقاء الوزير والحديث معه يضاهي مليون دولار».

«لا أريد الخروج مجدّداً في هذا الطقس».

«اذهب إلى الحلاق». فتحت باب مكتبها ورأت دافني تحدّق إليها. «احلق شعرك»، قالت وهي تمرّر يدها على مؤخرة رأسه: «أنا والآنسة هيل سنكون على مما يرام من دونك. أليس كذلك يا آنسة؟».

«بالتأكيد»، قالت دافني.

مضى روبي منزعجاً إلى مكتبه وخرج حاملاً قبعته ومعطفه المبلّلين. «لا أعرف ما الذي ينتظرني في الخارج حتى تدفعيني إلى الذهاب».

«لا أعرف ماذا يوجد هنا لتبقى»، مرافقة له إلى الباب الخارجي: «لا تكون نافعاً في شيء حين تكون في هذه الحالة». فتحت الباب وخرج. «إلى اللقاء».

«إلى اللقاء»، قال روبي.

شيّعته إليزابيث بناظريها لحين استقلاله المصعد، ثم أغلقت الباب خلفها وتوجهت نحو دافني هيل: «هل تمّت كتابة أيّ شيء في رسالة الآنسة ويلسون؟».

«باشرت بها للتوّ».

«أحضريها إليَّ متى فرغت منها». عادت إليزابيث إلى مكتبها وأغلقت الباب وجلست إلى طاولتها. فرانك، راحت تفكّر، لا ليس فرانك، لو كان هو لألقى التحية أو فعل أيّ شيء، لم يتغير شكلي كثيراً. لو كان فرانك، فما الذي يفعله هنا؟ لا نفع من كلّ هذا، لا سبيل إلى العثور عليه.

أخذت دليل الهاتف من زاوية مكتبها وراحت تبحث عن اسم فرانك، لم يكن موجوداً، فمضت تبحث أكثر إلى أن وصلت حرف «هـ»، وراحت

تمرّر أصبعها إلى أن وقعت على هاريس، جيمس هاريس، فطلبت الرقم وانتظرت. حين طالعها صوت رجل، قالت: «هل أتكلّم مع جيم هاريس؟».

«نعم صحيح».

«معك إليزابيث ستايل».

«أهلاً»، قال. «كيف حالك؟».

«كنت أنتظر اتصالك بي. حصل ذلك منذ زمن طويل».

«نعم صحيح. لم يتسنَّ لي -».

«أتصل بك لسبب. هل تتذكر فرانك ديفيس؟».

«أتذكره. ما الذي يفعله في هذه الأيام؟».

«هذا ما أرغب بسؤالك عنه».

«أوه حسناً...».

انتظرت قليلاً، ثم أردفت: «سأدعوك يوماً إلى عشاء فاخر».

«سيسعدني ذلك. سأتصل بك».

لا، لا قالت لنفسها. «يبدو أن زمناً طويلاً مرّ لم نلتقِ فيه». وجعلت صوتها يبدو كما لو أن فكرة طرأت عليها، واحدة من تلك التي تلمع على نحو مفاجئ، «ولمَ لا نلتقي الليلة؟». شرع في قول شيء، إلّا أنها أردفت: «متشوقة جدّاً للقياك».

«أختي الصغرى جاءت لزيارتي»، قال.

«لتأتِ معك إذن، ألا تستطيع؟».

«حسناً، نعم يمكنها ذلك».

«جميل، تعالَ إلى شقتي بداية لنحتسي كأساً، وأحضر أختك، ولنا أن نحكي مطولاً عن الأيام الخوالي».

«دعيني أعاود الاتصال بك؟».

«سأغادر المكتب الآن»، قالت إليزابيث بحزم. «لديَّ الكثير من المشاغل هذه الظهيرة. لنلتقِ في السابعة؟».

«حسناً».

«سعيدة جدّاً بأنك ستتمكن من المجيء الليلة».

«أراك قريباً».

بعد أن أنهت المكالمة، أبقت يدها على الهاتف لدقيقة، تفكّر بهاريس الكبير الطيب، لم يكن له من خيار طالما أنني تكلّمت بسرعة؛ لا بدّ أنه عالق بكلّ الأعمال القذرة في المدينة. ضحكت راضية، وتوقفت في الحال حين سمعت دافني تقرع الباب، وقالت: «ادخلي»، فتحت دافني الباب بحذر وأطلّت برأسها.

«لقد أنهيت الرسالة آنسة ستايل».

«أحضريها»، قالت إليزابيث، ثم أضافت: «لو سمحت».

دخلت دافني وسلّمتها الرسالة قائلة: «ليست جيدة جدّاً. هذه أول رسالة أكتبها بنفسي».

تصفحت إليزابيث الرسالة قائلة: «لا يهمّ. اجلسي دافني».

جلست دافني بحذر على طرف الكرسي. «أسندي ظهرك»، قالت إليزابيث. «هذا الكرسي الوحيد الذي لديَّ ولا أريده أن ينكسر».

استوت دافني في جلستها وفتحت عينيها على اتساعهما.

فتحت إليزابيث حقيبتها بحذر وأخرجت منها علبة سجائر وراحت تبحث عن علبة الكبريت. «لحظة، لديَّ واحدة»، قالت دافني متحمسة، وأسرعت خارجة وعادت بعلبة كبريت: «احتفظي بها، لديَّ الكثير غيرها».

أشعلت إليزابيث سيجارتها ووضعت علبة الكبريت على طرف الطاولة.

«والآن»، قالت وانحنت دافني بجسمها مقتربة منها: «أين عملت من قبل؟».

«هذا عملي الأول، لقد وصلت إلى نيويورك منذ مدة وجيزة».

«جئت من أين؟».

«بوفالو».

«لقد أتيت إلى نيويورك لتجني ثروتك؟». سألتها إليزابيث وهي تفكّر، هذا مشابه لي يا عزيزتي دافني، وها قد حظيت بثروتي.

«لا أعرف. أبي جاء بنا إلى هنا لأن أخاه يريد أن يساعده في عمله. انتقلنا إلى هنا منذ شهرين لا أكثر».

لو كانت عائلتي معي لما اضطررت للعمل مع روبرت شاكس. «ما التعليم الذي تلقيته؟».

«درست الثانوية في بافالو. وداومت في مدرسة الاقتصاد والأعمال لفترة».

«ترغبين أن تصبحي كاتبة؟».

«لا. أريد أن أصبح وكيلة مثلك والسيد شاكس».

«إنه عمل جيد، يمكنك أن تجني الكثير من المال منه»، قالت إليزابيث.

«هذا ما قاله السيد شاكس. كان بمنتهى اللطف بشرحه ذلك».

أصبحت دافني أكثر جرأة، باتت تنظر في عيني إليزابيث، وارتاحت في جلستها.

«كنا نتحدث عنك أنا والسيد شاكس وقت الغداء»، قالت إليزابيث بتأنٍّ.

ابتسمت دافني. وتوصّلت إليزابيث إلى أن دافني حين تبتسم وتجلس من دون أن يظهر جسمها الضخم الذي يعوزه الاتساق مع قدميها الصغيرتين، تبدو جذابة. لا بل جذابة جدّاً رغم عينيها العسليتين الصغيرتين وشعرها المنفوش العجيب. أنا نحيفة جدّاً. قالت إليزابيث بلطف: «أعتقد أنه يجب إعادة كتابة رسالة الآنسة ويلسون».

«بالتأكيد»، قالت دافني.

«أخبريها أن تعود إلى العمل في أسرع ما يمكنها».

«تعود إلى هنا؟». سألت دافني وقد بدت عليها أولى سمات القلق.

«نعم هنا»، قالت إليزابيث مبتسمة: «أخشى أن السيد شاكس لم يمتلك الشجاعة ليقول لك، إننا عدا عن كوننا شركاء في العمل، فإننا أصدقاء مقرّبون، وهو على الدوام يتخذ من تلك الصداقة سبيلاً لكي أتولّى هذه المهام البغيضة».

«لم يخبرني السيد شاكس أيّ شيء بهذا الخصوص»، قالت دافني.

«ليس عليه أن يفعل»، قالت إليزابيث. «طالما أنني رأيت كيف باشرت العمل كما لو أنك ستبقين».

بدا الخوف على دافني. وصارت إليزابيث ترى أنها غبية جدّاً إذا بكت، لكنها ستحظى بشرح وافٍ لكلّ شيء، وواصلت القول: «من الطبيعي ألّا

أرغب بفعل ذلك. ربما أستطيع أن أسهّل الأمر بأن أساعدك في الحصول على عمل آخر».

هزّت دافني رأسها.

«هذا قد يساعدك، لأن السيد شاكس أشار إلى مظهرك، وهذا أمر فائق الأهمية بالنسبة للرجال».

نظرت دافني إلى ثوبها.

«ربما أنت مدركة لذلك، ومن الوقاحة أن أعلّق عليه، أعتقد أن أيّ عمل قد تحصلين عليه ستعطين انطباعاً أفضل، وستعملين براحة أكبر إذا ارتديت شيئاً مناسباً بدل هذا الثوب الحريري. هذا سيظهرك، بعض الشيء، كما لو أنك وصلت للتوّ من بافالو».

«تريدين مني أن أرتدي بدلة أو شيئاً من هذا القبيل؟».

سألت دافني بتروٍّ خالٍ من الغلّ.

«هنداماً أهدأ، على أية حال»، قالت إليزابيث.

طالعت دافني إليزابيث من رأسها إلى الأسفل: «بدلة مثل التي ترتدينها».

«البدلة ستكون مناسبة، وحاولي أن تمشطي شعرك بحيث ينسدل».

تحسّست دافني أعلى رأسها برقة.

«حاولي أن تكوني أكثر ترتيباً. لديك شعر جميل يا دافني، لكنه سيبدو مناسباً للمكتب لو صففته برصانة».

«مثل تصفيفة شعرك؟». سألتها دافني وهي تنظر إلى الشيب في شعر إليزابيث.

«بصراحة، لئلّا يبدو مثل المكنسة». وعادت إليزابيث للتركيز على ما على طاولتها، ولتنهض دافني: «خذي هذه معك وأعيدي كتابتها كما أخبرتك». وأعطتها رسالة الآنسة ويلسون.

«سأفعل آنسة ستايل».

«يمكنك الذهاب إلى البيت بعد أن تفرغي منها. اتركيها على طاولتك مع اسمك وعنوانك، وسيرسل إليك السيد شاكس دفعة على دوامك اليوم».

«لا يهمني سواء فعل أم لم يفعل»، قالت دافني بنبرة مفاجئة.

نظرت إلزابيث إلى دافني وحدّقت إليها ملياً: «وهل تعتقدين أنك تمتلكين الحق بانتقاد السيد شاكس؟».

لازمت إليزابيث لدقائق مكتبها منتظرة ما الذي ستفعله دافني؛ فقد ساد صمت ثقيل بعد أن خرجت موصدة الباب خلفها بهدوء، وتوجّهت إلى طاولتها. لا بدّ أنها جالسة إلى طاولتها تقلّب في ذهنها ما قلت، فكّرت إليزابيث، ولتسمع بعدئذٍ صوتاً يشي بفتح دافني حقيبتها، ونبش يدها لما فيها بحثاً عن مفتاح أو ورقة؛ لقد أخرجت مرآتها، لترى ما إذا قلته لها عن مظهرها صحيح؛ وهي تتساءل الآن ما إذا كان روبي قال شيئاً بهذا الخصوص، وكيف قاله، وما إذا قمت بتلطيف ما قاله أم زدت عليه. كان يجب قول إنه وصفها بالخنزيرة البدينة، أو أنها أقبح ما رأى؛ لربما لما أتيح لها أن تقلّب ذلك في رأسها. ما الذي تفعله الآن؟

قالت دافني: «اللعنة» بوضوح تامّ؛ أحنت إليزابيث جذعها وهي في كرسيّها، ساعية لئلّا تفوّت أيّ شيء مما تفعله. بعدئذٍ جاء صوت الآلة الكاتبة خفيفاً. هزّت إليزابيث رأسها هزّات خفيفة وضحكت، ثم أشعلت سيجارة بعود ثقاب من علبة دافني التي ما زالت على طرف الطاولة، ونظرت بشرود إلى رسالة السيد بيرتون التي ما زالت في الآلة الكاتبة، وذراعها مثنية فوق رأسها أعلى الكرسي والسيجارة في فمها، وهي تنقر على الآلة الكاتبة ببطء وبإصبع واحدة: «ألا اللعنة على بيرتون»، مزّقت الورقة ورمت بها في سلّة المهملات. هذا جزء يسير من عمل اليوم، ليس مهمّاً أمام مطالعتي وجه دافني بعد أن قلت لها ما قلت. نظرت إلى مكتبها، حيث الرسائل التي تنتظر الردّ، وآراء المحرّر النقدية التي يجب كتابتها، والشكاوى التي تتطلب حلولاً. لا يهمّ، سأذهب إلى البيت، وأستحم وأنظف الشقة، وأشتري بعض الأغراض لجيم وأخته؛ سأنتظر فقط لحين مغادرة دافني.

«دافني؟». نادت.

بعد تردّد: «نعم آنسة ستايل؟».

«ألم تنتهي بعد؟». قالت إليزابيث، بمقدورها التحدث بلطف الآن: «رسالة الآنسة ويلسون يجب ألّا تستغرق أكثر من دقيقة».

«فقط أستعدّ للخروج».

«لا تنسَيْ أن تتركي اسمك وعنوانك».

عمّ الصمت، فرفعت إليزابيث صوتها مخاطبة بابها الموصد: «هل سمعتني؟».

«يعرف السيد شاكس اسمي وعنواني». فتحت دافني الباب الخارجي وقالت: «وداعاً».

«وداعاً»، قالت إليزابيث.

نزلت من التاكسي عند ناصية الشارع، وبعد أن دفعت للسائق، بقي معها عشرة دولارات وبعض الفكّة في حقيبتها، ولديها عشرون دولاراً في الشقة، وكان ذلك كلّ ما لديها من مال، لحين أن تطلب من روبي المزيد. قامت بحسبة سريعة، وقرّرت تخصيص عشرة دولارات مما لديها في الشقة لأمسيتها؛ جيم هاريس سيتولّى أمر العشاء؛ عشرة دولارات، إذن، للتاكسي وأيّ شيء طارئ؛ ستطلب من روبي غداً المزيد. العشرة التي في حقيبتها للمشروب والكوكتيل. مرّت بمتجر الكحول واشترت قنينة ويسكي 750 ميللتر، ليبقى منها ما تقدمه لروبي حين يزروها. ثم مضت إلى البقالة والقنينة تحت ذراعها واشترت بيرة الزنجبيل، واختارت متردّدة كيساً من رقائق البطاطا وعلبة من المقرمشات ومسحوق كبدة يدهن عليها.

لم تكن معتادة على المرح، فهي تُمضي أماسيّها رفقة روبي بهدوء، ونادراً ما يقابلان أناساً آخرين عدا زبون طارئ، وأحياناً يدعوهما صديق قديم إلى مكان ما. ولأنهما غير متزوجين فإن روبي يمتنع عن الذهاب إلى أيّ مكان يسبّب وجودها إحراجاً لها. يأكلان وجباتهما في مطاعم صغيرة، ويحتسيان الكحول مرات قليلة في البيت أو في حانة منزوية، ويشاهدان أفلاماً في سينما قريبة. حين تدعو إليزابيث أناساً لزيارتها لا يتواجد روبي؛ أقاما مرة حفلة في شقة روبي الوسيعة للاحتفال بمناسبة عظيمة، ربما للاحتفال بزبون ذي شأن، إلّا أن الحفلة كانت بائسة جدّاً لم تسرّ الضيوف، بحيث إنهما ما عادا إلى إقامة حفلة أخرى، ولم تتمَّ دعوتهما إلّا إلى حفلة أو اثنتين.

وعليه فإن قولها: «تعالَ لاحتساء كأس»، بمنتهى الأريحية، يقابله قلق تام حين تتمّ تلبية الدعوة بحقّ. وبينما كانت تصعد السلّم إلى شقّتها، كانت تزداد قلقاً وهي تحمل مشترياتها، قلقاً من احتساء المشروب، وتقديم المقرمشات، وأخذ المعاطف.

صدمها مظهر غرفتها، فقد نسيت أنها غادرتها مسرعة صباحاً وتركت الأشياء مبعثرة، كما أن الشقة خُلقت وصُممت لإليزابيث وحدها، أي لمن تغادر وهي على عجلة من أمرها كلّ صباح، لشابة ليست تعيسة ويائسة فقط، بل بقدرات محدودة أو معدومة إن تعلّق الأمر بتوضيب الأشياء وتشذيبها، شقة للأماسي البغيضة بكرسي واحد وكتاب واحد ومنفضة واحدة، لليالٍ تنقضي بالحلم بعشب دافئ وشمس وضاءة. لم يكن ممكناً ترتيب تلك الأغراض بما يتيح لقاء لطيفاً بجمع ثلاثة أشخاص أو أربعة، والجلوس بأريحية وتبادل الحديث مع كؤوس بالأيادي. مع أول المساء، وضوء واحد منار والظلال تحتل الزوايا، بدت الشقة حميمة ولطيفة، لكن إن جلست على الكرسي الوحيد أو أمسكت خشب طاولة السفرة الرمادية الذي يبدو ملمّعاً، ستلحظ أن الكرسي قاسٍ من النوع الرخيص، وأن طلاء الطاولة مقشّر.

وقفت إليزابيث لدقيقة عند غرة باب شقتها تتأمّلها لدقيقة وهي ما تزال تحمل مشترياتها، محاولة استخلاص ما بمقدروها فعله لتحسينها وتلطيفها، لكنها سمعت وقع أقدام نازلة على السلّم فدلفت وأغلقت الباب، من دون أن تخلص إلى رؤية واضحة وقد وطأت قدماها الأرضية الباهتة، وآثار أصابع بادية على مقبض الباب من الداخل. توصلت إلى أنها آثار روبي.

فتحت الباب الزجاجي الذي يفصل المطبخ ووضعت أغراضها فيه، المطبخ الذي يتخذ جداراً واحداً من جدران الشقة، متضمناً موقداً صغيراً فوقه خزانة، وإلى جانبه مغسلة استقرت الثلاجة تحتها، وفوق المغسلة رفّان يحتويان: صحنين، وفنجانين مع صحنيهما، وأربع كؤوس، كما أن لديها طنجرة صغيرة، ومقلاة، وغلّاية قهوة. لقد اشترت منذ سنوات كلّ أثاث بيتها الصغير من متاجر كلّ شيء بخمسة أو عشرة سنتات، بحيث يكون أن لديها مطبخ صغير لا يعوزه شيء، يتيح لها إعداد طبخات صغيرة لها ولروبي، أو خبز فطيرة صغيرة أو بعض الكعك، مرتدية مريولاً أصفر، مرتكبة أخطاء

مضحكة في البداية. جاءت إلى نيويورك طبّاخة لا تعوزها المهارة، وقادرة على قلي البطاطا وأضلاع اللحم، لكنها وعلى مرّ السنين تساقطت معارفها بالطبخ وهي بقرب موقد حقيقي، باستثناء إعدادها حلوى «الفدج» التي تدلّل نفسها بها أحياناً. كان الطبخ مثل أشياء أخرى تعلّمتها، معرفة لائقة وشريفة تفضي بها إلى أن تكون امرأة مؤهلة وسعيدة (كانت أمها تردّد جادة: الطريق إلى قلب الرجل بطنه)، والتي، في سياق حياتها اليومية، غارت واستحالت إلى شيء طفيف له أن يكون نافعاً من باب التجديد أو في المناسبات النادرة.

أنزلت الكؤوس الأربع وغسلتها؛ كانت مغبرّة جرّاء عدم استخدامها لوقت طويل وهي على الرفّ المكشوف. تفقدت الثلاجة. اعتادت وضع الزبدة والبيض فيها، والخبز والقهوة في الخزانة، إلّا أنها تعفّنت وزنخت من دون أن تصنع منها فطوراً واحداً؛ فهي غالباً ما تكون مستعجلة ومن النادر جدّاً أن تحظى بوقت كافٍ لفطورها.

إنها الرابعة والنصف، لديها الوقت لترتّب الأشياء وتستحمّ وتلبس. تولّت بداية الأشياء السهلة في الشقة؛ نفضت الغبار عن الطاولات وأفرغت منفضة السجائر. فرغت من نفض الغبار وراحت ترتّب سريرها وغطاءه وتمسّده. أغراها أن ترفع البسط الثلاثة الصغيرة عن الأرض وتقوم بنفضها وتقوم بشطف الأرضية بعدئذٍ، إلّا أن نظرة منها إلى الحمام جعلتها تعدل عن ذلك، إذ لا بدّ لجيم وأخته أن يقصدا الحمام، والأرضية وحوض الاستحمام وحتى الجدران بحاجة ماسة للتنظيف. نظفت بمنفضة الغبار الأرضية بعد أن بلّلتها بالماء الساخن، ووضعت مناشف نظيفة من مخزون مناشفها القليل، وفتحت حنفية الحوض وعادت لتنهي الغرفة الكبيرة.

بعد كلّ شغلها الاعتباطي ظلّت الغرفة على حالها؛ رمادية ومنفّرة في ضوء عصر ماطر. فكّرت في أن تنزل وتشتري وروداً، لكنها توصّلت إلى أن هذا فوق طاقتها المالية؛ سيتواجدان لبعض الوقت في الغرفة على أية حال، ومع المشروب وشيء يؤكل فإن أيّ غرفة يجب أن تبدو أليفة.

شارفت الساعة السادسة حين انتهت من حمامها، وكانت العتمة حلّت بما يكفي لإنارة الضوء على الطاولة. اجتازت الغرفة حافية، وهي تشعر

بالنظافة والتجديد، مشغولة بشعرها الذي تموج قليلاً من المياه الساخنة، وبالعطر الذي ستضعه. مع الإحساس بالنظافة جاءت الحماسة؛ ستنعم بالسعادة الليلة، ستنعم بالنجاح، شيء رائع سيحصل ويغيّر كلّ حياتها. وأتبعت إحساسها بتلك المشاعر بأن اختارت من الخزانة فستاناً خمريّاً من الحرير، ثوباً شبابيّاً، ولولا الشيب في شعرها لجعلها تبدو في العشرين وليس فوق الثلاثين. اختارت سلسلة ذهبية لتضعها، وقرّرت أن ترتدي معطفها الأسود الفاخر، سأرتديه حتى وإن كان الجوّ ماطراً، فهو يشعرني بالرضا.

توصلت بعد أن عاينت هذه الشقة بحرص، إلى أن لا سبيل لفعل أيّ شيء، لا وضع ستائر صفراء أو تعليق لوحات سيغيّر شيئاً. تحتاج إلى شقة جديدة، مكان لطيف مفتوح بنوافذ واسعة وأثاث غامق، تدخله الشمس طيلة النهار. ولتحصل على شقة جديدة فإنها بحاجة إلى المزيد من المال، وإلى عمل جديد، وسيساعدها في ذلك جيم هاريس؛ وعشاء الليلة سيكون الأول من بين عشاءات مثيرة كثيرة مقبلة، مما يوطّد صداقة رائعة تهبها عملاً وشقة مشمسة؛ وبينما كانت تخطط لحياتها الجديدة نسيت جيم هاريس، بوجهه الفظّ، وصوته الرفيع، إذ ثمة رجل غريب، رجل أسود شهم، بعينين بصيرتين، كان يراقبها في الغرفة، لقد كان عاشقاً لها، مأزوماً تماماً بحاجة لضوء الشمس، وحديقة دافئة، ومروج خضراء...

شركة قديمة جيدة

كانت السيدة كونكورد وابنتها هيلين، جالستين في غرفة المعيشة تخيطان، وتحاولان الحفاظ على دفئهما. وضعت هيلين من يديها الجورب الذي كانت ترتقه، ومضت إلى الباب المفضي إلى الحديقة. حين قالت: «أتمنى لو يحلّ الربيع سريعاً»، رنّ جرس الباب.

«يا إلهي»، قالت السيدة كونكورد: «هل هي الشركة! السجادة مغطاة بنثالات الخيوط». وانكبّت وهي على كرسيّها على جمع الأغراض المتناثرة حولها، بينما مضت هيلين لتجيب من يقرع الباب. فتحت الباب ووقفت مبتسمة، بينما أومأت المرأة أمامها بيدها وشرعت بالحديث بسرعة: «أنت هيلين؟ أنا السيدة فريدمان»، قالت: «أتمنّى ألّا أفرض نفسي عليكما، لكنني متلهفة جدّاً لألتقيك أنت ووالدتك».

«تشرفت بك، تفضلي بالدخول»، قالت هيلين وفتحت الباب على وسعه. دخلت السيدة فريدمان. كانت ضئيلة الحجم وسمراء، ترتدي معطفاً فارهاً من معاطف النمر: «هل أمّك في البيت؟». سألت بمجرد خروج السيدة كونكورد من غرفة المعيشة.

«أنا السيدة كونكورد»، قالت والدة هيلين.

«أنا السيدة فريدمان، والدة بوب فريدمان».

كرّرت السيدة كونكورد: «بوب فريدمان».

ابتسمت السيدة فريدمان مبدية أسفها. «كنت على ثقة بأن ابنك قد مرّ على ذكر بوبي».

«بالطبع»، قالت هيلين منقذة الموقف. «إنه من يكتب عنه تشارلي دائماً يا أمي. من الصعب أن تربط بينهما، لكون تشارلي بعيداً جدّاً».

هزّت السيدة كونكورد رأسها، وقالت: «طبعاً. تفضلي بالدخول؟».

تبعتهما السيدة فريدمان إلى غرفة المعيشة وجلست على كرسيّ خلا من أغراض الخياطة. أشارت السيدة كونكورد إلى الغرفة حولها وقالت: «يا لها من فوضى»، وأردفت: «نحصل أنا وهيلين بين الفينة والأخرى على عمل وننجزه. هذه ستائر مطبخ»، وراحت تلتقط أغراضاً كانت تعمل بها.

«جميل جدّاً»، قالت السيدة فريدمان بتهذيب شديد.

«حسناً، ما هي أخبار ابنك»، قالت السيدة كونكورد، وأسهبت: «من المذهل ألّا أتبين الاسم في الحال، ربما لأن بوب فريدمان يرتبط مع تشارلي والجيش، وبدا غريباً أن والدة صديقه هنا في المدينة».

ضحكت السيدة فريدمان: «هذا تماماً ما أحسست به. كتب لي بوبي قائلاً إن بيت والدة صديقه هنا على بعد بضعة مبانٍ، فلماذا لا أمرّ وألقي التحية».

«يسعدني جدّاً أنك فعلت»، قالت السيدة كونكورد.

«أعتقد أننا نعرف الكثير عن بوب وبقدر ما تعرفين عنه الآن. تشارلي يكتب لنا عنه دائماً». قالت هيلين.

فتحت السيدة فريدمان حقيبتها: «حتى إنني تلقيت رسالة من تشارلي. أظنّ أنك ترغبين في الاطلاع عليها».

«هل تشارلز يراسلك؟». سألت السيدة كونكورد.

«رسالة واحدة فقط. أحبّ تبغ الغليون الذي أرسلته إلى بوبي، فأرسلت إليه علبة منه في آخر طرد أرسلته إلى بوبي». أعطت الرسالة إلى السيدة كونكورد وقالت لهيلين: «أتخيّل أنني أعرف الكثير عنكما، بوبي أخبرني الكثير».

«حسناً»، قالت هيلين: «أعرف أن بوب أحضر إليك سيفاً يابانيّاً في عيد الميلاد. لا بدّ أنه بدا جميلاً تحت الشجرة. تشارلي ساعده في شرائه من فتى ياباني – هل سمعت عن ذلك، وكيف أنهما كانا على وشك الشجار مع الفتى؟».

«بوبي كان على وشك الشجار. تشارلي كان حاذقاً ونأى بنفسه عنه». قالت السيدة فريدمان.

«نحن وصلَنا أن تشارلي من تسبب بالمشكلة»، قالت هيلين، وراحت تضحك هي والسيدة فريدمان.

«يجدر بنا ربما ألّا نقارن بين رسالتيهما، فعلى ما يبدو فإنهما غير متطابقين في سرد القصة ذاتها». قالت السيدة فريدمان، والتفتت إلى السيدة كونكورد التي انتهت من قراءة الرسالة وكانت تمرّرها لهيلين. «كنت أخبر ابنتك عن الأشياء الكثيرة المشرفة التي سمعتها عنك».

«ونحن أيضاً سمعنا الكثير عنك»، قالت السيدة كونكورد.

«تشارلي أرى بوب صورة لك ولابنتيك. نانسي هي الأصغر؟».

«نعم نانسي الصغرى».

«تشارلي يفكر كثيراً بعائلته». قالت السيدة فريدمان، وسألت هيلين: «أليس لطيفاً أن يراسلني؟».

«لا بدّ أن التبغ كان جيداً»، قالت هيلين، وتردّدت في إعادة الرسالة إلى السيدة فريدمان، التي بدورها أخذتها ووضعتها في حقيبتها.

«أحبّ أن ألتقي تشارلي. لقد أصبحت كما لو أني على معرفة وثيقة».

«لا بدّ أنه يرغب بلقائك عند عودته»، قالت السيدة كونكورد.

«أتمنّى ألّا يطول الأمر»، قالت السيدة فريدمان. غرق الثلاثة بالصمت ولتكسره السيدة فريدمان منعشة الجوّ بالقول: «غريب أن نكون في المدينة نفسها ولا نتعارف إلّا جراء أخذ أبنائنا بعيداً جدّاً».

«إنها مدينة شديدة القسوة ليتعارف الناس فيها»، قالت السيدة كونكورد.

تبسّمت السيدة كونكورد مبدية أسفها، «هل عشت هنا طويلاً؟ أولاد أختي في ثانوية زوجك وهم يتحدثون عنه بتبجيل كبير».

«حقّاً؟ لقد عاش زوجي كلّ حياته هنا، أما أنا فقد جئت من الغرب حين تزوجت».

«لم يكن صعباً عليك الاستقرار هنا وتكوين صداقات».

«لا لم أواجه صعوبات، ومن الطبيعي أن تكون أغلب صداقاتنا جاءت من ناحية زملاء زوجي في المدرسة».

«يؤسفني أن بوبي لم يحظَ بفرصة التعلم على يدي السيد كونكورد».

«حسناً...». نهضت السيدة فريدمان: «سرّني كثيراً لقاؤك أخيراً. «زيارتك أشبه برسالة من تشارلي».

«وجرّاء انتظاري رسائل بوبي، أستطيع معرفة مدى الترحيب الذي

تحظى به الرسالة». مضت السيدتان نحو الباب ونهضت هيلين لتلحق بهما. «زوجي مهتمّ جدّاً بتشارلي، منذ أن عرف أن تشارلي كان يدرس القانون عندما التحق بالجيش».

«هل زوجك محامٍ؟». سألت السيدة كونكورد.

«هو في غرنووالد، فرديمان آند وايت، ومتى أراد تشارلي بدء حياته المهنية، فإنه قد يجد له مكاناً فيها».

«هذا لطف فائق منك»، قالت السيدة كونكورد. وأردفت: «سيأسف تشارلي حين أخبره، فقد رتّب أمر عمله مع تشارلز ساترثويت، أقدم أصدقاء زوجي، بحيث ينضم إلى ساترثويت آند هاريس».

«أعتقد أن السيد فريدمان يعرف هذه الشركة»، قالت السيدة فريدمان.

«شركة قديمة جيدة. جدّ السيد كونكورد كان شريكاً فيها».

«أوصلي تحياتنا إلى بوب حين تكتبين له»، قالت هيلين.

«سأفعل. وسأخبره عن لقائي بكما». وصافحت السيدة كونكورد قائلة: «فرصة سعيدة».

«سرّني لقاؤك»، قالت السيدة كونكورد.

«أخبري تشارلي بأنني سأرسل إليه مزيداً من التبغ»، قالت السيدة فريدمان لهيلين.

«بالتأكيد سأفعل».

«وداعاً إذن»، قالت السيدة فريدمان.

«وداعاً»، قالت السيدة كونكورد.

الدمية

لقد كان مطعماً محترماً، أنيقاً مع «شيف» جيد وثلة من المؤدين والراقصين والكوميديين؛ ومن يقصدونه يضحكون ويأكلون جيداً، مقدّرين مبدأ أن الزيادة القليلة على ما يدفعونه هي للمطعم وللترفيه والصحبة الضرورية؛ إنه مطعم محترم ومحبّب، يمكن أن تقصده امرأتان وحدهما بمنتهى اللباقة وتناول عشاء لطيف ومثير. حين نزلت بصمت السيدة ويلكنس والسيدة سترو سلّمه المكسوّ بالسجاد ماضيتين إلى داخل المطعم، لم يرفع أيّ من النُّدل رأسه سوى مرة واحدة، والتفت إليهما بعض الزبائن، ثم جاء كبير النُّدل بهدوء وانحنى بودّ قبل أن يلتفت إلى القاعة، ويضع طاولات شاغرة بعيدة في المؤخرة.

«أليس، هل تمانعين إن كنا بعيدين عن كلّ شيء؟». قالت السيدة ويلكنس، صاحبة الدعوة، إلى السيدة سترو: «يمكننا أن ننتظر أن تشغر طاولة، إن رغبت، أو أن نقصد مكاناً آخر».

«لا أبداً». السيدة سترو امرأة ضخمة ترتدي قبعة ثقيلة بأزهار، ونظرت نظرة إعجاب إلى أصناف العشاء المقدّمة على الطاولات القريبة منها. «لا يهمّني أين نجلس؛ إنه مكان جميل».

«أيّ مكان سيفي بالغرض»، قالت السيدة ويلكنس لكبير الندل. «ليس بعيداً جدّاً إن أمكن».

أنصت كبير النُّدل باهتمام كبير وهزّ رأسه، وخطا برشاقة بين الطاولات إلى واحدة بعيدة جدّاً، قرب المدخل الذي يدخل ويخرج منه الفنانون، وحيث تجلس السيدة مالكة المطعم تشرب البيرة قرب باب المطبخ. «ما من طاولة أقرب؟»، قالت السيدة ويلكنس، عابسة في وجهه.

انكمش كبير النُّدل وأشار إلى الطاولات الشاغرة الأخرى. طاولة خلف صندوق البريد، وأخرى كبيرة مخصصة للحفلات، وثالثة تقع تقريباً خلف الفرقة الموسيقية الصغيرة.

«ستكون هذه لطيفة جين. سنجلس هنا». قالت السيدة سترو. تردّدت السيدة ويلكنس، إلّا أن صديقتها سحبت كرسيّاً وجلست إلى الطاولة متنهدة، واضعة حقيبتها وقفازيها على كرسيّ إضافيّ بجانبها، وبدأت بفكّ أزرار معطفها.

«لن أستطيع القول إنها أعجبتني»، قالت السيدة ويلكنس، واتخذت الكرسيّ المقابل. «لا أعتقد أننا نستطيع رؤية شيء».

«بالطبع نستطيع رؤية كلّ ما يحدث»، قالت السيدة سترو. «وبالتأكيد نستطيع سماع كلّ شيء». وأنهت حديثها على مضض: «هل ترغبين بالجلوس مكاني؟».

«لا طبعاً أليس»، قالت السيدة ويلكنس، وأخذت قائمة الطعام من النادل، ووضعتها على الطاولة وقد مرّت عليها بناظريها سريعاً. «الطعام جيد جدّاً هنا».

«فخارة جمبري»، قالت السيدة سترو، «دجاج مقلي»، وتنهدت. «لا بدّ أنك جائعة».

طلبت السيدة ويلكنس من دون تلكؤ أو كلام زائد، ومضت تساعد السيدة سترو باختياراتها. حين ذهب النادل أعادت السيدة سترو جذعها إلى مسند الكرسي مريحة جسمها ثم رفعته في كرسيها لترى سائر المطعم، وقالت: «مكان لطيف».

«والأناس لطيفون جدّاً»، قالت السيدة ويلكنس. «مالكته تجلس خلفك، ولطالما بدت نظيفة ووقورة».

«تحرص على أن تغسل الكؤوس على الأرجح»، قالت السيدة سترو، والتقطت حقيبتها وأخرجت منها علبة السجائر وعلبة الثقاب، ووضعتهما على الطاولة. «أحبّ رؤية أمكنة تقدّم الطعام وتحافظ على جمالها ونظافتها».

«يجنون الكثير من المال»، قالت السيدة ويلكنس. «اعتدنا أن نأتي إليه

لسنوات مضت قبل أن يتوسع. لقد كان لطيفاً جداً حينها، لكنه اجتذب الآن فئة أفضل من الناس».

نظرت السيدة سترو إلى كوكتيل اللحوم الباردة الذي أصبح أمامها برضا تامّ، وقالت: «بالفعل هو كذلك».

أخذت السيدة ويلكنس شوكتها ببرود، مراقبة السيدة سترو. «تلقيت أمس رسالة من والتر».

«ماذا قال فيها؟».

«يبدو أنه جيد، وإن بدا أن أشياء كثيرة لم يخبرني بها».

بدأت الأوركسترا عزفها فجأة وبإيقاع عالٍ، وأعتمت الأضواء واستحالت إلى بقعة ضوء مسلطة على المسرح.

«أكره الأكل في العتمة»، قالت السيدة ويلكنس.

«سيأتينا ضوء كافٍ من تلك الأبواب في الخلف»، قالت السيدة سترو ووضعت شوكتها وراحت تشاهد الأوركسترا. وأردفت: «سينال المرتبة الأولى في صفّه. انظري إلى ثوب تلك الصبية».

التفت السيدة ويلكنس، مسترقة النظر إلى الصبية التي أشارت إليها السيدة سترو. جاءت من المدخل المفضي إلى غرف الفنانين والمؤدّين؛ كانت طويلة وشديدة السمرة، وشعرها أسود فاحماً وحاجباها سميكين، مرتدية ثوباً من ساتان أخضر فاتح ولامع، عليه وردة برتقالية وهّاجة على كتف من كتفيها. «لم أرَ ثوباً مثل هذا من قبل. لا بدّ أنها راقصة أو شيء من هذا القبيل».

«ليست جميلة جدّاً»، قالت السيدة سترو. «انظري إلى هذا الذي يرافقها!».

التفتت السيدة ويلكنس مجدّداً، وأعادت رأسها في الحال لتضحك. «يبدو أشبه بالقرد».

«بعض الشيء»، قالت السيدة سترو، «أكره هؤلاء الشقر المترهلين صغار الحجم».

«درجوا على تقديم عرض جميل هنا، موسيقا وراقصين، وأحياناً مغنٍّ يغني ما يطلبه الحضور. في إحدى المرات كان هناك عازف أرغن على ما أعتقد».

«ها هو عشاؤنا قد أتى»، قالت السيدة سترو. خفتت الموسيقا، ومايسترو الفرقة الذي يلعب دور عريف الحفل، قدّم الفقرة الأولى المخصصة للرقص. حين علا التصفيق، خرج من مدخل الفنانين رجل طويل وامرأة طويلة واتخذا طريقهما بين الطاولات إلى خشبة المسرح، ملتفتين بنظرات تقدير للشابة ذات الثوب الأخضر والرجل الذي برفقتها.

«أليسوا رشيقين؟». قالت السيدة ويلكنس حين بدأ الرقص. «هذا النوع من الراقصين فائق الجمال على الدوام».

«يجب الاهتمام برشاقتهم ووزنهم»، قالت السيدة سترو جازمةً. «انظري إلى قوام الفتاة ذات الرداء الأخضر».

التفتت السيدة ويلكنس مجدّداً. «أتمنى ألّا يكونا كوميديين».

«ليسا خفيفَي الظلّ الآن». قالت السيدة سترو. عاينت ما تبقى من الزبدة في صحنها. «في كلّ مرة أتناول فيها عشاء جيداً، أفكّر بوالتر والطعام الذي كان يأكله في المدرسة».

«يقول والتر في رسالته إن الطعام جيد، وإن وزنه زاد ما يقرب الثلاثة باوندات».

رفعت السيدة سترو ناظريها: «يا إلهي ما هذا؟ ملعّب دمى! نعم، نعم، هو».

«نعم لقد أصبح لهم شعبية كبيرة الآن». قالت السيدة ويلكنس.

«لم أرَ واحداً منهم منذ كنت صغيرة. لديه رجل صغير - ماذا يسمونه؟ في تلك العلبة هناك». واصلت السيدة سترو حديثها: «انظري إليه جين».

انحنت الفتاة ذات الرداء الأخضر على الطاولة، تراقب الدمية التي صارت في حضن الرجل. كانت نسخة خشبية غروتسكية[1] من الرجل - حيث لشقرة شعره، أن تكون شعراً شديد الصفرة على رأس الدمية، مع تجاعيد خشبية حريرية وسالفين؛ وكون الرجل ضئيلاً وبشعاً، فإن الدمية أشد ضآلة وبشاعة، بفم مماثل من حيث اتساعه، ولها العينان الساهمتان

1- Grotesque غروتسك: المصطلح الآتي من القرن الثامن عشر المتصل بكل ما هو فنتازي ومهيب، وصولاً إلى البشاعة والغرابة، لكنه يثير العواطف والمشاعر العميقة الدفينة أيضاً، كما هو نمط العمارة القوطية. المترجم.

ذاتهما، وبثياب تشبه ثياب السحرة إلى حدّ مريع بما في ذلك الحذاء الأسود الصغير.

«أتساءل كيف لهم أن يحظوا بملعّب دمى هنا» قالت السيدة ويلكنس.

الصبية ذات الرداء الأخضر التي كانت منحنية على الطاولة، سوّت ربطة عنق الدمية، ومسّدت معطفها عند الكتفين. وحين أعادت جسمها وأسندت ظهرها إلى الكرسي قال لها الرجل شيئاً، إلّا أنها أبدت عدم اكتراثها.

«لا أستطيع إبعاد عيني عن الثوب الأخضر»، بدأت السيدة سترو حديثها، فإذا بالنادل أمامها ومعه قائمة الطعام، وراح ينتظر ضجراً لما سيطلبانه من حلويات، وعيناه نحو الأوركسترا وهي تنهي عزفها قبل الفقرة التالية. وريثما قرّرت السيدة سترو أن تطلب فطيرة التفاح وآيس كريم الشوكولا قام عريف الحفل بتقديم ملعّب الدمية: «ومعكم الأشهر من نار على علم، ابن أبيه!».

«أتمنى ألّا تطول الفقرة. السماع من هنا متعذّر».

أصبح الرجل ودميته في دائرة الضوء، وكلاهما مكشّر عن أسنانه، يتحدثان بسرعة؛ وجه الرجل الأشقر المترهل إلى جانب الدمية المحدقة المكشّرة، وكتفاهما الأسودان بعضهما إلى جانب بعض. حوارهما سريع؛ والناس يضحكون من قلبهم، يضحكون قبل أن تفرغ الدمية من الكلام فهم على معرفة بأغلب النكات، يصغون بصمت لدقيقة ثم يندلع الضحك قبل أن تنتهي النكتة.

«أعتقد أنه مريع»، قالت السيدة ويلكنس للسيدة سترو أثناء واحدة من موجات الضحك: «دائماً ما يكونون ثقلاء الدم».

«انظري إلى صديقتك ذات الرداء الأخضر»، قالت السيدة سترو. كانت الفتاة مائلة إلى الأمام، تتابع بحماسة كلّ كلمة وعبارة. وسرعان ما خلا وجهها من الوجوم، وهي تضحك مع كلّ من يضحك، وتبرق عيناها. «تحسب أنه مضحك»، قالت السيدة سترو.

قرّبت السيدة ويلكنس بين كتفيها وهزّتهما وهجمت على الآيس كريم بتركيز شديد. ومضت تقول: «لماذا أمكنة كهذه تقدّم طعاماً جيداً، لا تلقى لديها اهتماماً بالحلويات، التي تقتصر دائماً على آيس كريم أو شيء آخر».

«لا شيء يضاهي الآيس كريم»، قالت السيدة سترو.

«تظنين أن لديهم شيئاً من الباستري أو البودينغ. لا يبدو أنهم يلقون بالاً لأصناف كهذه»، قالت السيدة ويلكنس.

«لم أرَ شيئاً يضاهي بودينغ التين والتمر الذي تعدينه يا جين»، قالت السيدة سترو.

«والتر يقول دائماً إنه الأفضل»، ولينقطع حديث السيدة ويلكنس بمعزوفة سريعة ومدوّية عزفتها الأوركسترا، بينما الرجل ينحني انحناءة كاملة والدمية تحني رأسها انحناءات سريعة متوالية، ولتبدأ الأوركسترا عزف مقطوعة راقصة، وليغادر الرجل ودميته المسرح.

«شكراً للآلهة»، قالت السيدة ويلكنس.

«لم أرَ شيئاً كهذا منذ سنوات»، قالت السيدة سترو.

نهضت ذات الرداء الأخضر عن كرسيّها بانتظار عودة الرجل ودميته إلى الطاولة. ارتمى الرجل على كرسيّه، وأبقى الدمية في حضنه، وعادت هي إلى الجلوس على حافة كرسيّها، وهي تسأله شيئاً ملحّاً.

«ما رأيك؟». قال بصوت عالٍ، من دون أن ينظر إليها. لوّح للنادل، الذي تردّد وهو ينظر إلى طاولة مالكة المطعم القابعة خلفه. جاء النادل إلى الرجل بعد دقيقة، وعلا صوت الفتاة فوق مقطوعة الفالس الرقيقة التي كانت الأوركسترا تعزفها، «لا تشرب أيّ شيء جووي، سنمضي إلى مكان آخر ونأكل».

كلّم الرجل النادل، متجاهلاً يد الفتاة على ذراعه. التفت إلى الدمية، مكلّماً إياها برقة، فالتفتت الدمية بوجهها إلى الفتاة وتكشيرة عريضة عليه، ثم نظرت إلى الرجل. أسندت الفتاة ظهرها إلى الكرسيّ، وهي تسترق النظر إلى صاحبة المطعم.

«أكره أن أكون متزوجة من رجل مثله»، قالت السيدة سترو.

«لا بدّ أنه كوميدي رديء»، قالت السيدة ويلكنس.

عادت الفتاة لتستند إلى الطاولة، وهي تجادله، بينما الرجل يحادث الدمية، جاعلاً إياها تهزّ رأسها موافقة. وحين وضعت الفتاة يدها على كتف الرجل، انكمش وأبعدها من دون أن يلتفت إليها. ارتفع صوت الصبية مجدّداً، «اسمعني يا جووي».

«أعطني دقيقة، أريد أن أحتسي كأساً واحدة فقط». قال الرجل.

«نعم، دعيه وشأنه، ممكن؟». قالت الدمية.

«لا حاجة لك بكأس أخرى يا جووي، يمكن أن تشربه لاحقاً».

«افهميني حبيبتي، لقد طلبت كأساً، ولا أستطيع أن أغادر قبل أن تأتي»، قال الرجل.

«هل لك أن تخرسي يا بلهاء؟ دائماً ما تتأفّفين حين ترين أحداً يستمتع بوقته. لماذا لا تطلب منها أن تصمت؟». قالت الدمية.

«لا تتكلّمي هكذا، ليس لطيفاً أن تفعلي»، قال الرجل للدمية.

«أريد أن أتكلّم متى أشاء، ولا تستطيع إيقافي»، قالت الدمية.

«جـووي، أريـد التحدث معك. اسمعني، لنمضِ إلى مكان آخر ونتحدث»، قالت الفتاة.

«هلّا خرستِ لدقيقة كرمى للرب؟». قالت الدمية للفتاة.

بدأ الناس في الطاولات المجاورة الالتفات نحوهما، مبدين اهتمامهم بصوت الدمية العالي، وقد بات يضحكهم. «رجاء حافظ على الهدوء»، قالت الفتاة.

«صحيح، توقّفي عن التسبّب بالمشاكل»، قال الرجل للدمية. «سأشرب كأساً واحدة. وهي لا تمانع».

«لن يحضر الكأس»، قالت الفتاة وقد نفد صبرها. «لقد قالوا له ألّا يفعل. لن يقدموا لك كأساً، وأنت تؤدين على هذه الشاكلة».

«أؤدّي بشكل جيد»، قال الرجل.

«أنا من يتسبّب بالمشاكل. لقد حان الوقت لأقول لك يا حلوة، بأنك ستكونين في ورطة جرّاء لعبك دور المقت والتنغيص طيلة الوقت. للرجل ألّا يحتمل ذلك إلى الأبد»، قالت الدمية.

«اهدأ»، قالت الفتاة وهي تتلفّت حولها: «الجميع يسمعونك».

«ليسمعوا»، قالت الدمية، والتفتت بتكشيرتها نحو الحضور ورفعت صوتها: «فقط لأن رجلاً يريد الاستمتاع بوقته تشنّجت وتجمّدت مثل حافظة ثلج».

«من الأفضل الآن يا مارماديوك أن تتكلّم بلباقة أكثر مع أمك العجوز»، قال الرجل للدمية.

«لماذا، هل ما قلته لهذه القبيحة غير صحيح. إن لم يعجبها فيمكنها العودة إلى الشارع».

فتحت السيدة ويلكنس فمها، ثم أغلقته؛ وضعت منديلها على الطاولة ونهضت، ثم توجّهت إلى الطاولة المجاورة والسيدة سترو تراقبها بلا اكتراث، وقامت بصفع الدمية بقوة على وجهها.

وفي الوقت الذي استغرقته في العودة إلى طاولتها كانت السيدة سترو قد ارتدت معطفها واقفةً.

«سندفع ونحن خارجتين»، قالت السيدة ويلكنس جازمةً وأخذت معطفها، ومضتا بوقار إلى الباب. ظلّ الرجل والفتاة لدقيقة محدقين بالدمية ورأسها يتمايل يمنة ويسرة، لقد أصبح رأسها منحرفاً، فإذا بالفتاة تمسك بها وتقوّم الرأس الخشبي.

سبعة أنماط من الغموض[1]

لقبوِ المكتبة أن يتبدّى هائلاً، ولأرفف الكتب الطويلة أن تترامى لا حدود لها سوى العتمة، وقد اصطفّت الكتب في خزن طويلة تغطي الجدران، بينما تكوّمت أكداس من الكتب على الأرض. عند عتبة السلّم اللولبي النازل من القسم العلوي الصغير والأنيق من المكتبة، تقبع الطاولة الصغيرة لمالك المكتبة ومسؤول المبيعات فيها السيد هاريس، وقد تبعثرت عليها الكاتالوغات، وأنيرت بمصباح مغبرّ نازل من الأعلى، وليتولّى المصباح ذاته إنارة الأرفف المحتشدة بالكتب من حول طاولة السيد هاريس، وعلى امتداد الطاولات التي تجمعت عليها الكتب، كان هناك مزيد من المصابيح النازلة من الأعلى التي تضاء بشريط يسحب، وتنطفئ حين يشقّ الزبون طريقه عائداً إلى طاولة السيد هاريس، ليدفع ثمن ما اشتراه ويحظى بالكتب. لدى السيد هاريس الذي يعرف موضع كلّ كتاب أو عنوان متواجد على الأرفف المثقلة، زبون واحد، إنه فتى في الثامنة عشرة من عمره، يقف بعيداً في الغرفة الطويلة مباشرة تحت واحدٍ من تلك المصابيح، يتصفّح كتاباً اختاره من الرفوف. الجوّ بارد في هذا القبو المترامي، وكلاهما الفتى والسيد هاريس يرتديان معطفيهما، ولهذا الأخير أن يقوم بين الفينة والأخرى ملقّماً المدفأة المعدنية الصغيرة الماثلة عند منحنى السلّم، مقدار رفش من الفحم، وهكذا فإن الهدوء يهيمن على المكان ما لم يقم السيد هاريس عن كرسيّه أو يعيد الفتى كتاباً إلى الرفّ ليأخذ آخر، فقد كانت الكتب صامتة في الضوء الشحيح.

1- Seven Types of Ambiguity كتاب وليم أمبسون المفصلي في تاريخ النقد الأدبي الإنجليزي. وقد صدرت طبعته الأولى عام 1930. صدر بالعربية عن المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة عام 2000 بترجمة صبري محمد حسن عبد النبي. المترجم

ثمّ تشتّت شمل الصمت مع صوت فتح باب المكتبة الصغيرة في الأعلى، حيث يحتفظ بالكتب الأكثر مبيعاً والكتب الفنية معروضة. تدفّقت أصوات بشرية بينما كان السيد هاريس والفتى ينصتان، ثم قالت الفتاة التي تدير القسم الأعلى: «هناك في أسفل السلّم يتواجد السيد هاريس وسيساعدكما».

نهض السيد هاريس وتوجّه نحو عتبة السلّم، مضيئاً المصباح في رأسه بما سيتيح للزبون الجديد رؤية طريقه إلى الأسفل. أعاد الفتى كتابه إلى الأرفف ويده ما زالت على كعب الكتاب، وهو يصيخ السمع.

حين تبيّن السيد هاريس أنها امرأة في طريقها إلى الأسفل، تراجع بتهذيب وقال: «انتبهي إلى الدرجة الأخيرة. هناك درجة أخرى لا يتبيّنها الناس عادة». خطت المرأة بحذر ووصلت إلى الأسفل وراحت تنظر حولها. وبينما هي واقفة هناك ظهر رجل عند التفافة السلّم، محنياً رأسه لئلّا تلامس قبعته السقف الواطئ. «انتبه إلى الدرجة الأخيرة»، قالت المرأة بصوت واضح رقيق. التحق بها الرجل رافعاً رأسه وراح ينظر كما فعلتْ.

«لديك الكثير من الكتب هنا»، قال.

ابتسم السيد هاري ابتسامة احترافية: «كيف لي أن أساعدك؟».

نظرت المرأة إلى الرجل، وليقول هذا الأخير بعد تردّد دام بعض الوقت: «نريد الحصول على بعض الكتب. العديد منها». ملوّحاً بيده بعزم: «مجموعات من الكتب».

«حسناً، طالما أن الكتب ما تريده»، قال السيد هاريس، وابتسم مجدّداً. «ربما ترغب السيدة أن تجلس؟». ومضى يقودها حول طاولته، وهمّت المرأة بلحاقه بينما مشى الرجل بصعوبة بين الطاولات وهو خائف من أن يكسر شيئاً. أعطى السيد هاريس كرسيّ طاولته للسيدة وجلس إلى طرف الطاولة بعد أن أبعد كومة من «الكاتالوغات».

«هذا مكان مثير للاهتمام»، قالت السيدة بصوتها الرقيق ذاته الذي نطقت به من قبل. كانت في منتصف العمر وترتدي ثياباً جميلة، وجميعها جديدة تماماً، لكنها متناسبة مع عمرها ومسحة الخجل على وجهها. كان

الرجل ضخماً وودوداً، وقد احمرّ وجهه جرّاء الهواء البارد، ويداه الكبيرتان تضيقان ذرعاً بحمل زوج قفازات صوفي.

«نرغب بأن نشتري بعضاً من كتبك»، قال الرجل. «بعض الكتب الجيدة».

«هل من عناوين محدّدة؟». سأل السيد هاريس.

ضحك الرجل ضحكة عالية، مترافقة بالإحراج. «أخبرني الحقيقة»، قال: «أبدو لك الآن أحمق، لكنني لا أعرف كثيراً عن هذه الأشياء، أي الكتب». بدأ يتردّد صدى صوته في المخزن الكبير الهادئ، بعد صوت زوجته الرقيق وصوت السيد هاريس. «نرغب أن تسدي لنا النصح بهذا الخصوص. لا نريد شيئاً من الزبالة التي يصدرونها في أيامنا هذه». نحنح صوته قائلاً: «شيء مثل ديكنز».

«ديكنز»، قال السيد هاريس.

«درجت على قراءته حين كنت صغيراً»، قال الرجل. «كتب مثل هذه الآن، كتب جيدة». رفع ناظريه باتجاه الفتى الذي كان واقفاً بين الكتب وهو يلتحق بهم. «أرغب بقراءة ديكنز مجدّداً»، قال الرجل الضخم.

«سيد هاريس»، سأل الفتى بهدوء.

رفع السيد هاريس ناظريه: «نعم سيد كلارك؟». قال.

اقترب كلارك من الطاولة، كما لو أنه لا يريد مقاطعة حديث السيد هاريس مع زبونيه. «أرغب بإلقاء نظرة أخرى على أمبسون»، قال.

استدار السيد هاريس نحو خزانة ببابين زجاجيين تقع خلفه مباشرة واستخلص كتاباً. «ها هو»، قال: «على هذا المنوال ستنتهي من قراءته قبل أن تشتريه». ابتسم للرجل الضخم وزوجته وأضاف: «سيأتي يوم ويدخل عليّ ليشتري الكتاب، وحينها سأترك العمل من هول الصدمة».

ابتعد الفتى حاملاً الكتاب، وانحنى الرجل الضخم عابساً نحو السيد هاريس. «أرغب بمجموعتين جيدتين، كبيرتين، مثل ديكنز، وبعض من مجموعات أصغر». قال.

«ونسخة من جين آير»، قالت زوجته بصوتها الرقيق.

«كنت أحبّ هذا الكتاب»، قالت للسيد هاريس.

«أستطيع أن أوفر لك مجموعة لطيفة من أعمال الأخوات برونتي[1] مجلدة تجليداً جلديّاً جميلاً»، قال السيد هاريس.

«أريد أن تكون بمظهر جميل، ومتين أيضاً من أجل القراءة. سأقرأ كلّ أعمال ديكنز مجدّداً».

عاد الفتى إلى حيث طاولة السيد هاريس، وسلّم الأخير الكتاب قائلاً: «ما زال جيداً».

استدار السيد هاريس إلى الخزانة خلفه وأودع الكتاب: «إنه هنا متى أردته، إنه من النوع النادر».

«أعتقد بأنه سيبقى طويلاً في مكانه»، قال الفتى.

«ما عنوان هذا الكتاب؟». سأل الرجل الضخم بفضول.

«سبعة أنماط من الغموض»، قال الفتى: «إنه كتاب جيد جدّاً».

«عنوان جيد لكتاب»، قال الرجل الضخم للسيد هاريس. «إنه شاب ذكي جدّاً، لقراءته كتباً تحمل عناوين كهذه».

«وهو كتاب جيد»، عاد الفتى وردّد ذلك.

«أسعى لشراء بعض الكتب. أريد أن أعوّض بعضاً مما فاتني. لطالما أحببت كتب ديكنز». قال الرجل الضخم للفتى.

«ميريديث جيد»، قال الفتى: «هل جربت قراءته؟».

«ميريديث»،[2] قال الرجل الضخم. «دعنا نرَ بعضاً من كتبك»، قال للسيد هاريس. «أرغب بأن أختار بعضاً مما أريده».

«هل لي أن أرافق الجنتلمان إلى هناك؟». قال الفتى للسيد هاريس. «يجب عليّ العودة في كلّ الأحوال لآخذ قبعتي».

«ماذر،[3] سأذهب مع الشاب وأبحث عن الكتب»، قال الرجل الضخم لزوجته. «ابقي أنتِ هنا وانعمي بالدفء».

1- عائلة برونتي الشهيرة في الأدب الإنجليزي، والأخوات هنّ: شارلوت وإيميلي وآن. شارلوت هي مؤلفة رواية «جين آير». المترجم

2- الروائي والشاعر الإنجليزي جورج ميرديث (1828-1909). المترجم

3- يخاطب زوجته بـMother أو أم، فأبقيتها كما هو لفظها بالإنجليزية. المترجم

«حسناً» قال السيد هاريس، وقال للرجل الضخم: «إنه يعرف مثلي تماماً أمكنة الكتب».

مضى الفتى في الممرّ بين طاولات الكتب، ولحق به الرجل الضخم، الذي ما زال يمشي بحذر، محاولاً ألّا يلمس شيئاً. تجاوزا المصباح الذي ما زال مضاء حيث ترك الفتى قبعته وقفازيه، ليقوم بإضاءة مصباح آخر أبعد، «يحتفظ السيد هاريس بأغلب مجموعاته هنا»، قال الفتى: «دعنا نرَ ما يمكننا العثور عليه». قرفص الفتى عند إحدى الخزائن، ممرّراً أصابعه برفق على صفّ من الكتب: «ماذا عن الأسعار؟». سأل.

«أنوي دفع مبلغ معتبر لقاء الكتب التي في ذهني»، قال الرجل الضخم. لمس الكتاب الذي أمامه معايناً بإصبع واحدة: «مئة وخمسين أو مئتي دولار».

نظر الفتى إلى الأعلى نحوه وقال ضاحكاً: «على هذا المبلغ أن يمنحك العديد من الكتب الجيدة».

«لم أرَ هذا العدد من الكتب في حياتي»، قال الرجل الضخم. «لم أفكر يوماً أن أشهد اليوم الذي أتجول فيه في مكتبة، وأشتري كلّ الكتب التي أردت قراءاتها».

«هذا شعور جيد».

«لم تتح لي الفرصة لأقرأ كثيراً»، قال الرجل. «التحقت مباشرة بالورشة التي عمل فيها أبي حين كنت أصغر منك، وعملت منذ ذلك الحين. وفجأة الآن أصبحت لديَّ وفرة من المال بأكثر مما كنت عليه، وقرّرنا أنا وماذر أن نحضر بعض الأشياء التي لطالما رغبنا بها».

«زوجتك مهتمة ببرونتي»، قال الفتى. «ها هنا مجموعة جيدة جدّاً من كتبها».

انحنى الرجل ونظر إلى حيث أشار الفتى، وقال: «لا أعرف الكثير عن هذه الأشياء. يبدو أنها جيدة، كلّها متشابهة. ما هذه المجموعة التي بجانبها؟».

«كارليل»،[1] قال الفتى: «لا تتوقف عنده. ليس مما تبحث عنه. ميرديث جيد، وثاكراي. أعتقد بأن ثاكراي سيعجبك، إنه كاتب عظيم».

1- الناقد الساخر والمؤرخ والفيلسوف الاسكتلندي توماس كارليل (1795-1881). المترجم

أخذ الرجل الكتب التي أعطاها له الفتى وفتحها بحذر، مستخدماً أصبعين من كلّ يدٍ من يديه الكبيرتين: «يبدو هذا جيداً»، قال.

«دعني أكتب أسماءها»، قال الفتى. أخذ قلم رصاص ودفتر ملاحظات صغير من جيب معطفه. «الأخوات برونتي، وديكنز، وميرديث، وثاكراي».[1] مرّر يده على كلّ المجموعات بينما يقرأ العناوين.

ضيّق الرجل الكبير عينيه وقال: «أريد أن أحصل على مجموعة أخرى، لأملأ المكتبة التي أعددتها لها».

«جين أوستن. ستسرّ زوجتك بها».

«هل قرأت كلّ هذه الكتب؟». سأل الرجل.

«معظمها»، قال الفتى.

ركن الرجل إلى الهدوء لبعض الوقت ثم قال: «لم أحظَ بفرصة لقراءة أيّ شيء، وأنا أمضي إلى العمل باكراً، ولديَّ الكثير من الأشياء التي يجب متابعتها».

«سيكون لديك وقت جيد»، قال الفتى.

«ماذا كان ذلك الكتاب الذي كنت تتصفّحه منذ قليل؟». قال الرجل.

«إنه من كتب الجماليات»، قال الفتى: «عن الأدب. إنه نادر جدّاً. أسعى لشرائه منذ زمن إلّا أنني لم أحظَ بالمال الكافي».

«هل تذهب إلى الجامعة؟». سأل الرجل.

«نعم».

«هذا كاتب أرغب بقراءته مجدّداً»، قال الرجل. «مارك توين. قرأت بعض كتبه حين كنت صغيراً، لكن أعتقد أن لديَّ ما يكفي لأبداً». نهض واقفاً.

نهض الفتى أيضاً مبتسماً: «سيكون لديك الكثير لتقرأه».

«أحبّ أن أقرأ. حقيقة أحبّ أن أقرأ».

مضى عائداً عبر الممرّ، متوجّهاً حيث تقبع طاولة السيد هاريس. أطفأ الفتى المصابيح وتبعه، ثم توقف ليأخذ قبعته وقفازيه. حين وصل الرجل

1- الروائي والرسام الساخر وليم ثاكري (1811-1863). المترجم

الضخم إلى طاولة السيد هاريس قال لزوجته: «إنه فتى ذكي بحقّ. يعرف كلّ الكتب يمنة ويسرة».

«هل حظيت بما أردت؟». سألته زوجته.

«أعدّ لي الفتى قائمة مرموقة». وواصل موجّهاً حديثه إلى السيد هاريس: «يا لها من تجربة أن أرى فتى يحبّ الكتب على هذا النحو. حين كنت بعمره كانت قد مضت أربع أو خمس سنوات على مزاولتي العمل».

عاد الفتى وورقة صغيرة في يده: «هذه هي الكتب المطلوبة»، قال للسيد هاريس.

حدّق السيد هاريس بالقائمة وهزّ رأسه قائلاً: «كتب ثاكري مجموعة لطيفة من الكتب».

ارتدى الفتى قبعته بينما هو واقف عند عتبة السلّم، «أتمنّى أن تستمتع بها». وأردف: «سيد هاريس، سأعود لألقي نظرة أخرى على كتاب أمبسون».

«سأسعى لأحتفظ به قريباً لأجلك»، قال السيد هاريس: «لا أستطيع كما تعرف أن أعدك بالاحتفاظ به».

«سآمل ذلك»، قال الفتى.

«شكراً يا بني»، صرخ الرجل الضخم بينما كان الفتى يصعد درجات السلّم. «أقدّر عالياً هذه المساعدة».

«لا داعي للشكر»، قال الفتى.

«إنه فتى ذكي بحقّ»، قال الرجل للسيد هاريس: «لقد حظي بفرصة عظيمة، بنيله تعليماً مثل هذا!».

«شاب لطيف، وهو مصرّ على أن يحصل على ذلك الكتاب».

«هل تظنّ بأنه سيتمكن من شرائه؟». سأل الرجل الضخم.

«أشك في ذلك»، قال السيد هاريس: «لو تكتب لي اسمك وعنوانك، سأضيف أسعار الكتب».

بدأ السيد هاريس بتدوين الأسعار وهو ينسخ من قائمة الفتى. وبعد أن دوّن الرجل الضخم اسمه وعنوانه، وقف لدقيقة ينقر الطاولة بأصابعه، ليقول بعدئذٍ: «هل لي أن ألقي نظرة على ذلك الكتاب؟».

«كتاب أمبسون؟». قال السيد هاريس رافعاً ناظريه.

«الكتاب المهتم به الفتى كثيراً». استدار السيد هاريس إلى خزانة الكتب خلفه واستخلص الكتاب. حمله الرجل الضخم برقّة، كما حمل الكتب الأخرى، وساد العبوس وجهه حين بدأ بتقليب صفحاته، ثم وضعه على طاولة السيد هاريس.

وليسأل: «إن كان لن يشتريه، فمن الجيد أن يضاف إلى الكتب الأخرى؟».

رفع السيد هاريس رأسه من الأرقام التي خطّها، ثم عاد إلى قائمته، وأضاف بسرعة السعر الإجمالي، ودفع بالورقة إلى الرجل الضخم، وبينما كان هذا الأخير يعاين الأرقام، التفت السيد هاريس إلى المرأة وقال: «لقد اشترى زوجك العديد مما يجلب المتعة في القراءة».

«يسعدني سماع هذا. كنا نتطلع إلى ذلك منذ زمن».

عدّ الرجل الضخم المال بحرص، مسلّماً إياه إلى السيد هاريس الذي بدوره أودعه في الدرج الأول من طاولته قائلاً: «نستطيع إيصالها إليك في نهاية الأسبوع، هل هذا مناسب؟».

«مناسب جدّاً»، قال الرجل الضخم. «ماذر، هل نذهب؟».

نهضت المرأة، وفسح الرجل الضخم الطريق لها لتتقدمه. تبعهما السيد هاريس قائلاً للمرأة: «انتبهي من عتبة السلّم».

صعدا السلم وبقي السيد هاريس يشيّعهما بناظريه إلى أن تواريا مع انعطافة السلّم، ثم أطفأ المصباح المغبرّ فوق رأسه وعاد إلى طاولته.

تعالي ارقصي معي في إيرلندا

حين رنّ جرس الباب، كانت السيدة آرشر جالسة على السرير رفقة كاثي فالنتاين، والسيدة كورن يلاعبن الطفل ويتجاذبن أطراف الحديث. قالت السيدة آرشر: «أوه يا عزيزتي»، وتوجّهت نحو زرّ الباب الخارجي للبناية وضغطت عليه قائلة لكاثي والسيدة كورن: «علينا أن نعيش في الطابق الأرضي. الجميع يرنون جرسنا لأيّ غرض كان».

وعندما رنّ جرس الباب الداخلي فتحت باب الشقة ورأت عجوزاً واقفاً في بهو الطابق. كان يرتدي معطفاً طويلاً بالياً أسود، بلحية بيضاء طويلة، ويحمل حزمة من سيور الأحذية.

«أوه، أنا آسفة جدّاً، لكنني–» قالت السيدة آرشر.

«مدام، من فضلك. الواحد بنيكل».

هزّت السيدة آرشر رأسها: «للأسف لا أريد».

«شكراً لك مدام على كلّ حال. شكراً على مخاطبتي باحترام. أنت أول شخص في هذه المباني يعاملني أنا العجوز المسكين بتهذيب».

صارت السيدة آرشر تحرّك مقبض الباب إلى الأعلى والأسفل بتوتر. «يؤسفني ذلك جدّاً». وحين التفت ذاهباً، قالت: «انتظر دقيقة»، ومضت مسرعة إلى غرفة النوم وهمست: «إنه عجوز يبيع سيور الأحذية». فتحت درج الخزانة وأخذت من حقيبتها محفظة القطع النقدية. «ربع دولار. هل هو مناسب؟».

«بالتأكيد»، قالت كاثي العزباء، والمماثلة للسيدة آرشر عمراً: «ربما هذا أكثر مما حصّله طيلة اليوم». أما السيدة آرشر فقد كانت امرأة بدينة في

منتصف الخمسين من عمرها، وكلتاهما تعيشان في البناية ذاتها، وتمضيان أوقاتاً كثيرة عند السيدة آرشر، منذ ولادة طفلها.

عادت السيدة آرشر إلى باب الشقة: «إليك هذه. من المعيب أن يكونوا وقحين معك».

مضى العجوز يعرض عليها سيور الأحذية، لكن يده صارت ترتجف وسقطت من يده على الأرض. استند بكلّ ثقله إلى الحائط. راقبت السيدة آرشر ذلك مرتاعة: «يا إلهي»، قالت، ومدّت يدها، ولامست أصابعها معطفه القذر، وزمّت شفتيها، ثم وبعد تردّد شبكت ذراعها بذراعه وهي تساعده على الدخول منادية: «يا صبايا تعالوا بسرعة وساعدوني».

جاءت كاثي مسرعة من غرفة النوم، قائلة: «هل ناديتني يا جين؟». ثم تجمّدت في مكانها وجحظت عيناها.

«ما الذي يجب عليّ فعله؟». قالت السيدة آرشر، وذراعها مشبوكة بذراع العجوز المغمض العينين، وبشقّ النفس يستطيع الوقوف على قدميه بمساعدتها: «خذيه إلى الجهة الأخرى كرمى لله».

«احضري له كرسيّاً أو ما يجلس عليه»، قالت كاثي. وكان مدخل البيت ضيقاً على ثلاثتهم ليمضوا فيه جنباً إلى جنب، وقد أخذت كاثي بذراعه الثانية، وتولّت مع السيدة آرشر قيادته نحو الصالون. «ليس على هذا الكرسي، بل على ذلك الجلديّ المهترئ»، قالت السيدة آرشر. أودعتا العجوز على الكرسي الجلديّ ووقفتا على مسافة منه.

«وما الذي سنفعله الآن؟». قالت السيدة آرشر.

«هل لديك بعض الويسكي»، سألت كاثي.

هزّت السيدة آرشر رأسها، وقالت متشككة: «بعض النبيذ».

التحقت بهما السيدة كورن وهي تحمل الطفل: «يا للروعة! إنه سكران!».

«هراء، لو كان كذلك لما تركت جين تدخله»، قالت كاثي.

«انتبهي إلى الطفل بلانشي»، قالت السيدة آرشر.

«طبعاً»، قالت السيدة كورن. وأردفت مخاطبة الطفل: «سنعود إلى غرفة النوم حبيبي، وأضعك في مهدك لتنعم بنوم لذيذ».

ارتعش العجوز وفتح عينيه. حاول أن ينهض. أمرته كاثي أن يبقى حيث هو: «السيدة آرشر ستحضر لك بعض النبيذ. ستحبّ ذلك، أليس كذلك؟».
رفع العجوز ناظريه نحو كاثي وقال: «شكراً».

مضت السيدة آرشي إلى المطبخ، وبعد تفكرها لدقيقة، أخذت كأساً من الخزانة فوق المجلى وغسلتها، وصبّت فيها النبيذ، وعادت بها، وأعطتها لكاثي.

«هل أمسكه لك أم تستطيع شربه بنفسك؟». قالت كاثي.

«أنت بمنتهى اللطف»، قال وهو يأخذ الكأس. ساعدته كاثي برفع الكأس، وصار يرتشف منها ثم أبعدها عنه.

«يكفي، شكراً. هذا قدر كافٍ لينعشني». وحاول النهوض شاكراً السيدة آرشر وكاثي. «الأفضل أن أذهب».

«ليس قبل أن تقف بثبات على قدميك، ليس من الضروري أن تغامر»، قالت كاثي.

ابتسم العجوز: «أستطيع المغامرة».

عادت السيدة كورن: «الطفل في مهده على مشارف النوم. هل تحسّن الآن؟ أراهن على أنه سكران أو جائع أو شيء من هذا القبيل».

«بالطبع»، قالت كاثي متحفزة: «نعم هو جائع. هذا هو سبب معاناته. يا لغبائنا يا جين. يا له من جنتلمان عجوز مسكين». ثم وجّهت حديثها إلى العجوز: «لن تدعك السيدة آرشر تذهب قبل أن تودع في جوفك وجبة كاملة».

بدت السيدة آرشر في حيرة من أمرها: «لديَّ بعض البيض»، قالت.

«تمام!» قالت كاثي. وأردفت مخاطبة العجوز: «إنه مما يسهل هضمه، وخاصة إن كانت معدة خاوية» -تردّدت وأضافت- «منذ حين».

«وقهوة سادة. انظري إلى يديه كيف ترتجفان».

«إنهاك عصبي»، قالت كاثي بحزم. وخاطبت السيدة آرشر والسيدة كورن: «كلّ ما يحتاجه زبدية من المرق الساخن ليعود إلى سالف عهده، ويجب عليه أن يرتشفه ببطء لتستعيد معدته قدرتها على تلقي الطعام مجدّداً. فالمعدة تنكمش حين تبقى خاوية لزمن طويل».

«لا أريد إزعاجك»، قال العجوز للسيدة آرشر.

«لا شيء يستحق الذكر»، قالت كاثي. وأردفت: «نريد أن نراك وقد حظيت بوجبة ساخنة معتبرة تسندك». أخذت بذراع السيدة آرشر وقادتها إلى المطبخ: «اقلي له بعض البيض، أربعاً أو خمساً. سأحضر لك دزينة منها لاحقاً. لا أظنّ أن لديك بعض اللحم المقدّد. أو لأقل: اقلي له بعض البطاطا أيضاً، لن يبالي إن كانت نصف نيئة. هؤلاء البشر يأكلون أكواماً من البيض والبطاطا المقلية و–».

«هناك بعض التين المعلب من الغداء، كنت لا أعرف ما الذي سأفعل به»، قالت السيدة آرشر.

«يجب عليّ أن أسرع بالعودة إليه لأراقبه، قد يغمى عليه مجدّداً أو شيء من ذلك. أنت اقلي له بعض البيض والبطاطا. لن أدع بلانشي أن تأتي إلى هنا».

كيّلت السيدة آرشر قهوة تكفي لاثنين في الركوة ووضعتها على الموقد، ثم أخرجت المقلاة: «كاثي، أنا قلقة بعض الشيء من أن يكون بحقّ سكران، أقصد لو أن جيم علم بذلك، وبوجود الطفل وأمور أخرى...».

«ما الداعي لذلك جين!» قالت كاثي. «أظنّ أنه كان يجب العيش في الريف لبعض الوقت. النساء هناك دائماً ما يقدمون وجبات للجائعين. وليس ضرورياً أن تخبري جيم. أنا وبلانشي لن نتحدث بالأمر مطلقاً».

«حسناً. لكن هل أنت متأكدة من أنه ليس سكران؟». قالت السيدة آرشر.

«أعرف من يتضوّر جوعاً من نظرة. حين لا يقوى رجل عجوز على النهوض ويداه ترتجفان ويبدو مضحكاً، فهذا يعني أنه يكاد يموت من الجوع. أي إنه يتضوّر جوعاً».

«أوه، يا!» قالت السيدة آرشر وسارعت إلى إخراج حبّتي بطاطا من تحت المجلى. «اثنتان كافيتان؟ أعتقد أننا نقوم بعمل خيّر».

ضحكت كاثي. «لتكن لذيذة»، ولتهمّ بالخروج من المطبخ، إلّا أنها توقّفت والتفتت قائلة: «هل لديك أيّ فطيرة؟ دائماً ما يأكلون الفطائر».

«إنها محضّرة للعشاء».

«أوه، أعطها له. نستطيع أن نخرج ونحضر غيرها».

وبينما كانت البطاطا تُقلى، وضعت السيدة آرشر صحناً وفنجاناً وعلبة السكر، وسكيناً وشوكة وملعقة على مائدة الطعام. وتذكرت فجأة أن ترفع الصحون من الخزانة وتأخذ كيساً ورقيّاً شقّته إلى نصفه، وأعادت الصحون مجدّداً إلى الخزانة. أخذت كأساً وملأتها بماء من قنينة في الثلاجة، وقطعت ثلاث شرائح من الخبز ووضعتها في صحن، ووضعت إلى جانبها زبدة قطعتها إلى مربعات. ثم وضعت إلى جانب الصحن منديلاً ورقيّاً أخرجته من صندوق في الخرانة. ختاماً وضعت مرشّة الملح ومرشّة البهار على الطاولة وأخرجت صندوق البيض. توجهت إلى باب المطبخ ونادت: «كاثي، اسأليه كيف يحبّ البيض المقلي!».

اندلعت بضع همهمات من حديث جرى في الصالون ثم نادت كاثي مجيبة: «بيض عيون!».

أخذت السيدة آرشر أربع بيضات، وراحت تفقشها واحدةً تلو الأخرى في المقلاة، وحين نضجت نادت: «يا صبايا! أحضروه إلى هنا!».

دخلت السيدة كورن، وعاينت البطاطا والبيض، ونظرت إلى السيدة آرشر من دون أن تنطق بحرف. تبعتها كاثي بعدئذٍ وهي تمسك العجوز بذراعه. قادته إلى الطاولة وأجلسته على الكرسي: «هنا... ها قد أعدّت لك السيدة آرشر وجبة شهية ساخنة». قالت كاثي.

نظر العجوز إلى السيدة آرشر وقال: «أنا ممتنّ جدّاً».

«أليس لطيفاً!» قالت كاثي، وأومأت مثنية على السيدة آرشر. رمق العجوز صحن البيض والبطاطا: «والآن اهجم عليها»، قالت كاثي، وأردفت: «اجلسن يا صبايا. سأحضر كرسيّاً من غرفة النوم».

أخذ العجوز الملح وراح يرشّ على البيض: «يبدو شهيّاً».

«دعك من هذا وباشر الأكل»، قالت كاثي، وقد عادت بالكرسي: «نريد أن نراك وقد شبعت حتى التخمة. صبّي له بعض القهوة يا جين».

توجّهت السيدة آرشر إلى الموقد وأخذت ركوة القهوة.

«لا داعي أرجوك»، قال.

«لا بأس»، قالت السيدة آرشر وهي تملأ فنجان الرجل. رفع العجوز الشوكة ثم أعادها وأخذ المنديل الورقي ومدّه على حضنه.

«ما اسمك؟». سألت كاثي.

«أو فلهرتي، مدام. جون أو فلهرتي».

«أهلاً جون. أنا الآنسة فالنتين، وهذه الليدي هي السيدة آرشر، وتلك هي السيدة كورن.

«تشرّفت بمعرفتكنّ».

«أحسب أنك من البلد العتيق»،[1] قالت كاثي.

«أستميحك عذراً؟».

«أنت إيرلندي أليس كذلك؟».

«نعم مدام»، قال وغرز الشوكة في واحدة من البيضات، وراح يراقب صفار البيض يسيل في الصحن، ثم قال فجأة: «أعرف ييتس».[2]

«حقّاً؟». قالت كاثي وهي تنكبّ على الطاولة: «دعني أرَ–كان كاتباً، أليس كذلك؟».

«اعطفي عليّ وتعالي، تعالي ارقصي معي في إيرلندا»،[3] قال العجوز. ثم نهض وأمسك بمسند الكرسي، وانحنى بوقار للسيدة آرشر: «شكراً مجدّداً مدام على كرمك». وتوجّه نحو باب الشقة. نهضت النسوة الثلاث وتبعهن.

«لكنك لم تنهِ طعامك»، قالت السيدة كورن.

«المعدة، كما أشارت الليدي تنكمش. نعم هذا صحيح». ثم قال كما لو أنه يعود بالذاكرة: «نعم أعرف ييتس».

حين وصل إلى الباب التفت وقال للسيدة آرشر: «على لطفك أن يكافأ». وأشار إلى سيور الأحذية المرمية على الأرض: «هذه لك، للطفك. تقاسميها مع السيدتين».

1- مسمى لإيرلندا. المترجم

2- الشاعر الإيرلندي وليم بتلر ييتس (1865–1939). المترجم

3- السطر من قصيدة ييتس I am of Ireland المترجم

«لكنني لم أحلم–» بادرت السيدة آرشر القول.

«أنا مصرّ»، قال العجوز وهو يهمّ بفتح الباب. ثم أضاف بغتةً: «هدية صغيرة، لكنها كلّ ما أملك. اجمعيها بنفسك». ثم وضع إبهامه على أنفه بحركة متبجحة في وجه السيدة كورن قائلاً: «أكره العجائز».

«جيد!» قالت السيدة كورن بصوت واهن.

«قد أسرف في الشرب بعض الشيء، إلّا أنني لا أقدم أبداً نبيذاً رديئاً. نحن من عالمين مختلفين يا مدام»، قال العجوز للسيدة آرشر.

«ألم أقل لك؟ ألم أخبرك بذلك طيلة الوقت؟». راحت السيدة كورن تردّد.

أقدمت السيدة آرشر وهي تنظر إلى كاثي بحركة لدفع العجوز عبر الباب، إلّا أنه أحبط محاولتها.

«تعالي ارقصي معي في إيرلندا»، قال وهو يستند إلى الحائط، ثم وصل الباب الخارجي وفتحه قائلاً: «والزمن يتدفق».[1]

1– من قصيدة ييتس السابقة الذكر. المترجم

-IV-

ليس لنا أن نكون عرضة للخيانة والإساءة على هذا القدر، ما لم نكن قد ضيّعنا حرصنا ورقابتنا، عبر نوازعنا وتصرفاتنا الخسيسة، وتغافلنا عن أرواح متفوقة؛ لها أن تكون حارسة ومدافعة عنا في مواجهة حقد وصلف الملائكة الشريرة، مدركين ومتفكرين مليّاً، بأنها في بعض الأوقات ستمضي كما لو أن الحقد، والحسد، والرغبة بالانتقام ابتلعت تلك الأرواح، أي بخصال مناقضة تماماً لحياتها وطبيعتها، لتتركنا مكشوفين أمام غزو تلك الأرواح الشرير متضرعين إليها، لأولئك الذين تجعلهم خصال كهذه متسقين معها تماماً.

جوزيف غلانفيل: سادوكيسموس تريمباتوس

بالطبع

حال تهذيب السيدة تايلور الشديد، دون إطلالتها من شرفتها، في منتصف صبيحة كثيرة المشاغل، إلّا أنها لم تجد سبباً يحول دون النظر من النافذة؛ وهي تنظف بالمكنسة الكهربائية أو تجلي الصحون، وحتى حين كانت ترتب الأسرّة في الأعلى، ما قادها إلى النافذة في الجانب الشمالي من البيت حيث رفعت الستارة قليلاً، أو حافة طرف منها ورفعت الظلّة قليلاً. كلّ ما تمكنت من رؤيته، سيارة نقل أمام البيت، وأعمال بسيطة يقوم بها العمّال، والأثاث الذي بدا لها بحالة جيدة.

فرغت السيدة تايلور من ترتيب الأسرّة ونزلت السلّم وبدأت بإعداد الغداء، وفي فسحة الزمن الوجيزة التي استغرقتها في المسافة من غرفة النوم الأمامية إلى نافذة المطبخ كانت سيارة أجرة قد توقفت أمام البيت المجاور وخرج منها صبي يتقافز راقصاً على الرصيف. قدّرت السيدة تايلور عمره بأربع سنوات، أي إنه، ما لم يكن حجمه أصغر من عمره، بعمر ابنتها الصغرى. حوّلت انتباهها إلى المرأة وهي تترجّل من السيارة، وكلّها ثقة، مرتدية بدلة بنية أميل للأصفر، مهترئة بعض الشيء، ولها أن تكون ذات لون فاتح لا يتناسب ويوم النقل، لكنها مفصّلة على نحو جيد. مبدية إعجابها بإيماءة من رأسها بينما تقشّر الجزر: «من الواضح أنهم لطفاء».

كانت كارول، ابنة السيدة تايلور الصغرى، مستندة إلى السياج أمام البيت، تراقب الولد الصغير في الباب المجاور. حين توقّف الولد عن التقافز رقصاً قالت كارول: «مرحباً». نظر الولد إليها وأخذ خطوة إلى الخلف وقال: «مرحباً». نظرت أمه نحو كارول، ثم نظرت إلى ابنها، وقالت لكارول:

«مرحباً». ابتسمت السيدة تايلور في المطبخ، وقامت في الحال بتجفيف يديها بمنديل ورقي، ونزعت مريولها، وذهبت إلى باب البيت الأمامي. نادت بصوت خفيض: «كارول، عزيزتي كارول». التفتت كارول، وهي ما زالت مستندة على السياج: «ماذا؟». أجابت بفتور.

«أوه، مرحباً»، قالت السيدة تايلور للسيدة الواقفة على الرصيف بجانب الولد: «سمعت كارول تتكلّم مع أحد...».

«كان الطفلان يتعارفان»، قالت السيدة بخفر.

نزلت السيدة تايلور الدرجات أمام بابها ووقفت بجانب كارول عند السياج: «هل أنت جارتنا الجديدة؟».

«سيكون ذلك إن خطونا إلى الداخل»، قالت ضاحكة. وأردفت متحمسةً: «انتقلنا اليوم».

«أعرف. نحن عائلة تايلور، وهذه كارول».

«نحن عائلة هاريس، وهذا جيمس جونيور».

«قولي مرحباً لجيمس».

«وأنت أيضاً قل مرحباً لكارول».

أغلقت كارول فمها محجمة عن الكلام تماماً والولد التصق بأمه. ضحكت السيدتان: «أطفال!» قالت إحداهما، وقالت الأخرى: «هذه هي العادة!».

ثم قالت السيدة تايلور، وهي تشير إلى شاحنة النقل ورجلان ينقلان منها الكراسي والطاولات والأسرّة والمصابيح: «يا إلهي، أليس هذا مريعاً».

تنهدت السيدة هاريس: «أظنّ أنني سأجنّ».

«هل هناك ما يمكننا المساعدة فيه؟». قالت السيدة تايلور مبتسمة لجيمس، «هل تحبّ أن تمضي الظهيرة معنا؟».

«سيريحني ذلك»، وافقت السيدة هاريس، والتفتت خلفها إلى جيمس: «هل تودّ أن تلعب مع كارول في هذه الظهيرة؟». هزّ جيمس رأسه صامتاً وقالت له السيدة تايلور مبتهجة: «أختنا كارول الأكبر سيأخذانها إلى السينما، ألا تحبّ الذهاب يا جيمس؟».

«أخشى بأنه لن يفعل. جيمس لا يذهب إلى السينما»، قالت السيدة هاريس.

«أوه بالطبع، كثير من الأمهات يرفضن بالطبع، لكن حين يكون للطفل أختان تكبرانه...».

«ليس الأمر كذلك. ولا أحد منا يذهب إلى السينما».

استوقفت السيدة تايلور: «ولا أحد منا» مما يعني أن السيد هاريس في الجوار، ثم خرجت عن شرودها وقالت بوضوح: «لا تذهبون إلى السينما؟».

«يشعر السيد هاريس بأن الأفلام معاقة فكرياً، نعم نحن لا نذهب إلى السينما».

«بالطبع. أنا متأكدة من أن كارول لن تمانع أن تبقى في البيت في هذه الظهيرة. ستحبّ أن تلعب مع جيمس». قالت السيدة تايلور، وأضافت بحذر: «ليس لديك اعتراض على صندوق الرمل؟».

«أريد الذهاب إلى السينما»، قالت كارول.

سرّعت السيدة تايلور من وتيرة حديثها: «لِمَ لا تأتين أنت وجيمس وتستريحان عندنا لبعض الوقت؟ لقد أمضيت صباحاً متعباً».

تردّدت السيدة هاريس، وهي تراقب العمال، ولتقول في النهاية: «شكراً»، قاصدة بوابة بيت تايلور وجيمس يتبعها. بينما كانت السيدة تايلور تقول لها: «إن جلسنا في الحديقة فإنه سيظلّ بمقدورك مراقبة العمال». ودفعت كارول دفعة صغيرة، وقالت لها بحزم: «خذي جيمس إلى صندوق الرمل عزيزتي».

مستاءةً أخذت كارول بيد جيمس نحو صندوق الرمل، وقالت: «هل تراه؟». وعادت لترفس أوتاد السياج. أجلست السيدة تايلور السيدة هاريس على كرسيّ من كراسيّ الحديقة وعثرت على رفش أخذته إلى جيمس ليحفر به.

«شعور جميل أن أجلس»، قالت السيدة هاريس متنهّدة. «أشعر أحياناً بأن الانتقال إلى بيت هو أسوأ ما يمكن أن يحصل معي».

«حظّ جيد أن تحصلي على ذلك البيت»، قالت السيدة تايلور، وهزّت السيدة هاريس رأسها. وواصلت السيدة تايلور قائلة: «سيسرّنا أن نحظى بجيران لطيفين. ثمة ما هو جميل في مخالطة من هم مجاورون». وأنهت حديثها متندرة: «ربما أستطيع أن أستعير بعض السكر».

«بالتأكيد سيسرني أن تفعلي»، قالت السيدة هاريس. وأردفت: «لقد حظينا في البيت القديم بجيران مزعجين. أشياء صغيرة، كما لك أن تتخيّلي، تتسبّب بإزعاجك». تنهدت السيدة تايلور متعاطفة: «الراديو مثلاً، وهو شغّال طيلة اليوم بصوت عالٍ».

حبست السيدة تايلور نفسها لبرهة: «يجب أن تحرصي على إخبارنا إن علا صوت الراديو عندنا».

«لا يستطيع السيد هاريس احتمال الراديو. وبالطبع لا نملك واحداً».

«بالطبع»، قالت السيدة تايلور. «ما من راديو».

نظرت إليها السيدة هاريس وضحكت ممتعضة: «ستظنين أن زوجي مجنون».

«بالطبع لا. على كلّ، كثر هم من لا يحبّون الراديو؛ ابن أخي الأكبر، الآن، صار على العكس من ذلك -».

«حسناً»، قالت السيدة هاريس: «والصحف أيضاً».

تبيّنت السيدة تايلور تشبث إحساس مشوش بالتوتر بها؛ أشبه بما تستشعره حين تكون على اتصال بشيء خطر خارج عن السيطرة ولا مفرّ منه: كما لو أنها في سيارتها، مثلاً، على طريق جليدية، أو على مزلاج بعجلات... كانت السيدة هاريس تراقب العمال يدخلون ويخرجون بذهن شارد، وتقول: «ليس لدرجة أننا لم نرَ جريدة يوماً، ليس الأمر مشابهاً للسينما؛ فالسيد هاريس يرى أن الصحيفة تشويه هائل للذائقة. أنت لا تحتاجين إلى قراءة صحيفة، كما لك أن تتخيّلي»، قالت وهي تنظر بقلق إلى السيدة تايلور.

«لا أقرأ شيئاً، إلّا -».

«درجنا لعدة سنوات على إحضار مجلة ذا نيو ريبابليك. كان ذلك في الفترة الأولى من زواجنا، وقبل ولادة جيمس بالطبع». قالت السيدة هاريس.

«وما هو عمل زوجك؟». سألت السيدة تايلور بحذر.

رفعت السيدة هاريس رأسها وقالت متفاخرة: «إنه باحث. يكتب بحوثاً».

همّت السيدة تايلور بالحديث، إلّا أن السيدة هاريس شوّحت بيدها وأحنت جسدها قائلة: «من الصعب جدّاً على الناس أن تتفهّم الرغبة بالعيش بسلام حقيقي».

«وما الذي يفعله زوجك لينعم بالاسترخاء؟».

«يقرأ المسرحيات»، قالت السيدة وهي تنظر إلى جيمس متوجسة. «مسرحيات ما قبل المسرح الإليزابيثي بالطبع».

«بالطبع»، قالت السيدة تايلور وهي تنظر إلى جيمس مستاءة، والذي بدوره كان ينبش التراب بالرفش ويكوّمه.

«حقاً البشر يعوزهم اللطف»، قالت السيدة هاريس. «أولئك الذين أخبرتك عنهم، في البيت المجاور. لم تكن مشكلتهم في الراديو فقط، بل إنهم تركوا متعمدين ولثلاث مرات صحيفة (نيويورك تايمز) على عتبة بابنا. وفي إحدى المرات وقعت بين يدي جيمس».

«يا إلهي»، قالت السيدة تايلور ووقفت: «كارول لا تبتعدي. إنه وقت الغداء يا عزيزتي».

«حسناً، يجب عليَّ أن أذهب لأتفقد ما إذا أنجز العمال عملهم على أحسن وجه».

وقالت السيدة تايلور مستشعرة أنها كانت فظة: «وأين هو السيد هاريس الآن؟».

«عند والدته، دائماً ما يلازم بيتها حين ننتقل».

«بالطبع»، قالت السيدة تايلور، وهي تشعر بأنها لم تقل سوى تلك الكلمة طيلة الصباح.

«لا يشغّلون الراديو حين يكون هناك»، أوضحت السيدة هاريس.

«بالطبع».

مدّت السيدة هاريس يدها مصافحة السيدة تايلور. «كلّي أمل أن نصبح أصدقاء»، قالت السيدة هاريس: «وكما قلت، فإنه من المهمّ جدّاً أن نحظى بجيران نجباء، وقد كنا في ما مضى غير محظوظين بذلك».

«بالطبع»، قالت السيدة تايلور ثم تمالكت نفسها بسرعة.

«ربما نلتقي جميعاً في أمسية قريبة ونلعب البريدج». قالت السيدة تايلور وعاينت وجه السيدة هاريس فأردفت: «حسناً، ليكن، لنلتقِ جميعاً في أمسية قريبة». وضحكتا.

«كلّ ذلك يبدو سخيفاً، أليس كذلك»، قالت السيدة هاريس: «شكراً جزيلاً على لطفك هذا الصباح».

«جاهزون لأيّ مساعدة. أرسلي جيمس في الظهيرة إن رغبت».

«سأفعل، إن لم يكن لديك مانع».

«بالطبع». قالت السيدة تايلور، ونادت: «عزيزتي كارول».

مضت السيدة تايلور وذراعها على كتف كارول إلى مدخل بيتها، ووقفت تراقب السيدة هاريس وجيمس وهما يدخلان إلى بيتهما، ويتبادلون التلويح بالأيادي.

«هل أستطيع الذهاب إلى السينما، أرجوك يا ماما؟». قالت كارول.

«سأذهب معك»، قالت السيدة تايلور.

عمود ملح

لسبب ما، تردّد في رأسها لحن موسيقي حين استقلّت مع زوجها القطار المتوجّه من «نيو هامبشير» إلى نيويورك؛ فهما لم يقصدا هذه الأخيرة منذ ما يقرب العام، إلّا أن اللحن كان قادماً مما هو أبعد من ذلك، إنه من الأيام التي كان عمرها فيها بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، ولم تكن حينها قد رأت نيويورك إلّا في الأفلام، بحيث كانت تتبدّى لها المدينة، قائمة على تراسات ناطحات السحاب المليئة بشخصيات نويل كوارد[1]، وحين كان العلوّ والسرعة والرفاهية والمسرّات المشكّلة لمدينة مثل نيويورك، مشوشة ومتداخلة، مع تبلّد أن تكون في الخامسة عشرة، ومع جمال ليس بالمتناول قابع في الأفلام.

«ما هذا اللحن؟». سألت زوجها بعد أن دندنته. «أغلب الظنّ أنه من فيلم قديم».

«أعرفه»، قال وراح يدندنه. «لا أستطيع تذكّر الكلمات».

جلس مسنداً ظهره، بعد أن قام بتعليق معطفيهما، وإخراج مجلته من الحقيبة، ووضع الأخيرة على الرفّ: «سيعاودني عاجلاً أم آجلاً».

نظرت من النافذة أولاً، معاينة بخفر، مستطيبة أقصى درجات متعة أن تكون على متن قطار يمضي بها لستّ ساعات من دون أن تقوم بشيء سوى القراءة والنوم والتوجه إلى عربة الطعام، مبتعدة أكثر فأكثر عن الأولاد، وعن المطبخ، لا بل مفارقة تلك التلال وروعتها، مستبدلة إياها بالحقول

1- السير نويل بيرث كوارد (1899-1973) كاتب مسرحي ومؤلف موسيقي ومخرج وممثل ومغنٍّ إنجليزي. المترجم

والأشجار البعيدة جداً عن بيتها لكي تصير مشاهد يومية. «أحبّ القطارات»، قالت، وهزّ زوجها رأسه متفهماً والمجلة بين يديه.

أسبوعان بانتظاري، أسبوعان خارقان، وقد أنجزت كلّ الترتيبات، وما من شيء إلّا وتمّ التخطيط له، ما عدا أشياء متصلة بتحديد ما سيقصدانه من مسارح أو مطاعم. صديقهما لديه شقة في نيويورك، وقد مضى في إجازة، وطالما هناك ما يكفي من المال في الحساب للقيام برحلة إلى نيويورك وشراء ثياب شتوية للأولاد؛ فإن الترتيبات ستمضي بيسر، فما إن تذلّل العوائق الأولية، إضافة لاتخاذ قرار جدّيّ بالرحلة، فإن شيئاً لم يستطع إيقافهما. شفي الطفل من آلام الحنجرة. جاء السبّاك، وفرغ من عمله خلال يومين. تمّ استبدال الملابس في أوانها؛ ويمكنهما أن يتركا المتجر خلفهما بسلام، طالما أن لديهما عذر البحث عن منتجات جديدة. لم تتعرض نيويورك للحريق، لم تحجر، صديقهما مضى في إجازته في موعدها المحدّد، ومفتاح شقته في جيب براد. كلٌّ يعرف كيف يجد الآخر؛ ثمة قائمة بالمسرحيات التي لا تفوت، وقائمة بالأدوات التي يجب البحث عنها في المتاجر - حفاضات، وألبسة، ومنتجات معلبة مميزة، وملمّعات، وفضيّات، وفي النهاية، ها هو القطار، يؤدي دوره، يمضي قدماً في الظهيرة، حاملاً لهما بعزيمة، ونيويورك قصده.

تفقّدت مارغريت زوجها وعاينته بناظريها، مسترخية في ظهيرة على متن قطار، رفقة مسافرين هانئين، والريف في الخارج مشمس وادع. نظرت مجدّداً إلى زوجها، ثم فتحت كتابها. ما زال اللحن يتردّد في رأسها، دندنته وسمعت زوجها يتشاركه معها برقة بينما يقلب صفحة من مجلته.

أكلت «روست بيف» في عربة الطعام، كما دأبت على ذلك في أيّ مطعم من مطاعم مدينتها، بينما هي مصرّة على تغيير ذلك سريعاً، وتناول أطعمة شهية جديدة أثناء الإجازة. تناولت آيس كريم للتحلية إلّا أنها لم تشرب قهوتها براحة، ذلك أن ساعة باتت تفصلها عن نيويورك وما زال عليها ارتداء معطفها وقبعتها، وأن تتملّى بمتعة من كلّ ما حولها، وعلى براد إنزال الحقائب ووضع مجلته في واحدة منها. وقفا في آخر العربة في ممرّ القطار الطويل، يحملان الحقائب ثم يضعانها، وهما بالكاد يخطوان خطوة إلى الأمام.

ما كانت المحطة إلّا ملاذاً مؤقتاً، تأخذ بأيدي الزوار تدريجيّاً إلى عالم البشر والأصوات والأضواء، مهيأة لهم لاندلاع الواقع في الشارع. عايشا ذلك لبعض الوقت عن الرصيف قبل أن يستقلّا سيارة أجرة لتمضي إلى مركزها، ثم أخذتهما مشاعر متضاربة وهما في طريقهما إلى وسط المدينة، حيث خرجا إلى رصيف آخر وقد دفع براد للسائق أجرته ورفع رأسه إلى الأعلى لينظر إلى الشقة. «هذه هي»، قال، كما لو أنه كان متشككاً من سهولة عثور السائق على رقمها، وها هما في المصعد، وها هو المفتاح يدخل في قفل الباب الصحيح. لم يكونا قد زارا شقة صديقهما من قبل، إلّا أنها بدت أليفة بنسبة معقولة – فلدى صديقهما الكثير من الصور الشخصية التي يحملها من ديارهما والتي لا تمحى ببضع سنوات مرّت على انتقاله من «نيو هامشير» إلى نيويورك، وبما يدفع براد للجلوس على كرسي بدا مخصصاً له وطمأنتها بثقة فطرية بخصوص الشراشف والبطانيات.

«هذا بيتنا لأسبوعين»، قال براد وتمطّى. بعد بضع دقائق على وصولهما توجّها تلقائيّاً نحو النوافذ؛ نيويورك في الأسفل، بأنساقها، بأبنيتها على طرفي الشارع وشققها المليئة بأناس مجهولين.

«يا للروعة»، قالت. السيارات في الأسفل، بشر وصخب. «أنا سعيدة جدّاً»، وقبّلت زوجها.

قصدا في اليوم الأول معالم المدينة؛ تناولا فطورهما في «أوتومات» وصعدا إلى أعلى «أمباير ستايت». «كلّ شيء أعيد إصلاحه الآن»، قال براد من أعلى ناطحة السحاب. «أتساءل من أيّ جهة ارتطمت فيها الطائرة».

وراحا يتفحصانها من جهاتها الأربع، وهما محرجان من السؤال. «على كلٍّ»، قالت متفكرة، ثم راحت تضحك في ركن قصي: «لو أن شيئاً يخصّني انكسر فإنني لن أرغب بزوار يسألون رؤية القطع».

«لو كنت تملكين أمباير ستايت لما همّك»، قال براد.

استخدما سيارات الأجرة في أولى أيامهما فقط، فهذا تاكسي بابه مثبت بسلك معدني؛ استدلّا عليه وضحكا بصمت؛ وآخر في يومهما الثالث تقريباً، ثُقبت عجلته، وهما في «برودواي»، وكان عليهما أن ينزلا منه ويستقلّا آخر.

«لم يبقَ سوى أحد عشر يوماً»، قالت، وأردفت بعد دقائق: «لقد أمضينا هنا ستة أيام».

اتصلا بأصدقاء كانا ينويان التواصل معهم، إلّا أنهم كانوا ذاهبين إلى «لونغ أيلاند» مقصدهم الصيفي في عطلة نهاية الأسبوع. «تبدو مريعة الآن»، قال لهما مضيفهما عبر الهاتف، «سنمضي أسبوع عطلة، لكنني لن أسامحكما ما لم نلتقِ طالما أنكما هنا». كان الطقس صحواً إلّا أنه بارد، كما دأب الخريف، الألبسة في واجهات المحلات غامقة وقد داخلها الفرو والمخمل. ارتدت معطفها كلّ يوم، والبدلات أغلب الأوقات، وظلّت ألبستها الخفيفة معلقة في خزانة الشقة، وهي تفكّر الآن بشراء كنزة من واحد من المحلات الكبرى، لا تتناسب مع «نيو هامبشير» بل مع «لونغ آيلاند» على الأرجح.

«أريد أن أتسوّق، ولو ليوم واحد»، قالت لبراد، والذي بدوره أصدر أنّات متشكية.

«لا تطلبي مني حمل الأكياس».

«أتفهّم أنك لست راغباً بيوم جميل نمضيه في التسوّق بعد كلّ تجوالك هنا وهناك. لمَ لا تذهب إلى السينما».

«أريد أن أشتري بعض الأغراض وحدي»، بدا قوله ذلك غامضاً، ربما قصد بذلك شراء هدية عيد الميلاد لها؛ تبادر إلى ذهنها على نحو ملتبس، وفكّرتْ بشراء أشياء تحمل لمسة نيويورك؛ سيسرّ الأولاد بجدّة سلع هذه المدينة، ألعاب لم يروا مثلها في محلات مدينتنا. إلّا أنها قالت كيفما اتفق: «سيكون متاحاً لك على الأقل زيارة معارفك من تجار الجملة».

كانا في طريقهما لزيارة صديق آخر، عثر على سكن بمعجزة وحذّرهم من ألّا يستاءا من مظهر البناية، أو السلّم، أو الحيّ، فجميعها سيئة، للسلّم ثلاث التفافات، ضيق ومعتم، لكن في الأعلى ثمة مكان يمكن العيش فيه. لم يمضِ الكثير على مجيء صديقهما إلى نيويورك، وهو يعيش وحده في غرفتين، والتقط بسهولة الهوس بالطاولات الرقيقة والمكتبات الواطئة ما جعل غرفتيه تبدوان وسيعتين في مواضع بالنسبة للأثاث، وضيقتين وغير مريحتين في أخرى.

«يا له من مكان جميل»، قالت حين دخلت، وندمت على قولها ذلك

حين قال مضيفها: «سأتخلّص من هذا الوضع اللعين يوماً ما وسأكون قادراً على السكن في مكان لائق».

تواجد أناس آخرون، تحدثوا بالمواضيع ذاتها التي يجري الحديث بها في «نيو هامبشير»، إلّا أنهم شربوا أكثر مما يفعلون هناك، وأصواتهم أعلى وكلماتهم مفخّمة، وكذا هي إيماءاتهم، التي كانت وجيزة، محركين أصبعاً بينما كانوا في «نيو هامبشير» يحركون أذرعهم. كرّرت مارغريت مراراً، «إننا في إجازة لأسبوعين»، وأضافت: «نعم رائعة، ومثيرة جداً... وقد حالفنا الحظ بسفر صديقنا في الوقت».

ازدحمت الغرفة بالناس والصخب، ومضت إلى ركن منها بجانب النافذة لتلتقط أنفاسها، وقد كانت النافذة تفتح وتغلق طيلة الأمسية، وفقاً للشخص الواقف بجوارها وما إذا كان غير مشغول بشيء، والآن هي موصدة، والسماء صافية في الخارج. جاء أحد الحضور ووقف بجانبها. قالت: «أنصت إلى الضجة في الخارج، إنها بسوء الضجة هنا في الداخل».

«في حيّ كهذا تقع حوادث قتل دائماً». فقالت متجهمة: «تبدو مختلفة عن السابق، أقصد، ثمة أصوات مختلفة».

«كحوليون، يشربون في الشوارع ويتشاجرون على طول الطريق». ابتعد حاملاً كأسه.

فتحت النافذة ومدّت رأسها، وكان أناس آخرون على امتداد الشارع يطلّون من نوافذهم صارخين، وكذا من هم في الشارع شاخصين بأبصارهم، ولتسمع بوضوح صوتاً آتياً من الشارع، يردّد: «ليدي يا ليدي». واستنتجت أنها هي المقصودة، والجميع ينظرون في الاتجاه ذاته. مدّت رأسها أكثر، فاندلعت صرخات متداخلة، إلّا أنها جميعاً تقول: «بيتك يحترق يا ليدي، ليدي يا ليدي». أغلقت النافذة والتفتت إلى المتواجدين في البيت وقالت: «اسمعوا. يقولون إن البيت يحترق». كانت خائفة جداً من أن يسخروا منها، وتبدو حمقاء وينظر إليها براد وقد تضرجت وجنتاه خجلاً: «البيت يحترق»، وأضافت خشية أن تبدو متيقنة من ذلك: «إنهم يقولون ذلك». التفت إلى من هم قريبون منها، وقال أحدهم: «تقول إن البيت يحترق».

أرادت أن تصل إلى براد إلّا أنها لم تره، وهذا حال مضيفها المتواري عن ناظريها أيضاً، وجميع من حولها لا تعرفهم. إنهم لا ينصتون إليَّ، فكّرت، يجدر بي ألّا أبقى هنا، وتوجّهت إلى الباب الخارجي وفتحته. لم يكن ثمة دخان، أو نار، مع ذلك يجدر بي ألّا أبقى هنا. وعليه تخلّت عن براد هلعة ونزلت السلّم من دون معطفها وقبعتها، حاملة كأساً بيد وبالأخرى علبة كبريت. السلّم طويل جدّاً، لكنه سالك وآمن، وفتحت الباب إلى الشارع وركضت. أمسكها رجل بذراعها وقال: «هل خرج الجميع من البيت؟». قالت: «ما زال براد هناك». كانت شاحنات الإطفاء مجتمعة عند الزاوية، والناس تراقبها من النوافذ، وقال الرجل الممسك ذراعها: «إنها هنا»، وتركها. كانت النيران مندلعة على مبعدة بيتين؛ بالإمكان رؤية لظى لهيبها خلف النوافذ العلوية، والدخان يشقّ عنان سماء الليل، إلّا أنها أخمدت في غضون عشر دقائق وغادرت سيارات الإطفاء محاطة بجوّ استعراضي، وقد سحبت معداتها ببطء شديد متمكنة من إخماد حريق لم يتجاوز العشر دقائق.

عادت إلى سلّم البناية محرجة، وعثرت على براد وأخذته إلى البيت.

«كنت خائفة جدّاً، فقدت عقلي تماماً». قالت له وهما آمنان في السرير.

«كان يجب أن تستعيني بأحد».

«لم ينصتوا إليَّ. قلت لهم مراراً لكن عبثاً، فاستنتجت بعدئذٍ بأني مخطئة، وراودتني فكرة النزول لأرى ما الذي يحدث».

«جيد أنك لم تقدمي على ما هو أسوأ».

«أحسست بأني عالقة بين كابوس مبنى قديم يحترق ومدينة غريبة».

«لقد انقضى كلّ ذلك الآن».

مشاعر الخوف المبهمة نفسها راودتها في اليوم التالي، حين ذهبت وحدها لتتسوّق، بينما مضى براد ليعاين منتجات لمتجرهما. استقلّت الحافلة قاصدة وسط المدينة، وكانت شديدة الازدحام بحيث صعب عليها أن تشقّ طريقها نحو الباب حين وصلت إلى وجهتها. بالكاد اجتازت الممرّ وهي تقول، «أريد الخروج رجاء... المعذرة»، وما إن تحرّرت من الحشد وأصبحت قرب الباب مضت الحافلة ونزلت في المحطة التالية. «لا أحد

ينصت إليّ»، قالت لنفسها. «ربما لأنني شديدة التهذيب». كانت الأسعار في المتاجر مرتفعة جدّاً والكنزات أشبه بتلك التي في «نيو هامبشير»، كما أن ألعاب الأطفال أفزعتها، وقد بدا لها جليّاً بأنها لأطفال نيويورك: محاكاة مصغرة لقبح حياة الكبار، صناديق محاسبة، عربات تسوّق صغيرة وفاكهة اصطناعية، وهواتف يمكن استخدامها (كما لو أن في نيويورك ما لا يكفي من هواتف)، عبوات حليب مصغرة في صناديق. «نأخذ حليبنا من الأبقار»، قالت مارغريت للبائعة. «لن يعرف أبنائي ما هذه». لقد بالغت، وأحسّت لبرهة بالذنب.

كان لديها صورة لأولاد صغار في المدينة يرتدون أزياء مماثلة لأهاليهم، وعلى خطاهم، وقد تزوّدوا بمصغرات الحضارة الآلية، لعبة صناديق محاسبة لكنها كبيرة الحجم جدّاً بما يسهّل عليهم استخدام الأغراض الحقيقية، وملايين الأشياء الصاخبة والمتوثبة المقلّدة التي تهيّئهم بالقدر الكافي للاستيلاء على ألعاب أهاليهم الكبيرة العديمة النفع التي يحيون بها. اشترت زوج زلاجات لابنها، وهي تعرف أنها غير مناسبة لثلج «نيو هامبشير»، وعربة لابنتها أقل جودة مما بإمكان براد صنعه في ساعة. تجاهلت ألعاب صناديق البريد، والفونوغرافات ذات الأسطوانات الموسيقية الصغيرة الخاصة بها، ومستحضرات التجميل الخاصة بالفتيات الصغيرات، وخرجت من المتجر متجهة إلى البيت.

كانت خائفة بحقّ من أن تستقلّ الحافلة؛ وقفت عند الزاوية وانتظرت سيارة أجرة، وبينما كانت تنظر إلى رجليها رأت على الرصيف دايما[1] فحاولت التقاطه، لكن المارة كثر لتنحني، وكلّها خوف من أن تتعرض للدفع أو لنظرة ريبة. وضعت قدمها عليه ثم رأت إلى جانبه ربع دولار ونيكل[2]. لا بدّ أنها سقطت من محفظة أحدهم، فكّرت، ووضعت بخفّة قدمها الثانية على الربع متظاهرة بأن كلّ شيء طبيعي، ولترى دايم ونيكل آخرين، وثلث الدايم على فتحة التصريف، بينما المارة يجتازونها جيئة وذهاباً بلا توقف،

1- عملة معدنية قيمتها 10 سنتات. المترجم

2- 5 سنت. المترجم.

مستعجلين، ومندفعين باتجاهها من دون النظر إليها، هي الخائفة من أن تنحني وتجمع النقود. ثمة مارة آخرون رأوها ومرّوا بجانبها، ولتدرك أن لا أحد منهم سيلتقطها. لا بدّ أنهم جميعاً محرجين، أو في عجلة من أمرهم، أو على قدر كبير من الجبن. لوّحت إلى تاكسي فتوقف لينزل أحدهم. رفعت قدميها عن الدايم والربع، وتركتهما هناك حيث استقلّت التاكسي، والذي مضى ببطء وهو يخضّ ويهتزّ؛ وباتت تلاحظ أن التداعي المتنامي ليس حكراً على التاكسي، فالحافلات متصدعة ومتداعية جرى ترقيعها كيفما اتفق، والمقاعد الجلدية مكسورة وملطخة. وراحت تتأمل المباني، أيضاً- في واحد من أفخم المتاجر ثمة حفرة كبيرة في الأرضية اللامعة المبلطة، يجدر تجنّبها. وبدت زوايا الأبنية متفتتة إلى تراب، مع تآكل الغرانيت الذي لا يأبه به أحد، وكلّ نافذة رأتها في طريقها إلى وسط المدينة كانت مخلّعة، وعند كلّ زاوية شارع أعمال تجديد، وكان الناس يغذّون سيرهم مسارعين أكثر من السابق؛ صبية بثوب أحمر ظهرت من الطرف الأعلى من نافذة التاكسي، وأصبحت في طرفه الأسفل من دون أن تستطيع رؤية قبعتها؛ وواجهات المحلات براقة لأن رؤيتك لها لا تتجاوز جزءاً من الثانية. الناس كما لو أنهم مقذوفون في سعار محموم جعل من الساعة خمساً وأربعين دقيقة، واليوم تسع ساعات، وسائر السنة أربعة عشر يوماً. الطعام سريع على نحو مخاتل، يؤكل بالسرعة ذاتها، كما لو أنك جائع على الدوام، ودائماً ما تسارع إلى وجبة جديدة مع أناس جدد، ولكلّ شيء أن يزداد سرعة على نحو غير مفهوم. استقلّت سيارة الأجرة من جهة وترجّلت من الجهة الأخرى إلى بيتها؛ ضغطت على زرّ الطابق الخامس في المصعد وكان عليها أن تخرج مجدّداً، فاستحمّت وارتدت ثيابها واستعدّت للعشاء مع براد. خرجا إلى العشاء وعادا جائعين، مسارعين إلى السرير لينهضا ويتناولا فطورهما ومن بعده الغداء. لقد مرّت تسعة أيام على إقامتهما في نيويورك؛ غداً السبت حيث سيذهبان إلى «لونغ أيلاند»، ويعودان الأحد، والأربعاء سيعودان إلى بيتهما، بيتهما بحقّ. وما إن فرغت من تفكيرها في ذلك حتى وجدت نفسها على متن قطار متجه إلى لونغ أيلاند؛ قطار متداعٍ، كراسيّه ممزقة وأرضيته قذرة؛ الأبواب يتعذر فتحها والنوافذ لا توصد. وراحت تفكّر وهي تجتاز ضواحي المدينة، أن كلّ شيء

يسافر مسرعاً ولما هو صلب ألّا يصمد متفتتاً إلى قطع جرّاء الإجهاد، الأفاريز تخلّعت وانخسفت النوافذ وقد صارت على بينة، لكنها كانت خائفة من قول الحقيقة، خائفة من مواجهة ما توصلت إليه من أنها سرعة طوعية تكسر الأعناق، دوامة متعمدة تمضي أسرع فأسرع لتنتهي بالهلاك.

أخذهما مضيفهما في «لونغ آيلاند» إلى قطعة جديدة من نيويورك، إلى بيت متخم بأثاث نيويوركي كما لو أن قطعه وضعت على شرائط مطاطية، وقذف بها كلّ هذه المسافة، وانتشرت كيفما اتفق، وكلّها جهوزية للعودة إلى المدينة، إلى شقة، بمجرد أن يفتح الباب وينتهي عقد الإيجار المدفوع. «نستأجر هذا المكان كلّ سنة منذ زمن طويل، ولولا ذلك لما حصلنا عليه هذا العام»، قال مضيفهما.

«مكان لطيف جدّاً. أستغرب أنك لا تعيش فيه طيلة العام»، قال براد.

«يجب عليّ أن أقصد المدينة أحياناً»، قال وضحك.

«لا يشبه كثيراً نيو هامبشير»، قال براد. مسّه الحنين، تبادر إلى ذهن مارغريت؛ يرغب ولو يصرخ، ولو لمرة. منذ هلعها من الحريق أمست ترتاب من اجتماع عدد كبير من الناس؛ وحين بدأ توافد الأصدقاء بعد العشاء تريّثت قليلاً، وهي تقول لنفسها إنها في طابق أرضي، وبمقدورها أن تركض مباشرة إلى الخارج، وكلّ النوافذ مفتوحة؛ وأعفت نفسها من ذلك وأوت إلى السرير. استيقظت حين وافاها براد بعد نومها بكثير وقال لها منفعلاً: «كنا نلعب أناغرام.[1] يا لهم من مجانين». سألته وهي نصف صاحية: «هل ربحت؟». وغطّت في النوم قبل أن تسمع الإجابة.

تنزّها صبيحة اليوم التالي مشياً على الأقدام، بينما كان مضيفهما ومضيفتهما يقرآن صحف الأحد. قالت لها مضيفتها مشجعة: «إن اتخذت يمينك حين خروجكما، ومشيتما مسافة ثلاثة تجمعات مباني، ستصلان إلى الشاطئ».

«وما الذي يريدانه من شاطئنا؟ الجوّ بارد جدّاً للقيام بأيّ شيء هناك»، قال مضيفهما.

1- لعبة قوامها الكلمات والعبارات أو الأسماء، يجري التنافس فيها على استخلاص كلمات أو عبارات جديدة عبر إعادة ترتيب الأحرف والكلمات. المترجم

«يمكنهما رؤية المياه». قالت مضيفتهما.

توجّها نحو الشاطئ، وبدا في تلك الفترة من السنة عارياً تذروه الريح، وإنه ما زال ينوء ببقايا ريش طيور الصيف على نحو بشع، يحسب بذلك أنه يشيع جوّاً مرحباً دافئاً. طالعتهما في طريقهما بيوت مسكونة، ومطعم وجبات سريعة فاتحاً أبوابه، معلناً عن تقديمه «الهوت دوغ» والمشروبات، وقد رمقهما الرجل المتواجد فيه بوجه بارد جامد. اجتازاه، بعيداً عن البيوت، على امتداد الرمل المتداخل مع الحصى الرمادية المتواجد بين المياه الرمادية والكثبان الرملية الحصوية.

«تخيّل أننا نسبح هنا»، قالت مرتجفة. أدخل الشاطئ السرور إلى قلبها؛ لقد كان أليفاً ومبعثاً للطمأنينة، وفي الوقت نفسه أدركت أن ذلك اللحن الوجيز عاودها مجدّداً، مستحضرة معه ذكرى مزدوجة. الشاطئ هو المكان الذي عاشته في مخيّلتها، تكتب لنفسها قصصاً حزينة عن حبّ محطّم حيث تمشي بطلتها بجوار أمواج عاتية، وما اللحن إلّا رمز عالم ذهبي تلجأ إليه متجنبة كآبة يومية تدفعها لكتابة قصص حزينة عن الشاطئ. ضحكت عالياً، فقال براد: «ما الممتع في مكان مهجور كهذا؟».

«فكّرت كم نحن بعيدون عن المدينة»، قالت ملفقةً.

يتسيّد اللون الرمادي السماء والماء والرمل مما يدفع للشعور بأن الوقت أواخر العصرية بدلاً عن منتصف الصباح؛ تعبت وأرادت العودة، لكن براد قال فجأة: «انظري هناك»، التفتت ورأت فتاة تركض صاعدة الكثبان، حاملة قبعتها، وشعرها يطير خلفها.

«سبيلها لتحظى بالدفء في يوم كهذا»، قال براد، لكن مارغريت قالت: «تبدو خائفة».

رأتهما الفتاة وتوجّهت نحوهما، مقلّلة من سرعتها كلّما اقتربت، متلهّفة للوصول، إلّا أنها وما إن أصبحت على مسافة تتيح لها أن تتكلّم تلبّسها الإحراج، جرّاء تجنّبها أن تبدو خرقاء، ما جعلها تتردّد وتنقّل ناظريها بينهما بضيق.

ونطقت أخيراً قائلة: «هل تعرفان أين لي أن أجد شرطيّاً».

تفقّد براد بناظريه الشاطئ الصخري العاري وقال بوقار: «لا يبدو أن أحداً هنا. هل هناك ما نستطيع فعله؟».

«لا أظنّ، أنا بحاجة ماسّة لشرطي».

يقصدون الشرطة في نيويورك لأيّ شيء، فكّرت مارغريت، كما لو أن لديهم أقساماً موزعة على السكّان لحلّ المشاكل، غير مكترثين بالسبب الذي يدفعهم للبحث عن شرطي.

«يسرّنا أن نساعد إن كان بمقدورنا ذلك»، قال براد.

تردّدت الفتاة مجدّداً: «ليكن، إن كان يجب أن تعرف. ثمة رِجلٌ هناك».

انتظرا بهدوء أن تفصح أكثر، لكنها قالت فقط: «تعالا»، وأشارت إليهما أن يتبعاها. قادتهما صاعدة الكثبان إلى بقعة قريبة من خليج صغير، حيث تظهر فجأة بين الكثبان فسحة من مياه. كانت الرِّجل مرمية على الرمل قرب المياه، وأشارت إليها الفتاة: «هناك»، كما لو أنها تنتمي إليها وقد أصرّا على مشاركتها إياها.

توجّهوا نحوها وانحنى براد بحذر: «إنها رِجل بحقّ»، قال. بدت جزءاً من دمية شمعية، رجلاً شمعية شاحبة شحوب الموت اجتثت من أعلى الفخذ، وطويت عند الركبة بيسر واستقرّت على التراب. «إنها حقيقية. أنت محقّة بشأن الشرطة». قال براد.

مضوا جميعاً إلى المطعم وكان الرجل هناك ينصت لبراد وهو يتحدث مع الشرطة غير مكترثٍ. حين جاءت الشرطة عادوا مجدّداً إلى حيث كانت الرِّجل، وزوّدهم براد باسمهما وعنوانهما، ثم قال: «هل من المقبول أن نعود إلى نيو هامبشير؟».

«ولماذا تبقى بحقّ الجحيم؟». استفسر الشرطي، وتندر بثقل دم: «هل تريد ما بقي منها؟».

عادا إلى مضيفهما، وتحدثا عن الرِّجل، فاعتذر منهما، كما لو أنه شعر بالذنب لإخلاله بأصول الضيافة بتركهما يعثران على رِجل آدمية؛ ولتقول مضيفتهما التي أبدت اهتماماً بما سمعت: «قرأت عن ذراع جرفتها الأمواج في ينسون هيرست».

«جريمة من الجرائم»، قال المضيف.

قالت مارغريت بجدّية وهما في غرفتهما في الأعلى: «أظنّ أن جميعها تحدث بداية في الضواحي»، وحين سألها براد: «ماذا تقصدين بما يحدث؟». أجابت على نحو هستيري: «تقطيع البشر».

لطمأنة مضيفهما عن حالتهما المتصلة بحادثة الرِّجل، بقيا لغاية موعد آخر قطار متوجّه إلى نيويورك عصراً. بعد عودتهما، بدا رخام مدخل البناية لمارغريت أكثر قدماً؛ تشققاته أصبحت بادية للعيان في غضون يومين، كما تراءى لها المصعد صدئاً، وثمة طبقة غبار تغطي كلّ شيء في الشقة. أويا إلى السرير منهكين، وفي صباح اليوم التالي قالت مارغريت في الحال: «لن أخرج اليوم».

«لست مستاءة جرّاء ما حصل بالأمس؟».

«إطلاقاً. أريد فقط أن ألازم البيت وأرتاح».

بعد أخذ وردّ قرّر براد أن يخرج وحيداً؛ هناك أناس من الضروري أن يلتقيهم وأمكنة يقصدها في الأيام القليلة المتبقية. بعد تناولهما الفطور في «أتومات» عادت مارغريت وحدها إلى الشقة، ومعها رواية من روايات الألغاز اشترتها في طريقها. علّقت معطفها وقبعتها وجلست بجانب النافذة والصخب والناس بعيدون في الأسفل، تنظر إلى السماء التي كانت رمادية خلف البيوت على امتداد الشارع.

لا تقلقي، قالت لنفسها، ما من فائدة في التفكير في تلك الأشياء طيلة الوقت، سأخرّب عطلتي وعطلة براد أيضاً. لا جدوى من القلق، تهيمن على الناس أفكار كهذه فتثير قلقهم.

عاودها ذلك اللحن الوجيز الفاحش، مع ما يحمله من خيلاء وعطر فاخر. وكان الشارع غارقاً في الصمت وفارغاً في هذا الوقت من اليوم؛ تركت لعينيها أن تتنقلا على إيقاع اللحن، من نافذة إلى أخرى في كلّ طابق. وبمسحها بناظريها نافذتين، اتخذت مساراً من اللحن متسقاً مع نوافذ طابق، ثم تلاحقت أنفاسها وأنزلت عينيها إلى الطابق التالي؛ فيه عدد النوافذ نفسه المماثل لعدد النقرات في اللحن، وهكذا دواليك من طابق إلى آخر. توقّفت

فجأة حين تراءى لها أن حافة نافذة مرّت عليها بناظريها كانت تتفتت بصمت واستحالت رملاً ناعماً.

لا داعي للقلق، خاطبت نفسها، مخفضة ناظريها إلى الشارع، توقّفي عن التفكير طيلة الوقت. مراقبتها للشارع لزمن طويل دوّختها فنهضت وذهبت إلى غرفة النوم الصغيرة. رتّبت السرير كما تفعل سيدات البيوت المجتهدات قبل خروجهن لتناول الفطور، لكنها تعمّدت هذه المرة نزع كلّ شيء عن السرير، جرّدته من البطانيات والملاءات فاصلة بينها، ثم رتّبتها، الأمر الذي استغرق وقتاً طويلاً في الزوايا وتسوية الثنيات والتجعدات. «تمّ الأمر»، قالت، وعادت إلى النافذة. حين نظرت إلى الشارع مجدّداً عاودها اللحن، ورأت عتبات النوافذ تتلاشى وتسقط. مدّت رأسها ناظرة إلى عتبة نافذتها، شيء لم يتبادر إلى ذهنها من قبل، وكانت عتبتها تتآكل؛ حين لمستها تفتتت بعض أحجارها وسقطت.

إنها الحادية عشرة صباحاً؛ براد يبحث عن موقد لحام ولن يعود قبل الواحدة، أو أكثر. فكّرت أن تكتب رسالة لترسلها إلى ديارها، إلّا أن رغبتها بذلك فارقتها قبل أن تعثر على ورقة وقلم. وحصل أن تبادر إلى ذهنها أن تأخذ قيلولة، الأمر الذي لم تفعله صباحاً في حياتها، مضت وتمدّدت على السرير، ولتحسّ وهي متمدّدة بالبناية تهتزّ.

لا داعي للقلق، خاطبت نفسها مجدّداً، كما لو أنها تعويذة تواجه بها الساحرات، ونهضت ووضعت عليها معطفها وقبعتها. سأحضر بعض السجائر وأوراق الرسائل، فقط هناك على ناصية الشارع. تشبّث بها الهلع في المصعد؛ لقد كان ينزل بسرعة، ولولا وجود أناس حين خطت إلى مدخل البناية لركضت. وفي حالتها تلك، خرجت مسرعة من البناية إلى الشارع. تردّدت لبعض الوقت، وأرادت العودة. السيارات تعبر مسرعة، والناس أيضاً كما دأبوا، إلّا أن الهلع الذي هبط عليها في المصعد دفع بها وقادها إلى الناصية، متتبعة المارة وهم يكادون يطيرون من السرعة. عبرت الشارع، وسمعت زعيق بوق سيارة عبر رأسها وصرخة من خلفها، وصوت كوابح. هرعت غير مبصرة ووصلت إلى الجهة الأخرى حيث وقفت ونظرت حولها. كان هناك شاحنة تمضي في مسارها المحدّد قرب الناصية، والمارة يمرّون بها من جانبيها، متجنبين الاصطدام بها حيث هي واقفة.

لا أحد يرمقني بنظرة، فكرت مطمئنة نفسها، كلّ من رآني مضى منذ زمن. دخلت إلى البقالة واشترت سجائر؛ الشقة الآن آمنة أكثر من الشارع – بمقدوري صعود السلّم. خرجت من البقالة وتوجهت نحو الناصية، محافظة على مجاورتها للمباني قدر الإمكان، من دون أن تعطي الطريق للخارجين من مداخل الأبنية. عند الزاوية راقبت الإشارة الضوئية بتركيز تام؛ كانت على الضوء الأخضر، ومع ذلك توحي بأنها ستتغير. من الأسلم دائماً الانتظار، فكّرت، لا تريد العبور من أمام شاحنة أخرى.

تدافع الناس وهم يتجاوزونها وبعض منهم علق وسط الشارع حين تغير لون الإشارة الضوئية. امرأة أكثر جبناً من الآخرين، التفتت وعادت مجدّداً إلى الرصيف، بينما ظلّ البقية في منتصف الشارع، يخطون خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الخلف موازنين أجسامهم وفق حركة مرور المركبات وهي تجتازهم من الطرفين. أحدهم تمكن من العبور إلى الرصيف الثاني بمجرد انقطاع السير وجيزاً في مسرب واحد، الآخرون تأخروا عنه بجزء من الثانية فلازموا مكانهم. تغيّر ضوء الإشارة مجدّداً وما إن تمهّلت السيارات حتى خطت مارغريت إلى الشارع، فإذا بتاكسي يصدر اهتزازت وقرقعات صاخبة قرب الناصية أفزعها فعادت ولازمت الرصيف من جديد. وبذهاب التاكسي حان وقت تغيّر ضوء الإشارة، فخلصت إلى أنها ستنتظر مرة أخرى، إذ لا معنى من أن تعلق وسط الشارع. رجل بجانبها راح يخبط قدمه على الأرض بنفاد صبر يريد للضوء أن يتغيّر؛ فتاتان تجاوزتاها ووقفتا على مبعدة بضع خطوات أمامها، تبتعدان قليلاً كلّما جاءت سيارة شديدة القرب منهما، من دون أن يقطعا حديثهما الشائك. يجب عليَّ أن أبقى بجانبهما، فكّرت مارغريت، لكنهما عادتا بعدئذٍ لتصبحا أمامها تماماً، وحين تغيّرت الإشارة والرجل المجاور لها اندفع مسرعاً إلى الشارع، انتظرت الفتاتان لبرهة ثم مضتا ببطء، وهما تتحدثان، وهمّت مارغريت بتتبّعهما إلّا أنها عدلت وقرّرت الانتظار. سرعان ما تشكّلت حولها جمهرة جديدة؛ نزلت من الحافلة، وانتابها شعور بأنها محصورة في المركز وستدفع إلى الشارع حين يتحركون مع تغيّر الإشارة، فشقّت طريقها بصعوبة بالغة وخرجت من الحشد لتتكئ إلى حائط بناية وتنتظر. بدا لها أن المارّة باتوا ينظرون إليها.

تساءلت، كيف أتراءى لهم، ووقفت باستقامة كما لو أنها تنتظر أحداً. نظرت إلى ساعتها وتجهّمت، وأيّ حمقاء أبدو لهم، ما من أحد رآني هنا من قبل، وجميعهم يمضون مسرعين. عادت مجدّداً إلى الرصيف وسرعان ما تبدّل الضوء الأخضر إلى الأحمر، فقرّرت العودة إلى البقالة وشرب قنينة كولا، من غير المعقول أن أعود إلى الشقة.

حين رآها البائع عائدة لم يفاجأ وهي بدورها جلست وطلبت قنينة كولا، وبينما كانت تشربها داهمها مجدّداً الهلع، مسترجعة الأناس الذين كانوا برفقتها حين حاولت عبور الشارع، وقد صاروا بعيدين الآن، حاولوا واجتازوا دزينة إشارات ضوئية، بينما لا تزال هي متردّدة أمام الأولى؛ لقد صاروا الآن على بعد ميل أو أكثر في وسط المدينة، جرّاء مضيّهم قدماً، بينما هي تحاول استجماع شجاعتها. دفعت للرجل مستعجلة، وحالت اندفاعتها دون أن تخبر الرجل أن الكولا جيدة وليست هي سبب مغادرتها، فكلّ ما عليها فعله، هو العودة، هذا كلّ شيء، فسارعت خطواتها نحو ناصية الشارع مجدّداً.

حين تغيّر ضوء الإشارة، خاطبت نفسها بحزم؛ يكفي. تغيرت الإشارة قبل أن تصبح مستعدة، وفي دقيقة قبل استجماع نفسها غمرها سيل السيارات فانكمشت عائدة إلى الرصيف. نظرت بلهفة إلى متجر السيجار المقابل للناصية، وبناية شقتها خلفه؛ تساءلت، كيف للناس أن يتدبروا أمر عبورهم إلى هناك، ولتدرك أن تساؤلها هذا إقرار بشكوكها، وبأنها ضاعت. تغيّر ضوء الإشارة ونظرت إليها بحنق، كشيء أبله، تقبل وتدبر، تقبل وتدبر، من دون غاية أو معنى. تسترق النظر من حولها، لترى ما إذا كان أحد يراقبها، وتعود إلى الخلف بهدوء، خطوة، خطوتين، وها قد أصبحت بعيدة عن الرصيف. عادت إلى البقالة مجدّداً وترقبت أيّ علامة من الموظف توحي بتعرفه عليها لكن ما من شيء أوحى بذلك؛ نظر إليها بجفاء المرة الأولى. أشار إلى الهاتف من دون اهتمام؛ لن يهتمّ بمن سأتصل، فكّرت.

لم يتح لها الوقت الفرصة للإحساس بأنها حمقاء، لأنهم يجيبون على المكالمات بسرعة ولباقة ويصلونها مباشرة. حين أجابها، كان صوته متفاجئاً وعمليّاً، وهي ما كان بمقدورها إلّا أن تقول بصوت يستدعي الشفقة: «أنا في البقالة التي على ناصية الشارع. تعالَ واصحبني».

«ماذا حصل؟». لم يكن متلهفاً للمجيء.

«أرجوك تعالَ وخذني»، قالت في صوان الهاتف الأسود الذي ربما سيوصل إليه ما قالته وربما لا: «أرجوك تعالَ وخذني، أرجوك يا براد».



رجال بأحذيتهم الكبيرة

كان ذلك الصيف الأول للسيدة الشابة هارت الذي تمضيه في الريف، والسنة الأولى التي تمرّ عليها وهي متزوجة وسيدة بيت؛ وعمّا قريب ستلد طفلها الأول، ولها أن تكون المرة الأولى أيضاً، التي ستحظى، أو تفكّر فيها أن تحظى، بمن له أن يحمل ولو من بعيد صفة خادمة. وراحت تمضي يوميّاً ساعات من أوقات راحتها التي سألها الطبيب الالتزام بها، وهي تهنئ نفسها وكلّها سكينة وطمأنينة، وقد كانت ترى، حين تجلس على الكرسي الهزّاز في الشرفة الأمامية، الشارع الهادئ والأشجار والحدائق والناس الودودين المتبسمين لها حين مرورهم من أمامها، كما يمكنها حين تلتفت أن تنظر عبر نافذة وسيعة إلى بيتها، إلى غرفة المعيشة الجميلة بستائرها القطنية المطبّعة وأغطيتها المتماثلة وأثاثها الخشبي الفاخر، وإن رفعت رأسها قليلاً فسترى نوافذ غرفة نومها مغطاة بستائر بيضاء مزركشة. إنه بيت بحقّ: بائع الحليب يوصل الحليب على باب بيتها كلّ صباح، والأصص المطلية بألوان زاهية مصطفّة على امتداد الشرفة وفيها نباتات حقيقية تتنامى وتتطلب السقاية بانتظام، والطبخ يجري على موقد بحقّ في المطبخ، بينما تتشكى السيدة أندرسون على الدوام من آثار الأحذية على الأرضيات النظيفة، كما لخادمة حقيقية أن تفعل.

«الرجال يوسخون البلاط»، ستقول السيدة أندرسون، وهي تراقب ما يخلّفه كعب حذاء نسائي. «راقبي المرأة، دائماً ما تخطو بهدوء. أما الرجال فلهم أحذية كبيرة». ولتمسح كيفما اتفق أثر الحذاء بأصبعها المحاط بخرقة.

ورغم كون السيدة هارت تهاب السيدة أندرسون على نحو لامنطقي،

هي التي سمعت وقرأت كثيراً عن أن ربات البيوت في هذه الأيام يخشين مساعداتهن المنزليات، إلّا أنها لم تفاجأ بداية من نفورها الخجول المهادن، ولتأتي شراسة سطوة السيدة أندرسون، فطريّاً جرّاء معرفتها بأشياء مثل التعليب وإعداد سائل السكر المحروق والمعجنات. حين قصدتها السيدة أندرسون بجثتها الضخمة ووجهها المتورد، وشعرها الملموم إلى الخلف على نحو منفّر، وقدّمت نفسها عارضة خدماتها أمام الباب الخلفي، وافقت السيدة هارت بلا تفكير، وهي عالقة وسط نوافذ متسخة ومخلفات ترتيب الأثاث المنقول حديثاً والغبار؛ بدأت السيدة أندرسون بتعقل من المطبخ، وأول عمل قامت به هو إعداد فنجان شاي ساخن للسيدة هارت: «يجب أن تتجنبي التعب والإرهاق»، قالت وهي تنظر إلى خصر السيدة هارت. «يجب أن تنتبهي لنفسك طيلة الوقت».

ومع اكتشاف السيدة هارت أن السيدة أندرسون لا يخرج من يديها شيء نظيف كما يجب، وعاجزة تماماً عن إعادة شيء إلى مكانه، بات من الصعب التفكير بفعل شيء بخصوصها. كانت آثار أصابع السيدة أندرسون على كلّ النوافذ، وكان فنجان شاي السيدة هارت مفتتحها اليومي؛ تضع السيدة هارت الماء على النار لتغلي بعد الفطور وتعدّ السيدة أندرسون الشاي في التاسعة. «تحتاجين فنجاناً من الشاي لتبدئي يومك على نحو حسن»، تقول ذلك متودّدة: «إنه ينظم معدتك على مدار اليوم».

لم تترك السيدة هارت لنفسها أن ترى في السيدة أندرسون أكثر من كونها مصدر فخر وراحة طالما أنها تتولى كلّ أعمال المنزل «نعمة يومية»، كتبت لصديقتها في نيويورك: «لا بل إنها تعتني بي كما لو أنني طفلتها بحقّ!»؛ لم تتبيّن السيدة هارت قناعتها بصواب نفورها الأولي من السيدة أندرسون إلّا بعد مواظبة الأخيرة على المجيء كلّ صباح لأكثر من شهر.

لقد كانت صبيحة يوم مشمس دافئ، كان الأول بعد أسبوع من الأمطار، حيث ارتدت السيدة هارت احتفاء به ثوباً منزليّاً جميلاً –قامت بغسله وكيّه السيدة أندرسون– وسلقت لزوجها بيضاً لفطوره، ورافقته في الممشى أمام البيت ملوّحة له لحين وصوله إلى ناصية الشارع وصعوده الحافلة التي توصله إلى عمله في مصرف في بلدة مجاورة. أثار إعجابها وهي تتمشّى

عائدة إلى البيت، ضوء الشمس على مصاريع النوافذ الخشبية الخضراء، وحادثت جارتها بودّ بالغ، التي كانت قد خرجت للتوّ لتكنس شرفتها. قريباً سيلعب طفلي في الحديقة، فكّرت السيدة هارت، وتركت باب بيتها مشرعاً لتدخل أشعة الشمس ومضت إلى داخل البيت. حين وصلت إلى المطبخ رأت السيدة أندرسون جالسة إلى الطاولة وقد صبّت الشاي.

«صباح الخير. أليس يوماً جميلاً؟». قالت السيدة هارت.

«صباح». أشارت إلى الشاي بيد متراخية. «عرفت أنك أمام البيت فجهّزت كلّ شيء. لا يمكن لك بدء يومك من دون احتساء فنجان شاي».

«ظننت أن الشمس لن تشرق مجدّداً»، وجلست إلى الطاولة وقرّبت فنجان الشاي منها. «جميل أن ننعم بالدفء والصحو».

«ينظم معدتك، الشاي، لقد أضفت إليه السكر. ستعانين مع معدتك اليوم».

«لعلمك، في مثل هذه الأيام من الصيف الماضي كنت أعمل في نيويورك ولم يتبادر إلى ذهني بأنني وبيل سنتزوج»، قالت السيدة هارت مبتهجة، وأردفت ضاحكة: «لا يمكن توقع ما ينتظرك».

«حين تسوء الأمور، فإما أن يقضي عليك أو تقومي بتحسينها. كان لديَّ جارة درجت على قول ذلك». تنهدتْ ونهضت، آخذة معها فنجانها إلى المجلى. «طبعاً هناك كثر لا يطالعهم الحظ الجيد كثيراً».

«ثم حصل كلّ شيء في غضون أسبوعين. حصل بيل على هذا العمل هنا وأهدتنا الصبايا في المكتب آلة تحضير كعك الويفيل».

«إنها على الرفّ»، قالت السيدة أندرسون، وأخذت فنجان السيدة هارت. «يجب أن تقلّلي من حركتك، لن تحظي بفرصة مماثلة تكونين فيها على هذا القدر من الراحة»، أردفت السيدة أندرسون.

«أنسى المواظبة على الجلوس والراحة، فكلّ شيء مثير ومبهج».

«أقول ذلك من باب اهتمامي بك».

«هذا من لطفك. تأتين كلّ صباح وتحيطينني بعناية جيدة»، قالت السيدة هارت طائعة.

«لا داعي للشكر. كلّ ما أرغب به هو أن تلدي بسلام».

«لكنني لم أكن لأعرف ما أفعله من دونك»، قالت السيدة هارت، وتبادر إلى ذهنها في الحال، بأن هذا كافٍ لليوم، وباتت تضحك بصوت عالٍ جرّاء فكرة التصدق بحصة يومية من الامتنان للسيدة أندرسون، كما لو أنها علاوة إضافية على أجرتها المحتسبة بالساعة. ورغم أن ذلك أصبح أمراً واقعاً، إلّا أنها تعتقد بأن عليها قوله كلّ يوم.

«ما الذي يضحكك؟». قالت السيدة أندرسون نصف ملتفتة وزنداها الأحمران مسندان إلى المجلى. «هل قلت ما يضحك؟».

«كنت أفكّر بالصبايا اللواتي كنّ معي في العمل. سيحسدنني كثيراً إذا ما رأين ما أنا عليه الآن».

«لا تعلمين متى يصبحن غنيات».

مدّت السيدة هارت جسمها ورفعت طرف ستارة النافذة الصفراء بجانبها، وهي تفكر بالمكتب المعتم وشقق نيويورك المكونة من غرفة واحدة.

«أتمنى لو تزورني البهجة في هذه الأيام»، واصلت السيدة أندرسون حديثها.

تركت السيدة هارت الستارة بسرعة والتفتت مبتسمة بتعاطف: «أعرف»، همهمت.

«لن تعرفي مبلغ السوء الذي وصله»، قالت السيدة أندرسون، وأمالت رأسها مشيرة إلى الباب الخلفي: «لقد عاد إلى سابق عهده. طيلة الليل». لم تعد السيدة هارت تعرف ما إذا كان المقصود السيد أندرسون أم السيد هارت؛ أن تشير السيدة أندرسون برأسها إلى الباب الخلفي أي الطريق الذي يقودها يومياً إلى بيتها فهذا يعني أنه السيد أندرسون؛ وبالإشارة نفسها إن كانت موجهة إلى الباب الأمامي حيث تستقبل السيدة هارت كلّ يوم زوجها، فإن هذا الأخير هو المقصود.

«لم أحظَ بلحظة نوم»، قالت السيدة أندرسون.

«يا للعار»، قالت السيدة هارت، ونهضت بسرعة وفتحت الباب الخلفي. «مناشف الصحون على حبل الغسيل».

«سأحضرها لاحقاً»، وواصلت السيدة أندرسون حديثها: «يصرخ ويلعن، وكنت على شفا الجنون، وهو يقول لي لِمَ لا تنقلعين وتذهبين؟ وواصل على هذا المنوال وفتح الباب على مصراعيه وبات يصرخ مسمعاً الجيران، لِمَ لا تنقلعين؟».

«هذا مريع»، قالت السيدة هارت ويدها على مقبض الباب الخلفي.

«سبع وثلاثون سنة»، قالت السيدة أندرسون وهي تهزّ رأسها: «ويريدني أن أغادر البيت». وراحت تراقب السيدة هارت وهي تشعل سيجارة: «يجب أن تتوقفي عن التدخين. على الأرجح سيكون لذلك عواقب وخيمة إن واصلت التدخين على هذا النحو. لهذا لم أنجب أيّ أولاد، ما الذي سأكون عليه لو فعل ما فعل والأولاد حولنا منصتين؟».

توجّهت السيدة هارت نحو الموقد وتفقدت إبريق الشاي. «أظن أنني أريد فنجاناً ثانياً، هل ترغبين بواحد آخر سيدة أندرسون؟».

«لقد حرق قلبي»، قالت السيدة أندرسون، ووضعت فنجاناً على الطاولة. «لقد غسلته للتوّ، إلّا أنه فنجانك، وهو بيتك، ولك أن تفعلي ما تريدين».

ضحكت السيدة هارت وأحضرت إبريق الشاي إلى الطاولة، وراحت السيدة أندرسون تراقبها وهي تصبّ الشاي ثم أخذت الإبريق وقالت: «سأغسله، لكن قبل أن تشربي المزيد»، أخفضت صوتها وأردفت: «الكثير من السوائل تؤذي الكليتين».

«دائماً ما احتسي الكثير من الشاي والقهوة».

نظرت السيدة أندرسون إلى الصحون المجلية، ثم التقطت ثلاث كؤوس في كلّ يد. «لديك الكثير من الكؤوس المتسخة هذا الصباح».

«لقد كنت متعبة جدّاً ليلة الأمس»، قالت السيدة هارت: «هذا عدا، أنني قد فكّرت في أن أدفع لك لقاء تنظيفها»، وأردفت مضفية رقّة على صوتها: «وبالتالي تركت كلّ شيء لك».

«عملي أن أنظف خلف الناس. على أحد ما أن يتولّى العمل القذر عن البقية. هل زارك ضيوف كثر؟».

«بعض معارف زوجي، ستة أشخاص».

«يجدر بزوجك ألّا يحضر أصدقاءه إلى البيت على هذا النحو»، قالت السيدة أندرسون.

استعادت السيدة هارت الحديث الممتع عن مسرح نيويورك والحانة التي سيذهبون للرقص فيها قريباً، والمديح الذي تلقته على حسن ترتيب بيتها، وعرضها أغراض الطفل على زوجتين شابتين، ولتتنهد، وقد نسيت حديث السيدة أندرسون.

«- يحضرهم إلى هنا في حضور زوجته». اختتمت السيدة أندرسون حديثها وهي تشير برأسها ناحية الباب الأمامي. «هل يفرط بالشرب؟».

«لا، لا يشرب كثيراً».

هزّت السيدة أندرسون رأسها وقالت: «أعرف ما قصدك. لقد راقبتهم وهم يحتسون الكأس تلو الأخرى من دون أن تجدي سبيلاً لتطلبي منهم أن يتوقفوا. ثم شيء ما قادهم إلى الجنون، وأول ما توصلوا إليه هو أن تغادري». هزّت رأسها مجدّداً، وأردفت: «ليس لأيّ امرأة القيام بشيء، سوى أن تكون متأكدة من وجود مكان تلجأ إليه حين تخرج».

قالت السيدة هارت بحذر: «لا أعتقد سيدة أندرسون أن كلّ الأزواج -».

«لم يمضِ على زواجك سوى سنة، وما من أحد يكبرك متواجد حولك». قالت السيدة أندرسون ممتعضة.

أشعلت السيدة هارت سيجارة ثانية من الأولى. «حقيقة إنني لست قلقة من شرب زوجي على الإطلاق»، قالت بحزم.

توقفت السيدة أندرسون، وهي تحمل عدداً من الصحون: «قلقة من امرأة أخرى؟ هل الأمر كذلك؟».

«ما الذي دفعك لقول ذلك؟ بيل لن ينظر -».

«أنت بحاجة لمن يعتني بك في أوقات كهذه. لا تظنّي أنني لا أعرف؛ يجب فقط أن تخبري أحداً بذلك. أعتقد أن كلّ الرجال متشابهون في معاملتهم لزوجاتهم، لبعضهم أن يكونوا سكيرين، ومنهم من يبذّرون أموالهم على القمار، وآخرون يلاحقون كلّ صبية يصادفونها». وصدرت

عنها ضحكة فظة: «والبعض لم يعد شاباً، تلك هي إجابات الزوجات إن سألتهن عن أزواجهن. لو أن النساء يعلمن ما سيصير إليه الرجال، لقلّ الزواج».

«أؤمن أن الزواج الناجح مسؤولية المرأة»، قالت السيدة هارت.

«أخبرتني السيدة مارتين في البقالة، منذ بضعة أيام، عن بعض أفعال زوجها قبل وفاته»، قالت السيدة أندرسون: «لن يساورك الشك بأفعال بعض الرجال». وراحت تتملّى الباب الخلفي. «بعض الرجال أسوأ من غيرهم، مع أنها تراك جميلة بحقّ، وهي بحقّ تراك كذلك».

«هذا لطف منها»، قالت السيدة هارت.

«لم أقل أيّ شيء عنه»، قالت السيدة أندرسون، وهي تحرك رأسها باتجاه الباب الأمامي. «لم أذكر أيّ أسماء، ولا أيّ مكان يمكن لأحد أن يظن بأنني على معرفة بناسه».

استعادت السيدة هارت نظرات السيدة مارتين بعينيها الحادتين المتفحصتين وهي تراقب بقالة الناس (رغيفان من القمح الكامل اليوم، السيدة هارت؟ زيارة أصدقاء، ربما؟) «أراها شخصاً لطيفاً جدّاً»، قالت السيدة هارت، وأرادت إضافة أن تخبرها بأنها قالت ذلك عنها.

«لا أقول إنها ليست كذلك»، قالت السيدة أندرسون متجهمة: «أنت لا تريدين لها أن تتوصل إلى أيّ شيء خاطئ».

«أنا واثقة –».

«أخبرتها إنني واثقة من أن السيد هارت لا يغيب ويذهب هنا وهناك كما أعرف، ولا يشرب كما الآخرين. قلت لها إنني أحسست تجاهك كما لو أنك ابنتي وما من رجل سيسيء معاملتك طالما أنا بجانبك».

«أتمنى»، قالت السيدة هارت، ثم مسّها خوف طارئ، وتبدّى لها جيرانها الطيبون يراقبونها وهم في لبوس الدماثة والمودة، يتلصصون من خلف الستائر، مراقبين بيل، ربما؟ «لا أعتقد أن على الناس تناول الآخرين في أحاديثهم. أقصد، ليس من العدل قول أشياء ما لم تكوني واثقة منها».

ضحكت مجدّداً السيدة أندرسون فجأة ومضت لتفتح الخزانة التي

تحتوي أدوت التنظيف. «لا تريدين لشيء أن يقلقك. لم يحن الوقت بعد. هل أنظف غرفة المعيشة؟ سأخرج البسط الصغيرة إلى الخارج لتشميسها. إنه فقط هو -الباب الخلف- جعلني غاضبة، كما لك أن تعرفي».

«يؤسفني ذلك. ليس في ذلك ما يعيب».

«قالت لي السيدة مارتين لماذا لا أعيش معكما»، قالت السيدة أندرسون بصوت جافّ ومكتوم، وهي تبحث محدثة ضجيجاً في الخزانة: «تقول السيدة مارتين إن شابة مثلك، في بداية حياتها الزوجية، تحتاج إلى صديقة بجانبها».

نظرت السيدة هارت إلى أصابعها وهي تلاعب الفنجان من مسكته؛ لقد شربت نصف شايها. من المتأخر جدّاً الآن الانتقال إلى مكان آخر، فكّرت؛ لن يسمح بيل بذلك. «التقيت السيدة مارتين منذ بضعة أيام، وكانت ترتدي معطفاً أزرق جميلاً». مسّدت ثوبها المنزلي بيدها، وأردفت منزعجة: «أتمنى لو أتمكن من ارتداء ثوب أنيق مجدّداً».

«لماذا لا تنقلعين؟ قال لي». قالت السيدة أندرسون وهي تخرج نفسها من جوف خزانة التنظيفات وهي تحمل مجروداً في يد وممسحة في الأخرى. «سكران ويشتم مسمعاً كلّ الجيران. لمَ لا تخرجين؟ أنا متأكدة من أنه كان مسموعاً وصولاً إلى هنا».

«أنا متأكدة من أنه لم يقصد ذلك»، قالت السيدة هارت، محاولة أن يوحي صوتها بإنهاء الحديث.

«لن تتحملي ذلك»، قالت السيدة أندرسون، ووضعت المجرود والممسحة على الأرض وجلست إلى الطاولة مقابل السيدة هارت: «رأت السيدة مارتين أنه لو رغبتِ فإن بمقدوري المجيء لأعيش في الغرفة الشاغرة، وأتولّى الطبخ».

«يمكنك ذلك، لكنني سأضع الطفل في تلك الغرفة».

«سنضع الطفل في غرفتك»، قالت السيدة أندرسون. ضحكت وربّتت على يد السيدة هارت. «لا تقلقي، لن أتدخل بشيء. حسناً، وإن رغبت أيضاً بوضع الطفل معي بحيث أستطيع النهوض ليلاً لإرضاعه بدل أن تفعلي. أظنّ أنني أستطيع العناية بطفل على أكمل وجه».

بادلت السيدة هارت السيدة أندرسون ابتسامتها مبتهجة. «أحبّ أن يتحقق ذلك يوماً. الآن طبعاً لن يدعني بيل أقدم على ذلك».

«بالطبع لن يدعك تفعلين. الرجال لا يسمحون بذلك أبداً، هل يسمحون بذلك؟ أخبرت السيدة مارتين في البقالة، بأنك ألطف كائن صغير في العالم، قلت ذلك، لكن زوجها لن يسمح لمنظفة البيت أن تعيش معهما».

«لماذا تقولين عن نفسك أشياء كهذه»، قالت السيدة هارت مذعورة.

«امرأة أخرى أكبر في العمر وعلى دراية أشمل بالأمور، تستطيع ربما الرؤية أكثر قليلاً».

أحاطت أصابع السيدة هارت فنجان الشاي بقوة، وقد تراءت في رأسها صورة السيدة مارتين مستندة إلى الكاونتر «أراك حظيت بنزيلة جديدة. ستحرص السيدة أندرسون على أن يتمّ الاعتناء بك جيداً!» تراءت لها وجوه جيرانها الجامدة وهم يراقبونها بينما تمضي لملاقاة بيل حين وصول حافلته؛ وجوه الصبايا في نيويورك، مجتمعة على قراءة رسالتها وهنّ يحسدنها: «يا لها من جوهرة مثالية - ستعود لتعيش معنا وتتولّى كلّ العمل!» رفعت ناظريها نحو السيدة أندرسون وابتسامتها الواثقة ماثلة أمامها على الطاولة، وأيقنت فجأة بأنها ضاعت تماماً.

الضرس

كانت الحافلة تنتظر، نافثة دخانها بحدّة على حافة رصيف محطة الحافلات الصغيرة، وهيكلها الأزرق والفضي يسطع تحت ضوء القمر. قلّة من الناس انشغلوا بالحافلة، ولم يكن من مارة على الرصيف في تلك الساعة من الليل: ثمة سينما واحدة في البلدة، وقد أنهت عروضها وأوصدت أبوابها قبل ساعة من الآن، وجميع رواد السينما تناولوا الآيس كريم في الكافتيريا القريبة وعادوا إلى بيوتهم، وها هي الكافتيريا توصد أبوابها وتسودها العتمة، لتمسي باباً صامتاً آخر في درب منتصف الليل الطويل. آخر أضواء البلدة المنارة في الشارع كان ضوء عربة المأكولات التي تعمل طيلة الليل، وضوء شباك في محطة الحافلات حيث تشغل فتاة مقصورة التذاكر وقد ارتدت قبعتها ومعطفها، منتظرة فقط مغادرة حافلة نيويورك لتمضي إلى بيتها وتأوي إلى فراشها.

وقفت كلارا سبنسر على الرصيف بالقرب من باب الحافلة المفتوح وهي تمسك بذراع زوجها متوترة: «أبدو مضحكة»، قالت.

«هل أنت على ما يرام؟». سألها: «هل تريدين أن أرافقك؟».

«لا، بالتأكيد لا»، قالت: «سأكون بخير». بدا أنها تجد صعوبة في الكلام جرّاء حنكها المتورم؛ مبقية على منديل تضغط به على وجهها، متشبثة بقوة بزوجها: «هل أنت متأكد من أنك ستكون بخير»، سألت: «سأعود غداً ليلاً ما لم يطرأ شيء جديد. على كلٍّ سأتصل».

«كلّ شيء سيكون على ما يرام»، قال ذلك من قلبه: «سيختفي الورم غداً ظهراً. خبّري طبيب الأسنان ما إذا طرأ شيء جديد وأنا أستطيع المجيء على الفور».

«أشعر بأنني مدعاة للضحك. رأسي خفيف ودائخة».

«هذا من المخدّر. كلّ ما أخذته من الكودين والويسكي، وعلى معدة خاوية طيلة اليوم».

ضحكت ضحكة مضطربة: «لم أستطع تسريح شعري ويدي ترتجف. يسرّني أن أكون في عتمة الليل».

«حاولي أن تنامي في الحافلة. هل أخذت حبّة منوّم؟».

«نعم فعلت». كانا ينتظران سائق الحافلة وهما يلمحانه عبر زجاج النافذة، جالساً إلى «الكاونتر» ينهي فنجان قهوته في الكافتيريا الصغيرة على مهلٍ. «أشعر بأنني مضحكة جدّاً»، قالت.

«تعلمين يا كلارا»، وجعل صوته جليلاً، كما لو أن زيادة جرعة الجدية في نطقه للكلمات سيفضي إلى أن يكون مقنعاً أكثر، وبالتالي مبعثاً للراحة أكثر: «تعلمين أنني سعيد بذهابك إلى نيويورك ليتولّى زيمرمان العناية بك. لن أسامح نفسي إذا ما بات الأمر خطيراً وتركتك تذهبين إلى هذا القصّاب هنا».

«مجرد وجع ضرس»، قالت بصعوبة: «لا شيء خطر في هذا الوجع».

«لا تعرفين، قد يكون خرّاجاً أو شيئاً من هذا القبيل؛ أنا متأكد من أنه يجب قلعه».

«لا تتكلّم هكذا»، قالت وارتعش بدنها.

«يبدو بحالة سيئة جدّاً»، قال بجدية مماثلة للسابق: «وجهك متورم جدّاً، ألا يقلقك هذا».

«لست قلقة. أشعر فقط بأنني كلّي على بعضي مجرد أسنان، ولا شيء آخر».

نهض السائق عن كرسيّه ومضى ليدفع الحساب. توجهت كلارا نحو الحافلة، فقال لها زوجها: «لديك متسع من الوقت، لا تستعجلي».

«أشعر فقط بأنني مثار للضحك».

«اسمعيني، هذا الضرس لم يكفَّ عن إزعاجك لسنوات، الألم يظهر ويختفي على مدى سنوات؛ ست أو سبع مرات على الأقل منذ عرفتِ بحالته. لقد حان الوقت لفعل شيء بخصوصه. لقد آلمك ضرسك في شهر العسل»، ختم حديثه بنبرة اتهامية.

«هل حصل ذلك؟». قالت كلارا، وأضافت ضاحكة: «كنت على عجلة من أمري فلم أرتدِ ثياباً لائقة. ارتديت جوربين قديمين وحشوت حقيبتي بكلّ شيء كيفما اتفق».

«هل أنت متأكدة من أنك تحملين ما يكفي من المال؟». قال.

«خمسة وعشرون دولاراً تقريباً، ثم إنني عائدة غداً».

«أبرقي إليَّ إن احتجت المزيد. لا تقلقي». ظهر السائق عند مدخل الكافتيريا.

«اسمعني»، قالت كلارا فجأة: «هل أنت واثق من أنك ستكون بخير؟ ستأتي السيدة لانغ صباحاً في موعدها لتعدّ لك الفطور، ولا داعي لأن يذهب جوني إلى المدرسة إن كانت الأمور مضطربة».

«أعرف».

«السيدة لانغ»، قالت وهي تتفقد أظافرها: «اتصلتُ بها، وتركت لها ما وصلني من بقالة على طاولة المطبخ، تناول اللسانات الباردة على الغداء، وفي حال لم أعد مساء، ستعدّ لك السيدة لانغ العشاء. سيأتي عامل غسيل الملابس حوالي الرابعة، وحينها لن أكون قد عدت بعد فأعطه بدلتك البنية وما من مشكلة إن نسيت لكن احرص أن تفرغ جيوبها».

«أبرقي إليَّ إن احتجت المزيد من المال، أو اتصلي. سألازم المنزل غداً فيمكنك الاتصال على رقمه».

«ستهتم السيدة لانغ بالطفل».

«أو تستطيعين أن تبرقي».

عبر سائق الحافلة الشارع ووقف في مدخلها.

«لنذهب؟». قال السائق.

«وداعاً»، قالت كلارا لزوجها.

«ستتحسنين غداً، ليس سوى ألم في الضرس»، قال زوجها.

«أنا بخير. لا تقلق». صعدت إلى الحافلة ثم توقفت والسائق خلفها. «بائع الحليب»، قالت لزوجها: «اكتب له أننا نريد بيضاً».

«سأفعل. وداعاً».

«وداعاً». ومضت إلى داخل الحافلة وخلفها السائق الذي شغل مقعده خلف

المقود. كانت الحافلة شبه فارغة ومضت هي إلى آخرها حيث اتخذت مقعداً بجوار النافذة حيث يقف زوجها منتظراً. «وداعاً»، قالت من خلف النافذة: «اهتمّ بنفسك».

«وداعاً»، قال. وراح يلوح بكلّ ما أوتي من قوة.

تحركت الحافلة، وصرّت مقرقعة، ثم مضت قدماً. التفتت كلارا لتلوّح مودعة للمرة الأخيرة وأسندت جسمها إلى الكرسي الوثير. يا إلهي، فكّرت، ما الذي يجب عليَّ فعله! الشوارع المألوفة في الخارج، بدت بغتةً وهي تجتازها، غريبة ومعتمة، كما لو أنها تظهر لعيني امرأة غريبة غادرت محطة البلدة في حافلة. ليس لأنها تذهب إلى نيويورك للمرة الأولى في حياتها، فكّرت كلارا مستاءة، بل هو الويسكي والكودين والمنومات وألم الضرس؛ وقد كانت جميعها متواجدة في غرفة السفرة، إلى جانب الأسبرين وكوب الماء، ولا بدّ أنها في خروجها المحموم من بيتها أخذتها معها، لأنها كانت في حقيبتها الآن، مع ما يربو عن عشرين دولاراً، إلى جانب البودرة والمشط وأحمر الشفاه. وخلصت من تحسّسها أحمر الشفاه إلى أنها أحضرت القديم، الذي شارف على الانتهاء، وليس الجديد الغامق الذي كلّفها دولارين ونصفاً. كما أن في جوربها انسلال وثقب عند أصابع الرجل لم تلحظه حين انتعلت في البيت حذاءها المريح، والذي بدا الآن فجأة ظاهراً ومنفّراً من داخل أفضل حذاء للمشي لديها. حسناً، أستطيع غداً، بعد أن أعالج ضرسي ويمسي كلّ شيء على مايرام، شراء واحد جديد من نيويورك. بحذر، تحسّست بلسانها ضرسها فنالت جرّاء ذلك دفقة ألم خاطفة.

توقّفت الحافلة حيث الضوء الأحمر وفارق السائق مقعده وتوجّه نحوها. «نسيت أن آخذ منك تذكرتك»، قال.

«كنت على عجلة من أمري»، وعثرت على التذكرة في جيب معطفها وأعطتها له: «متى نصل إلى نيويورك؟».

«في الخامسة والربع. لدينا متسع من الوقت للفطور. تذكرة ذهاب فقط؟».

«سأعود بالقطار»، قالت من دون أن تتبيّن دواعي أن تخبره بذلك، إلّا إذا كانت عزلة البشر المشتركة في سجن غريب كالحافلة وفي وقت متأخر، تدفعهم ليكونوا أكثر مودة وتواصلاً مما قد يكونون عليه في أوقات أخرى.

«أما أنا فسأعود بالحافلة»، قال، وضحكا معاً، وامتزجت ضحكتها بالألم الآتي من انتفاخ وجهها. حين عاد إلى مقعده البعيد في مقدمة الحافلة أسندت ظهرها إلى كرسيها بسلام. لقد بدأت تستشعر أثر حبّة المنوم؛ وقد انحسرت ضربات الألم، وتماهت مع حركة الحافلة، وأمست نبضاً ثابتاً كما نبضات القلب التي صارت تسمعها في موهن الليل، أعلى فأعلى. أسندت رأسها ورفعت رجليها، محافظة على تنورتها مغطية لهما بحشمة، ونامت من دون أن تودع البلدة.

فتحت عينيها لمرة ورأت الحافلة تمضي بصمت في العتمة. كان ضرسها ينبض نبضات منتظمة فأمالت خدها وأسندته على الطرف البارد من مسند المقعد مستسلمة للتعب. لم يكن من ضوء في الحافلة سوى خيط رفيع مضاء في السقف، وفي البعيد تمكنت من رؤية المسافرين الآخرين جالسين؛ والسائق أبعدهم، بدا كائناً صغيراً كما لو أنه يُرى بمجهر، جالساً باستقامة أمام المقود، وقد كان صاحياً. غرقت مجدّداً في ملكوت النوم.

استيقظت لاحقاً جرّاء توقّف الحافلة، وجاء انتهاء الحركة الصامتة في العتمة على هيئة هزّة أيقظتها مرتاعة، وليعاودها الألم مجدّداً بعد هنيهة. كان المسافرون يمشون في الممرّ، ثم التفت السائق قائلاً: «ربع ساعة». نهضت ولحقت الجميع إلى الخارج، وأثر النوم لم يفارق عينيها بعد، وقدماها تمضيان بها وحدهما. توقفت الحافلة بجانب مطعم مضاء ووحيد في الشارع المقفر، وكان دافئاً ومزدحماً بالناس. جلست على كرسي في نهاية «الكاونتر»، ولم تدرك أنها نامت مجدّداً إلّا حين جلس إلى جانبها أحد ولمس ذراعها. حين نظرت حولها نصف صاحية قال لها: «سفرك بعيد؟».

«نعم»، قالت.

كان طويلاً يرتدي بدلة زرقاء؛ ولم تستطع التركيز أكثر لتتبين غير ذلك.

«هل تريدين قهوة؟».

هزّت رأسها وأشار إلى «الكاونتر» أمامها حيث كان فنجان قهوة ينبعث منه البخار.

«اشربيه بسرعة».

رشفت رشفة خفيفة؛ بأن انكبّت بوجهها على الفنجان من دون أن ترفعه. كان ذلك الغريب يتكلّم.

«أبعد من سمرقند، حيث الأمواج تقرع الشاطئ كما الأجراس».

«تفضلوا يا جماعة»، قال سائق الحافلة، فصارت تتجرّع القهوة بسرعة، وشربت ما يكفي لتعود إلى الحافلة.

حين عادت لتجلس على كرسيّها جلس إلى جانبها الرجل الغريب. كانت العتمة حالكة في الحافلة بحيث أمست الأضواء القادمة من المطعم وهّاجة على نحو غير محتمل فأغمضت عينيها، وأبقتهما مغمضتين على ألم ضرسها، قبل أن يسرقها النوم.

«تعزف النايات طيلة الليل، والنجوم كبيرة كما القمر الذي بحجم بحيرة»، قال الرجل الغريب.

وما إن مضت الحافلة مجدّداً حتى سادت العتمة وعاد الخيط المضاء في السقف ليكون مصدر الإضاءة الوحيد، والجامع الأوحد بين كلّ من في الحافلة، ممتدّاً من مقعدها في المؤخرة إلى المقدمة حيث يجلس السائق وأناس بعيدون عنها، بينما الغريب الجالس إلى جانبها يقول: «لا شيء لأعمله طيلة اليوم سوى التمدّد تحت الأشجار».

كانت عدماً، في جوف الحافلة وهي تسافر بها، فهي في داخلها لكنها بين هنا وهناك، وما يجمعها مع السائق واهٍ، لا يتعدى خيطاً مضاء، تمضي قدماً من دون تكبدها أيّ عناء.

«اسمي جيم»، قال لها الغريب.

كانت نائمة بعمق وانتفضت مضطربة من حيث لا تدري، وجبهتها على النافذة، والعتمة ترافقها في الخارج.

مجدّداً انتفضت من خدرها، وصحت لتقول بهلع: «ماذا حصل؟».

«لا بأس»، قال الغريب –جيم– في الحال: «تعالي».

تبعته إلى خارج الحافلة، إلى ما بدا المطعم إياه نفسه، لكنها حين همّت بالجلوس إلى المقعد نفسه في آخر «الكاونتر» أخذ بيدها وقادها إلى طاولة: «اذهبي واغسلي وجهك، ثم عودي إلى هنا»، قال لها.

مضت إلى حمام النساء وطالعتها صبية واقفة تضع البودرة على أنفها، قالت من دون أن تلتفت: «هذا يكلّفك نيكل. دعي الباب مفتوحاً لئلّا يدفع من يأتي بعدك». كان الباب مسنوداً لا يمكن أن يُغلق، وقد حشر في قفله نصف علبة من أعواد الثقاب. عادت من حيث أتت متجهة إلى الطاولة حيث يجلس جيم.

«ماذا تريد؟». قالت، وأشار هو إلى فنجان آخر من القهوة وسندويتش.

«تفضلي»، قال.

سمعت صوته، بينما كانت تأكل، موسيقياً ورقيقاً: «وبينما كنا نبحر مجتازين الجزيرة سمعنا صوتاً ينادينا...».

في الحافلة قال جيم: «ضعي رأسك على كتفي الآن، ونامي».

«أنا بخير»، قالت.

«لا، لقد كان رأسك يحشرج مرتطماً بالنافذة».

نامت مجدّداً، وكذا توقفت الحافلة من جديد لمزيد من القهوة. استيقظ ألم الضرس، وراحت تضغط بيدها على وجنتها، وبالأخرى تبحث في جيوب معطفها ثم حقيبتها إلى أن وجدت قارورة حبوب «الكودين» وأخذت اثنتين على مرأى من جيم.

شارفت على الانتهاء من قهوتها حين سمعت صوت محرك الحافلة يندلع فجأة، فأسرعت ممسكة بذراع جيم إلى الملاذ المعتم لمقعدها. كانت الحافلة تتقدم ماضية حين أدركت أنها تركت قارورة «الكودين» على الطاولة في المطعم وأنها الآن باتت تحت رحمة ألم ضرسها. ظلّت تحدّق إلى أضواء المطعم عبر نافذة الحافلة ثم وضعت رأسها على كتف جيم الذي قال وهي تنام: «الرمل ناصع البياض أشبه بالثلج، لكنه ساخن، وحتى أثناء الليل هو ساخن تحت قدميك».

ثم توقفت الحافلة للمرة الأخيرة، فصحبها جيم إلى خارج الحافلة ووقفا معاً لبعض الوقت في نيويورك. اجتازتهما امرأة في المحطة وقالت للرجل الذي يتبعها حاملاً حقائبها: «لقد وصلنا في الوقت المحدّد تماماً، إنها الخامسة والربع».

«سأذهب إلى طبيب الأسنان»، قالت لجيم.

«أعرف، سأحرسك».



مضى مبتعداً، إلّا أنها لم تلحظ ذلك. ظنّت أنها تراه ببدلته الزرقاء يجتاز الباب، ولم يكن شيء من ذلك صحيح. يجب عليّ أن أشكره، راودتها هذه الفكرة الغبية، وتوجهت بخطوات بطيئة إلى مطعم المحطة، حيث طلبت قهوة من جديد. نظر النادل إليها نظرة تحمل تعاطفاً مبتذلاً، تعاطف من أمضى ليلة طويلة وهو يرى الناس تستقلّ الحافلات وتنزل منها. «نعسانة؟». سألها.

«نعم»، قالت.

اكتشفت بعد قليل أن محطة الحافلات أصبحت ضمن محطة القطارات المتوجهة إلى بنسلفانيا وبمقدورها التوجه إلى غرفة الانتظار الرئيسة والجلوس على أحد المقاعد ولتغطّ مجدّداً في النوم.

وإذا بأحدهم بعدئذٍ يهزّها بغلظة قائلاً: «أيّ قطار قطارك يا سيدة، إنها السابعة تقريباً». استقامت في جلستها ورأت حقيبتها في حضنها، وقدميها متشابكتين بحرص. قالت: «شكراً لك»، ونهضت ومشت على غير هدى مجتازة المقاعد وصولاً إلى السلّم المتحرك. أحدهم جاء من خلفها ولامس ذراعها؛ التفتت فإذا به جيم. «العشب أخضر نضير، وماء النهر بارد جدّاً».

حدّقت إليه واهنةً، وحين وصل السلم إلى منتهاه في الأعلى خطت ومضت في الشارع الذي طالعها. بات جيم يرافقها وواصل صوته: «السماء أكثر زرقة من أيّ شيء رأيته، والأغاني...». قال وهو يضحك.

خطت مبتعدة عنه بسرعة وحسبت المارة ينظرون إليها. وقفت عند الناصية بانتظار تبدّل ضوء شارة المشاة فجاورها جيم ثم عبر مسرعاً: «انظري»، قال لها وهو يجتازها، وأراها حفنة من اللآلئ.

قصدت مطعماً في الشارع، كان قد فتح للتوّ، دخلت إليه وجلست إلى طاولة، ووقفت النادلة بجانبها متجهمة: «كنت نائمة»، قالت لها النادلة بنبرة اتهامية.

«آسفة جدّاً»، قالت. إنه الصباح. «بيض مسلوق وقهوة لو سمحت».

غادرت المطعم في الثامنة والربع. سآخذ الحافلة، وأمضي مباشرة إلى وسط المدينة، وأجلس في كافتيريا مقابل عيادة الأسنان واحتسي المزيد من القهوة لغاية التاسعة النصف، وحينها أتوجّه إلى العيادة عندما تفتح وأكون أول من تتمّ معالجته.

كانت الحافلة على وشك أن تمتلئ؛ وقد استقلّت أول واحدة أتت ولم تجد مقعداً. أرادت أن تقصد الشارع الثالث والعشرين، وتمكنت من الحصول على مقعد شاغر بينما كانت الحافلة تعبر الشارع السادس والعشرين؛ وحين استيقظت كانت قد صارت بعيدة جدّاً عن وسط المدينة واحتاجت ما يقرب النصف ساعة للعثور على حافلة تعود بها إلى الشارع الثالث والعشرين.

عند ناصية الشارع الثالث والعشرين، وبينما كانت تنتظر إشارة المشاة، أحيطت بجمهرة من الناس، وحين عبروا وافترقوا كلٌّ إلى وجهته تعثّر أحدهم بجانبها. للوهلة الأولى مضت من دون أن ترفع ناظريها، محدّقة بمرارة إلى الرصيف، وضرسها يكويها من الألم، وحين نظرت حولها، لم تكن من بدلة زرقاء بين المارة المتدافعين من كلّ حدب وصوب.

كان الوقت مبكراً جدّاً حين وصلت إلى المبنى الذي تتواجد فيه عيادة الأسنان. فتح البواب ذو اللحية المحلوقة للتوّ والشعر المسرّح باب البناية وكلّه نشاط وحيوية، وليكون على موعد مع استنفادهما مع حلول الساعة الخامسة وقد طاله الخمول بشعر منكوش. مضت داخلة من الباب بشعور من حقق إنجازاً؛ نجحت جرّاءه بالانتقال بنجاح من مكان إلى آخر، وقد وصلت إلى نهاية رحلتها وحقّقت غايتها.

نظرت الممرضة الجالسة إلى المكتب بردائها الأبيض، مباشرة إلى خدّها المتورم، وكتفيها المتهدلتين، وقالت: «يا مسكينة، الورم واضح».

«لديَّ ألم في ضرسي». ابتسمت الممرضة نصف ابتسامة كما لو أنها ما زالت تنتظر يوماً يأتي فيه أحدهم ويقول: «تؤلمني قدماي». وقفت وقد تخلّلتها أشعة الشمس وقالت: «تعالي ادخلي في الحال، لن ندعك تنتظرين».

احتلّ ضوء الشمس كرسي طبيب الأسنان، والطاولة البيضاء المستديرة، وأداة الحفر ورأسها المقوس المصنوع من الكروم. ابتسم طبيب الأسنان ابتسامة فيها الكثير من سماحة الممرضة؛ كما لو أن كلّ أسقام البشرية تتواجد في الأسنان، وبمقدوره شفاءها إن قصده الناس في الوقت المناسب. قال الممرضة بلطف: «سأحضّر ملفاً لها دكتور. أظنّ أنه يجب معالجتها في الحال».

أحسّت أثناء أخذ الصورة الشعاعية، بأن لا شيء في رأسها يستوقف العين الخبيثة للكاميرا، كما لو أن الكاميرا ستتخلّلها وتصوّر المسامير المجاورة لها

على الحائط، أو أزرار كمّ قميص الطبيب، أو الإبر الصغيرة لمعدّاته؛ قال الطبيب للممرضة متأسفاً: «قلع»، فأجابته: «نعم، سأتصل بهم في الحال».

بدا لها ضرسها، الذي أحضرها يقيناً إلى هنا، هو الجزء الوحيد الذي يحمل هوية، وبدا أن الصورة التي أُخذت له، أُخذت من دونها، وهو الكائن المهم الذي يجب توثيقه وفحصه والتماس رضاه؛ وما هي سوى حاملة عرضية له، وبالتالي لا يتعدّى اهتمام الطبيب والممرضة بها سوى أنها كذلك، أي بوصفها حاملة لضرسها. أعطاها الطبيب ورقة عليها صورة لكلّ أسنانها؛ وقد أُحيط ضرسها المتضرّر بعلامة سوداء، وكتب أعلى الورقة: «الرحى السفلية؛ قلع».

«خذيها»، قال الطبيب، «واذهبي في الحال إلى هذا العنوان في البطاقة؛ إنه جراح أسنان. سيهتمون بك هناك».

«ما الذي سيفعلونه؟». سألت السؤال الذي لم ترغب في سؤاله. رغبت بأن تسأله: وماذا عنّي أنا؟ أو، إلى أيّ حدّ هو متجذر؟

«سيقلعون الضرس»، قال الطبيب متكدّراً، مشيحاً بوجهه عنها. «كان يجب القيام بذلك منذ سنة».

لقد أمضيت وقتاً طويلاً، قالت لنفسها، لقد ملّ ضرسي. نهضت عن كرسيّ الطبيب وقالت: «شكراً لك. وداعاً».

«وداعاً»، قال الطبيب، وفي اللحظة الأخيرة ابتسم لها، مظهراً صفّ أسنانه البيضاء، وجميعها سليمة على أفضل حال.

«هل أنتِ على ما يرام؟ هل يؤلمك كثيراً؟». سألتها الممرضة.

«على ما يرام».

«أستطيع أن أعطيك بعض حبوب الكودين»، قالت الممرضة: «من المستحسن ألّا تتناولي شيئاً الآن، لكن يمكنك أن تأخذي الكودين إن كان الألم حادّاً جدّاً».

«ما من داعٍ»، قالت وتذكّرت قارورة حبوب الكودين على طاولة المطعم الفاصل بين هنا وهناك. «ما من داعٍ لذلك. لا يؤلمني كثيراً».

«بالتوفيق إذن»، قالت الممرضة.

نزلت السلّم ومرّت بالبواب؛ الذي فقد نضارته الصباحية في الربع ساعة التي

أمضتها في العيادة، وبالكاد انحنى لها انحناءة بدت حركة طفيفة مقارنة بتلك التي طالعها بها حين مجيئها.

«تريدين تاكسي؟». سألها، فتذكرت الحافلة إلى الشارع الثالث والعشرين، قالت: «نعم».

وما إن عاد البواب من الرصيف، بعد حديثه مع سائق تاكسي حتى بدا كأنه أوجده، وتراءى لها أن أحداً لوّح لها من بين جمهرة المارة في الشارع.

قرأت العنوان من البطاقة التي أعطاها لها طبيب الأسنان وأعادته بحرص شديد على مسمع السائق. جلست ويدها ممسكة بالبطاقة والورقة المكتوب عليها «رحى سفلية» والصورة المبيّنة لضرسها بوضوح، عازفة عن أيّ حركة، وعيناها تكادان تغمضان. لا بدّ أنني نمت مجدّداً، تبادر إلى ذهنها ذلك حين توقف التاكسي فجأة، وترجّل السائق ليفتح لها الباب، قائلاً: «ها قد وصلنا سيدتي». ثم نظر إليها نظرة كلّها فضول.

«سأقلع ضرسي»، قالت.

«يا إلهي»، قال السائق. دفعت له وقال: «وداعاً»، وأغلق الباب.

كان ذلك المبنى غريباً، ومدخله مليء بالعلامات الطبية المنحوتة في الحجر؛ البواب هنا ليس بواباً بالمعنى المهني، كما لو أن عمله يقتصر على تحديد ما إذا كانت ستلتزم بالغرض الذي جاءت من أجله. اجتازته، ومضت مباشرة إلى المصعد الذي فتح بابه لها. أرت عامل المصعد البطاقة فقال: «الطابق السابع».

وجب عليها أن تسند نفسها إلى حائط المصعد لتدخل ممرضة تجرّ كرسيّاً متحركاً يحمل امرأة عجوزاً، والتي كانت هادئة ومرتاحة، وعلى ركبتيها دثار، «يوم جميل» قالت لعامل المصعد، فقال: «من الجيد رؤية الشمس»، ولتسند العجوز ظهرها إلى الكرسي وتقوم الممرضة بتوضيب الدثار فوق ركبتيها ومدّه أكثر قائلة: «ليس علينا الآن أن نقلق»، فقالت السيدة العجوز منزعجة: «وهل أنا قلقة؟».

خرجتا في الطابق الرابع، وواصل المصعد صعوده إلى أن قال العامل، «السابع»، وتوقف المصعد وفتح الباب. «آخر البهو على يسارك»، أردف عامل المصعد.

كانت الأبواب موصدة على طرفي البهو. منها باب مكتوب عليه: «جراح أسنان»، وثانٍ «عيادة»، وآخر «أشعة». واحد من الأبواب، بدا نافعاً وأليفاً وأكثرها قابلية للفهم، مكتوب عليه: «للسيدات». استدارت إلى اليسار ووجدت باباً عليه اسم مطابق لذاك الذي حملته البطاقة، فتحته ودخلت. طالعتها ممرضة جالسة خلف حاجز زجاجي، بما يشبه البنك، ونخلات صغيرة في الأحواض على زوايا غرفة الانتظار. قالت الممرضة من خلف الزجاج: «نعم؟». بنبرة توحي بأنها لم تسدّد لطبيب الأسنان مستحقات إصلاحه ضرسين.

مرّرت إليها الورقة من كوة في الزجاج فعاينتها الممرضة وقالت: «الرحى السفلية، نعم. لقد اتصلوا بهذا الخصوص، هل لك من فضلك أن تدخلي مباشرة؟ الباب إلى يسارك».

إلى غرفة الودائع المصرفية؟ كادت أن تقول، ثم فتحت الباب بهدوء وخطت إلى داخل الغرفة. طالعتها ممرضة أخرى، ابتسمت لها واستدارت، متوقعة أن تتبعها، من دون أن تبدي أيّ شك بحقّها بأن تقودها.

يجب عليها أن تأخذ صورة شعاعية ثانية، والممرضة أخبرت ممرضة أخرى: «الرحى السفلية»، وقالت الممرضة الأخرى: «تفضلي من هنا لو سمحت».

مضت في متاهات وممرّات، بدا أنها تفضي إلى قلب المبنى، ووضعت أخيراً، في حجرة منامة تحتوي أريكة ووسادة ومغسلة وكرسياً.

«انتظري هنا. واستريحي إن أمكن»، قالت الممرضة.

«سأنام على الأرجح»، قالت.

«جيد. لن تنتظري طويلاً».

انتظرت ربما لأكثر من ساعة، وإن أمضتها نصف نائمة، تصحو فقط حين يدخل أحد من الباب، وغالباً ما تكون ممرضة تنظر إلى الداخل وتبتسم، وفي إحدى المرات قالت: «لن أنتظر أكثر». بعدئذٍ، عادت الممرضة في الحال، وقد تخلّت عن ابتسامتها، وعن حسن الضيافة، بل اكتست بالفاعلية والسرعة. «تعالَي»، قالت ومضت خارجة من الغرفة الصغيرة إلى الردهات مجدّداً. وبسرعة تفوق قدرتها على النظر، أُجلست على كرسي وفوطة حول رأسها وأخرى تحت ذقنها ويد الممرضة على كتفيها.

«هل سيكون مؤلماً؟». سألت.

«لا»، قالت الممرضة باسمة، «تعرفين أنه لا يؤلم، أليس كذلك؟».

دخل الطبيب وابتسم لها وهو ينظر إليه من علٍ. «حسناً»، قال.

«هل سيكون مؤلماً؟». قالت.

«لما كان لنا أن نبقى في هذا المجال إن كنا نؤذي الناس». قال الطبيب وطيلة حديثه كان يشغل نفسه بشيء معدني متوارٍ تحت الفوطة، وآلة كبيرة مدولبة جرّت خلفها بهدوء. «لما بقينا أبداً في هذا العمل. كلّ ما يجب أن تقلقي عليه هو إخبارك لنا كلّ أسرارك أثناء نومك. على أن تحترسي من ذلك، كما لك أن تعرفي». ثم قال مخاطباً الممرضة: «الرحى السفلية؟».

«نعم الرحى السفلية دكتور».

وضعوا على وجهها قناعاً مطاطيّاً وقال الطبيب، «تعرفين»، وهي لمرتين أو ثلاث غاب وعيها وهي لا تزال تراه من خلف القناع. قالت الممرضة «أرخي يديك عزيزتي»، وبعد وقت طويل أحسّت بأصابعها مسترخية.

بداية، تذكّرت أن كلّ الأشياء نأت بعيداً. وتذكرت الصوت المعدني ومذاقه. والصدمة، ثم الموسيقى الدوّارة المدوّخة، الرنّات المضطربة لموسيقى عالية تواصلت وتواصلت، دارت ودارت، وهي تركض بأقصى سرعة ممكنة في بهو ساطع الإنارة والأبواب على طرفيه وفي نهايته يقف جيم، رافعاً يديه يضحك، وينادي بشيء لا تتمكن من سماعه جرّاء الموسيقى العالية، وهي تواصل الركض، ثم إنها قالت: «لست خائفة»، فإذا بأحدهم من باب مجاور لها يأخذها من ذراعها ويجذبها إلى الداخل ويتسع العالم على نحو مقلق لدرجة توحي بأنه لن يتوقف عن الاتساع ثم إنه توقف، نعم توقف، ظهر رأس طبيب الأسنان من فوقها ينظر إليها والنافذة استقرت في مكان مقابل لها والممرضة تمسك ذراعها.

«لماذا جذبتني؟». قالت وفمها مليء بالدم. «أريد أن أتابع».

«لم أجذبك»، قالت الممرضة، ثم خاطبت الطبيب: «لم تستعد وعيها بعد».

شرعت بالبكاء من دون أن تتحرك وأحسّت بالدموع تنساب على وجهها والممرضة تمسحها بفوطة. لم يكن من دم سوى في فمها؛ وكلّ شيء نظيف كما

في السابق. غادر الطبيب على الفور، وأحاطتها الممرضة بذراعها لتساعدها في النزول عن الكرسيّ. «هل تكلّمت؟». سألت قلقة. «هل قلت أيّ شيء؟».

«قلت، أنا لست خائفة»، قالت الممرضة بلطف. «فقط حين كنت تستعيدين وعيك».

«لا»، قالت، وتوقفت عن مضيّها مع الذراع المحيطة بها. «هل قلت أيّ شيء؟ هل قلت أين هو؟».

«لم تقولي أيّ شيء. الطبيب فقط كان يمازحك».

«أين ضرسي؟». سألت فجأة، فضحكت الممرضة وقالت: «اختفى، ولن يزعجك مجدّداً».

أعيدت إلى غرفة المنامة، وتمدّدت على الأريكة وبكت، وأحضرت لها الممرضة كأساً ورقيّة فيه ويسكي وضعتها على طرف المغسلة.

«وهبني الله الدم[1] ليشرب»، قالت للممرضة، والتي بدورها قالت: «لا تمضمضي به وإلّا لن يتخثر».

عادت الممرضة بعد وقت طويل وقالت وهي قرب الباب: «ها قد استيقظت من جديد».

«ماذا؟».

«كنتِ نائمة ولم أرد إيقاظك».

نهضت، وكانت دائخة وبدا لها أنها أمضت كلّ عمرها في هذه الغرفة.

«هل تريدين المجيء معي الآن؟». قالت الممرضة بمنتهى اللطف، وأحاطتها بالذراع القوية القادرة ذاتها على قيادة أيّ خطوة متعثرة؛ هذه المرة مضيا عبر ممرّ طويل حيث تتواجد الممرضة الجالسة خلف الحاجز الزجاجي.

«من هنا»، قالت الممرضة وكلّها بهجة. «تفضلي اجلسي هنا»، وأشارت إلى كرسيّ بجانب الحاجز الزجاجيّ، أدارت ظهرها وانهمكت بالكتابة. «لا تمضمضي فمك لساعتين»، قالت من دون أن تلتفت. «خذي مسهّلاً الليلة،

1- الدم بوصفه خمراً كما في الكتاب المقدّس. المترجم

وحبّتا إسبرين إن تألمتِ. إن زاد الألم أو حدث نزيف حادّ، فيجب أن تعلمي المكتب هنا في الحال. مفهوم؟». أردفت وابتسمت وكلّها بهجة مجدّداً.

حصلت على ورقة جديدة، وقد كتب عليها: «قلع»، وذيّلت بـ «لا تمضمضي فمك. خذي مسهّلاً. حبّتا إسبرين عند الألم. في حالة الألم الشديد أو النزيف الحادّ، أبلغي المكتب».

«وداعاً»، قالت الممرضة بلطف شديد.

«وداعاً».

خرجت مسرنمة من الباب الزجاجي والورقة في يدها، والتفتت وأخذت البهو. حين فتحت عينيها قليلاً رأت أن البهو طويل والأبواب على جانبيه، وقفت ورصدت الباب المكتوب عليه: «للسيدات» فدخلته إلى مساحة وسيعة بنوافذ وكراسيّ من الخوص وأرضية بيضاء لامعة وحنفيات فضية برّاقة؛ تواجدت أربع أو خمس نساء أمام المغاسل، يسرحن شعورهن، يضعن أحمر الشفاه. توجهت مباشرة إلى الأقرب من بين المغاسل الثلاث، أخذت منديلاً ورقيّاً ورمت بحقيبتها والورقة على الأرض بقربها، وتلمّست الحنفية، وبلّلت المنديل إلى أن صار الماء يرشح منه ، وراحت تصفع به وجهها بقوة. صحت عيناها وأحسّت بانتعاش، فقامت بنقع المنديل مجدّداً ومسحت وجهها به. التمست يدها منديلاً آخر، فأعطتها المرأة الواقفة بجوارها واحداً، وهي تسمع ضحكتها، من دون أن تراها جرّاء الماء في عينيها. سمعت إحدى النساء تقول: «سنذهب إلى الغداء؟». وأخرى تقول: «ليكن في المطعم في الأسفل، فعلى الأرجح سيقول لي العجوز الأحمق إنه يجب عليّ العودة بعد نصف ساعة».

أدركت وهي أمام المغسلة أن نساء أخريات مستعجلات ينتظرنها فجفّفت وجهها بسرعة، والذي لم تره إلّا حين انتحت قليلاً عن المغسلة متيحة المجال لغيرها، وراحت تتملّاه في المرآة متبيّنة على شيء من الصدمة المؤلمة أنها لا تعرف أيّ وجه هو وجهها.

نظرت في المرآة كما لو أنها تنظر إلى ثلة من الغريبات، يحدقن إليها جميعاً أو يحطن بها؛ وما من واحدة تعرفها، ولا واحدة تبتسم لها، أو تبدو أنها تعرفها؛ وهل تظنين أن وجهك سيتعرف عليك؟ تبادر إلى ذهنها ذلك، مع خدر عجيب في حنجرتها. كان في المرآة وجه ببياض الكريمة ضامر الذقن بشعر شديد

الشقرة، ووجه حادّ القسمات تحت قبعة حمراء بطرحة، ووجه قلق لا لون له تحت شعر بني مكشوط وملموم إلى الخلف، وآخر سنجابي متورد بقصة شعر مربعة، ووجهان أو ثلاثة تتدافع قريباً من المرآة، وهنّ يعاين أنفسهن.

قد لا تكون مرآة، بل نافذة ربما وأنا أنظر من خلالها إلى نسوة يغتسلن في الجهة الأخرى. لكن ثمة امرأة تسرح شعرها طالبة مشورة المرآة وعونها؛ والمجموعة بجانبها، وحينها راحت تأمل بألّا تكون الشقراء، وعليه رفعت يدها إلى وجنتها.

لقد كانت صاحبة الوجه القلق الشاحب بشعر مكشوط وملموم إلى الخلف. ساءها هذا الاكتشاف فارتدّت إلى الخلف مفارقة جمع النساء، وراحت تقول لنفسها، هذا ظلم، لماذا لا يحتكم وجهي على أيّ لون؟ ثمة وجوه جميلة هنا، لماذا لا آخذ واحداً منها؟ ليس لديَّ الوقت، خاطبت نفسها بأسى، لم يعطوني الوقت الكافي لأفكر، وإلّا لكان بمقدوري أن أحظى بواحد من الوجوه الجميلة، حتى ذلك الذي للشقراء سيكون أفضل.

تقهقرت متراجعة وتهالكت على واحد من كراسيّ الخوص. هذه حقارة. فكّرت، ومرّرت يدها على شعرها؛ انحلَّت بعض خصله جرّاء النوم لكن لا مجال للشك بأنها الطريقة التي تصفّفه بها، تسحبه إلى مؤخرة عنقها وتثبته بمشبك كبير، مثل طالبة مدرسة، قالت لنفسها، فقط - مستذكرة وجهها الشاحب في المرآة -أنا أكبر من ذلك. فكّت المشبك بصعوبة لتراه. انحلّ برقة شعرها حول وجهها، دافئاً يصل إلى كتفيها. كان المشبك فضيّاً؛ منقوش عليه اسم «كلارا».

«كلارا»، قالت بصوت عالٍ. «كلارا؟». بينما كانت امرأتان تغادران، التفتتا مبتسمتين لها؛ جميعهن سيغادرن الآن، بعد أن سرّحن شعورهن ووضعن أحمر الشفاه، مسرعات يتبادلن الأحاديث، وفي أقل من ثانية اختفين جميعاً، كما تفارق العصافير شجرة، وأمست جالسة وحدها. ألقت بالمشبك في منفضة طويلة بجانب الكرسيّ، وقد كانت عميقة ومعدنية، بحيث أحدث المشبك قرقعة وافية وهو يستقرّ في جوفها. فتحت حقيبتها وشعرها منسدل على كتفيها، وراحت تخرج منها أشياء، وتضعها في حضنها. منديل أبيض سادة غير مستعمل. علبة بودرة بلاستيكية مربعة مكسوة بما يشبه صدفة السلحفاة بنية اللون، مقسومة داخلها إلى قسمين واحد للبودرة وآخر لأحمر الخدود؛ وهذا الأخير بدا واضحاً

أنه لم يستعمل قط، بينما البودرة فلم يبقَ إلّا نصفها. لهذا أنا شاحبة، فكّرت. أحمر شفاه، وردي غامق، شارف على الانتهاء. مشط، وعلبة سجائر مفتوحة مع علبة كبريت، وحافظة الفكّة، ومحفظة النقود. حافظة الفكة من جلد أحمر مقلّد لها سحّاب؛ فتحتها وأفرغت ما فيها من فكة في يدها. نيكل، ودايم، وبيني، وربع. سبعة وتسعون سنتاً، لا أستطيع المضي بهذا، فكّرت، ثم فتحت المحفظة الجلدية البنية؛ ثمة مال فيها لكنها تفقدت أولاً ما إذا كان فيها أية أوراق فلم تعثر على شيء سوى الأوراق المالية. عدّتها فإذا هي تسعة عشر دولاراً. وتوصلت إلى أنها تستطيع تدبّر أمرها قليلاً بهذا المبلغ.

ما من شيء آخر في حقيبتها. ما من مفاتيح -ألا يجدر أن يكون معي مفاتيح؟ تساءلت- ما من أوراق، ولا دليل هاتف، ولا هوية. الحقيبة ذاتها جلد مقلّد، لونها رمادي فاتح، ونظرت إلى نفسها محنية رأسها واكتشفت أنها ترتدي بدلة رمادية غامقة من الصوف على كنزة بين البرتقالي والوردي ياقتها مكشكشة، وحذاؤها أسود عريض بكعب معتدل الطول، وبسيور كانت فردة منه مفكوكة. كانت ترتدي جوربين لونهما بيج وثمة فتق على الركبة اليمنى وانسلال كبير عند الرجل يمضي نزولاً لينتهي إلى فتق تستشعره بأصبع رجلها في داخل الحذاء. كان هناك دبوس مثبت على طيّة بدلتها، حين أدارته لتراه فإذا به يحمل حرفاً بلاستيكياً أزرق هو الحرف «سي»،[1] أخذته ورمته في المنفضة، وأحدث قعقعة معدنية حين وصوله إلى القاع وقد استقرّ مرتطماً بالمشبك. يداها صغيرتان بأصابع قصيرة وغليظة، خالية من طلاء الأظافر؛ عدا خاتم ذهبي رفيع هو خاتم زواجها. أمّا في يدها اليسرى فلا وجود لأيّ مجوهرات.

بجلوسها وحيدة في حمام السيدات على كرسيّ الخوص، تبادر إلى ذهنها، أن بمقدورها على الأقل التخلّص من جوربيها. وبما أنه لا أحد متواجد معها نزعت حذاءها ثم جوربيها وليحلّ عليها إحساس بالراحة وقد تحرّرت أصبع رجلها من الثقب. قرّرت أن ترمي بهما في سلّة المهملات. حين نهضت واقفة حظيت برؤية أفضل لنفسها في المرآة؛ وكانت أسوأ مما ظنّت: بدلتها الرمادية متهدلة من الجلوس، ومثلها كتفيها، أمّا رجلاها فمهزولتان. توصّلت إلى أنها

1- C الحرف الأول من اسمها Clara

تبدو في الخمسين؛ إلّا أنها خلصت وهي تعاين وجهها، بأنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت الثلاثين. وبحركة مفاجئة وشعرها مفلوت حول وجهها الشاحب راحت تنبش حقيبتها لتخرج منها أحمر الشفاه؛ مصيّرة فمها وردياً خالصاً وسط شحوب وجهها، متبينة وهي تفعل ذلك بأنها قليلة الخبرة بذلك، إلّا أن حمرة شفتيها أبدت وجهها بحال أفضل، وعليه فتحت علبة البودرة وراحت تضفي لوناً وردياً على وجنتيها. وهكذا فإنها وبوجنتين غير لامعتين وبنسب غير متساوية بينهما، وفم أحمر متوهج، خلّصت وجهها على الأقل من الشحوب والتوتر.

رمت جوربيها في سلّة المهملات وخرجت برجلين عاريتين إلى البهو مجدّداً، متجهة نحو المصعد. قال عامل المصعد حين رآها تخطو باتجاهه: «إلى الأسفل؟». وحملها المصعد بصمت نزولاً، اجتازت البواب المتجهم إلى الشارع حيث الناس يعبرون من أمامها، ووقفت أمام المبنى منتظرة. بضع دقائق فإذا بجيم يخرج من بين حشد من الناس ويأخذ بيدها.

في مكان بين هنا وهناك كانت قارورتها من حبوب الكودين، وفي الأعلى على أرضية حمام السيدات تركت الورقة المروسة بـ «قلع»؛ وعلى مبعدة سبعة طوابق من ذلك، وهي ذاهلة عن الناس يغذّون السير على الرصيف، ساهية عن نظراتهم العابرة الفضولية، ركضت ويدها بيد جيم وشعرها منسدل على كتفيها، ركضت فوق الرمل الساخن.

وصلتني رسالة من جيمي

راودتها الهواجس وهي تكدّس الأطباق في المطبخ، متسائلة ما إذا كان الرجال، جميعهم بلا استثناء، سليمين عقليّاً. قد يكونون جميعاً مجرّد مجانين، وكلّ امرأة أخرى تعرف ذلك ما عداي، وأمي لم تخبرني عن ذلك مطلقاً، ولم تذكره لي شريكتي في السكن وجميع الزوجات الأخريات ظنّاً منهن أنني أعرف...

«وصلتني رسالة من جيمي اليوم»، قال بينما يفضّ منديل المائدة.

إذن، استلمتها أخيراً، فكّرتْ، لقد انهار أخيراً وكتب إليك، لربما سيكون كلّ شيء على ما يرام الآن، كلّ شيء هانئ ومهادن مجدّداً... «ماذا يقول فيها؟». سألت بعفوية.

«لا أعرف، لم أفتحها».

يا إلهي، فكّرت، وقد توضّح أمامها كلّ شيء وصولاً إلى هذه اللحظة. ترقّبت ما سيقوله.

«سأقوم بإعادة إرسالها له غداً من دون أن أفتحها».

بمقدوري تخمين ذلك بنفسي. ما كنت لأستطيع إبقاء هذه الرسالة مغلقة لخمس دقائق. لكنت وجدت شيئاً سيئاً مثل تمزيقها وإرسالها له مجدّداً نتفاً صغيرة، أو حمل شخص ما على كتابة ردّ حادٍّ عليها، لكنني ما كنت لأستطيع إبقاءها لخمس دقائق.

«تناولتُ الغداء مع توم اليوم»، قال لها، اكتفى بذلك وأُقفل الموضوع، وعندها راودها إحساس بأنه لن يعود قطّ للتفكير فيه مرة أخرى. لربما لن يفعل، يا إلهي.

«أعتقد أنه يجب فتح رسالة جيمي»، قالت. ربما سيكون كلّ ذلك بمنتهى السهولة، سيقول حسناً ويذهب ليفتحها، أو سيذهب إلى البيت ويعيش مع أمه لفترة من الزمن.

«لماذا؟». أجاب.

تمهّلي في البدء، فكّرت. فستقتلين نفسك إن لم تفعلي.

«آه، أظن أن فضولي سيقتلني ما لم أطّلع على ما في الرسالة»، قالت.

«افتحيها أنت»، أجابها.

راقبني فحسب وأنا أمضي نحوها، استشعرت ذلك. «حقّاً»، قالت: «من السخف حمل ضغينة تجاه رسالة. لا مانع من أن تحملها تجاه جيمي، لكن أن لا تقرأ رسالة بسبب الضغينة فهذا سخيف». يا إلهي، أخذت تفكر، لقد قلت سخيف. قلتها مرتين. سيضع ذلك حدّاً لكلّ شيء. إن كان قد سمعني أقول إنه سخيف فقد انتهيت، يمكنني أن أتكلّم طوال الليل.

«لِمَ يجب عليّ قراءتها؟». قال: «لا أهتمّ بأيّ شيء سيقوله».

«أنا أهتمّ».

«افتحيها».

يا إلهي، يا إلهي.. يا إلهي، سأسرقها من حقيبته، سأخفقها مع البيض الذي سأقدمه له غداً، لكني لن أتجرأ على القيام بشيء كهذا، لأنه سيكسر يدي إن فعلت.

«حسناً»، قالت: «لست مهتمة». دعيه يظنّ أنك فرغت من حديثك، دعيه يستقرّ جيداً في كرسيّه، ويحصل على فطيرة الليمون، دعيه ينتقل إلى موضوع آخر.

«تغديت اليوم مع توم»، قال.

أخذت تفكر وهي تكدّس الأطباق في المطبخ، إنه يعني ذلك على الأرجح، أو قد يقتل نفسه أولاً، لربما هو بالفعل لا يشعر بالفضول، وحتى لو راوده فإنه سيمضي إلى حالة هستيرية محاولاً القراءة عبر المُغلّف، بينما يغلق على نفسه باب الحمام. أو لربما استلمها وقال، أوه، من جيمي، ثم رماها في حقيبته ونسيها. سأقتله إن فعل ذلك، سأدفنه في القبو.

لاحقاً، وبينما يشرب قهوته، قالت له: «هل ستريها لجون؟». سيقتل الفضول جون أيضاً، أخذت تفكر، سيحوم جون حول ذلك مثلما أفعل تماماً.

«ما الذي سأريه لجون؟».

«رسالة جيمي».

«نعم بالتأكيد».

غمرها الإحساس بالانتصار، فهو بالفعل يرغب بأن يريها لجون. يريد فقط أن يُظهر أنه ما يزال غاضباً، وأن يسأله جون، حقّاً، هل ما زلت غاضباً من جيمي؟ ويرغب في الإجابة بنعم. راودها ذلك من منطلق انتصارها العظيم جرّاء اكتشافها بأنه كان يفكر في ذلك طوال هذا الوقت، وقالت قبل أن تتمكن من كبح نفسها:

«ظننتك ستعيدها إليه من دون أن تفتحها؟».

نظر إلى الأعلى وقال: «لقد نسيت، أظنني سأفعل».

أطرقت صامتة، أخذت تفكر. لقد نسي. المشكلة أنه قد نسي بالفعل. لقد غابت عن باله تماماً، لم يفكر فيها مرة ثانية مطلقاً، لو أنها أفعى للدغته. تحت درج القبو، أخذت تفكر، برأسه المهشّم ورسالته الملعونة تحت يديه المطويتين، يستحقّ الأمر ذلك، نعم يستحقّ ذلك.

اليانصيب

إنه صباح السابع والعشرين من شهر حزيران، الجوّ مشمس صافٍ، يسوده دفء منعش ليوم صيفي بامتياز. لقد اندلعت الورود متفتحة وأينع العشب بخضرة زاهية. في حوالي الساعة العاشرة، شرع أهالي القرية بالتوافد إلى الساحة الماثلة بين مكتب البريد والمصرف. إنه موعد انطلاق اليانصيب ولن يستغرق الأمر أكثر من ساعتين بحيث ينتهي مبكراً يتيح لما يقرب الثلاث مئة شخص، وهو عدد سكان القرية، تناول الغداء في بيوتهم، وليس كما في البلدات التي يقطنها عدد أكبر من السكان، إذ تتطلّب إقامة اليانصيب يومين، الأمر الذي يستدعي إقامته اعتباراً من الثاني من حزيران.

وكالعادة اجتمع الأولاد أولاً، غير مستسيغين بعد إحساسهم بالحرية، بعد أن أغلقت المدرسة أبوابها مؤخراً، إيذاناً بعطلة الصيف؛ ولهم أن يتحلَّوا بالهدوء لبعض الوقت وليندفعوا بعدئذٍ إلى اللعب الصاخب. ما زال حديثهم يدور في فلك الفصول الدراسية والمدرسين والكتب والتوبيخات. ملأ بوبي مارتن جيوبه بالحجارة، وجمع بوبي وهاري جونز وديكي ديلاكرويكس – يلفظ القرويون هذا الاسم «ديلاكوا»–كومة كبيرة من الحجارة في إحدى زوايا الساحة وحرسوها من غارات الصبية الآخرين. انتحت الفتيات جانباً، يتجاذبن أطراف الحديث، مراقبات تقلّبات الغبار أو متشبثات بأيدي إخوانهم أو أخواتهن الأكبر سناً.

سرعان ما توافد الرجال وتجمّعوا. تفقّدوا أولادهم، وراحوا يتحدثون عن الزرع والمطر، والجرارات والضرائب. وقفوا معاً بعيداً عن كومة الحجارة على الناصية، وجاءت نكاتهم خفيفة دفعتهم للتبسّم عوضاً عن الضحك. حضرت النساء بملابس المنزل والسترات الباهتة بعد رجالهن

بفترة وجيزة. تبادلن التحية، وشيئاً من القيل والقال قبل موافتهن أزواجهن، وشرعن وهنّ واقفات بجوارهم بمناداة أولادهن، الذين جاؤوا على مضض بعد مناداتهم لأربع أو خمس مرّات. تملّص بوبي براون من يد أمه وركض ضاحكاً نحو كومة الحجارة. صرخ أبوه بحدّة، فعاد بوبي مسرعاً واتخذ مكانه بين أبيه وأخيه الأكبر.

أعدّ كلّ ما هو متعلق باليانصيب ورقصات الساحة، ونادي الفتية، وبرنامج «الهالوين»، بإشراف السيد سمرز، الذي امتلك الوقت والطاقة اللازمين لتولّي أمر هذه الأنشطة الأهلية. إنه رجل بشوش مستدير الوجه يدير أعمال الفحم، وهو مصدر لتعاطف الناس، لأنه حُرِم الخلفة، ولكون زوجته امرأة سليطة. حين وصل إلى الساحة، حاملاً الصندوق الخشبي الأسود، سادت الهمهمات والهمسات بين القرويين، فلوّح لهم وقال: «متأخرون قليلاً اليوم يا جماعة». تبعه مدير مكتب البريد، السيد غرافيز، حاملاً كرسيّاً ثلاثي الأرجل، وضعه وسط الساحة، ووضع السيد سمرز الصندوق الأسود عليه، وحافظ أهالي القرية على مسافة كافية تفصلهم عنه. وعندما قال السيد سمرز: «هل يرغب أحدكم بمساعدتي؟». اعترى بعض التردّد رجلين من الحضور، هما السيد مارتن وابنه الأكبر باكستر، قبل أن يتقدما نحو الصندوق ليحافظا عليه ثابتاً على الكرسي بينما يقوم السيد سمرز بتحريك الأوراق داخله.

كانت الأدوات الأصلية لليانصيب قد ضاعت منذ فترة طويلة، أما الصندوق الأسود الذي يستريح الآن على الكرسي فقد وضع قيد الاستخدام حتى قبل أن يولد الرجل العجوز وارنر، أكبر معمّر في البلدة. كرّر السيد سمرز حديثه على مسامع أهل القرية عن صنع صندوق جديد، لكن أحداً لم يرغب بالتشويش حتى على التقليد الذي يمثله الصندوق الأسود، إذ تروى قصة مفادها أن الصندوق الحالي صُنع مع بعض قطع الصندوق الذي سبقه والذي صُنع بدوره عندما قدم السكان الأوائل وأنشؤوا هذه القرية هنا. وهكذا درج السيد سمرز في كلّ سنة بعد الفراغ من اليانصيب على الحديث عن صنع صندوق جديد، إلّا أنه وفي كلّ سنة يهمل الأمر من دون القيام بأيّ شيء.

ازداد الصندوق الأسود اهتراءً عاماً بعد عام، حتى إنه لم يعد أسود

بالكامل الآن، فقد تشقّق بشدة على طول أحد جوانبه مظهراً لون الخشب الأصلي، كما بهتت أو تلطخت بعض الأماكن الأخرى.

أمسك السيد مارتن وابنه الأكبر باكستر الصندوق الأسود لتثبيته على الكرسي، بينما أخذ السيد سمرز في تقليب الأوراق داخله بيده. ولأن العديد من الطقوس أصبحت طيّ النسيان والإهمال، فقد نجح السيد سمرز بالاستعاضة عن رقاقات الخشب التي استخدمت لأجيال عديدة بقصاصات من الورق. جادل السيد سمرز بشأن تلك الرقاقات مدّعياً أنها كانت مناسبة حين كانت القرية ما تزال صغيرة، أما الآن ومع ازدياد عدد سكانها لأكثر من ثلاث مئة، وهو عدد يرجح أن يستمرّ بالازدياد، فمن الضروري استخدام شيء يسهل أن يتسع له الصندوق الأسود. في الليلة التي سبقت اليانصيب، أعدّ السيد سمرز والسيد غرافيز قصاصات الورق ووضعوها في الصندوق الذي حُمل بعدئذٍ إلى خزنة شركة السيد سمرز للفحم، وتمّ تأمينه هناك إلى أن أصبح السيد سمرز جاهزاً لأخذه إلى الساحة في الصباح التالي. في بقية أيام السنة يبقى الصندوق محفوظاً، مرات يلازم مكاناً واحداً، وأخرى يتنقل إلى أمكنة مختلفة؛ فقد تُرك لعام كامل في حظيرة السيد غرافيز، كما وضِع تحت الأقدام في مكتب البريد في آخر. كما تمّ تركه أحياناً على رفّ في بقالية مارتن.

وجب على السيد سمرز، الذي تمّ تنصيبه رسمياً من قبل مدير مكتب البريد مسؤولاً عن اليانصيب، تدقيق الكثير من الأمور قبل أن يعلن عن افتتاحه، كإعداد قوائم بأرباب العائلات، وأرباب الأسر المتفرعة عنها، وباقي أفراد كلّ عائلة. وكما يتذكر الناس، فقد كان من عادة منظّم اليانصيب إلقاء كلمة تشبه ديباجة شكلية مملّة. ترتيلة ناشزة تُلقى وفق أصول معينة في كلّ عام؛ رأى البعض أن على منظّم اليانصيب أن يقف عند إلقائها أو ترتيلها، في حين اعتقد آخرون أن عليه التجول بين الناس، ولكن منذ سنوات وسنوات سُمح بإسقاط هذا الجزء من الطقوس. كما كانت أيضاً هناك تحية طقسية، وجب على منظّم اليانصيب أن يستخدمها في مخاطبة كلّ شخص يقصد الصندوق ليسحب منه، لكن هذا أيضاً تغير مع مرور الزمن، إلّا أن إحساس الأهالي بضرورة تحدّث المسؤول مع كلّ شخص يقارب

الصندوق لم يفارقهم. وقد كان السيد سمرز جيداً جدّاً في كلّ هذا؛ مرتدياً قميصه الأبيض النظيف على جينز أزرق، مسنداً إحدى يديه بلامبالاة على الصندوق الأسود. لقد كان لائقاً ورصيناً أثناء حديثه المتواصل مع السيد غرافيز وعائلة مارتن.

حالما أنهى السيد سمرز الحديث والتفت إلى القرويين المتجمعين، جاءت السيدة هَتْشينسون مسرعةً من آخر الطريق إلى الساحة، وقد وضعت سترة فوق كتفيها، واندسّت في مؤخرة الحشد. كلّمت السيدة ديلاكوا بجوارها، وضحكتا بهدوء: «نسيتُ تماماً في أيّ يوم هو». واسترسلت: «ظننتُ أن رجلي العجوز في الخارج يقرّم الحطب. ثم نظرتُ إلى النافذة فإذا بالأولاد قد ذهبوا، وحينها تذكرت أننا في السابع والعشرين من الشهر فأتيت راكضة». جفّفت يديها بمئزرها، في حين قالت السيدة ديلاكوا: «ومع ذلك فقد جئت في الوقت المناسب. ما زالوا يتحدثون بعيداً هناك».

مطّت السيدة هَتْشينسون عنقها لترى عبر الحشد، وعثرت على زوجها وأولادها واقفين قريباً من المقدمة. نقرت على ذراع السيدة ديلاكوا مودعة وشقّت طريقها نحوهم. أفسح الناس لها الطريق متندرين: قال اثنان أو ثلاثة بأصوات عالية سمعها كلّ من في الحشد: «جاءتك زوجتك يا هَتْشينسون»، و«ها قد تمكنتْ من الحضور في النهاية يا بيل». وصلت السيدة هَتْشينسون إلى زوجها، وقال السيد سمرز، الذي كان ينتظرها بسرور: «ظننت أننا سنضطر إلى البدء من دونك يا تيسي». أجابته السيدة هَتْشينسون بابتسامة عريضة: «ما كان لي أن أترك الصحون في المجلى. وهل كنت ستفعل يا جو؟». سرى ضحك ناعم في الحشد مع عودة الناس إلى أماكنها مع وصول السيدة هَتْشينسون.

اكتسى السيد سمرز بالجدية وقال: «حسناً، أظنّ أن من الأفضل أن نبدأ الآن وننتهي من الأمر لنتمكن من العودة إلى أعمالنا. هل من أحد غائب؟».

أجابه عدد من الناس: «دانبر، دانبر».

تحقّق السيد سمرز من قائمته قبل أن يعلن: «كلايد دانبر، نعم صحيح. لقد كسر رجله، أليس كذلك؟ من سيسحب بالنيابة عنه؟».

«أنا على ما أظنّ» أجابت امرأة من الحضور. التفت السيد سمرز لينظر

إليها قبل أن يتساءل: «الزوجة تسحب عن زوجها! أليس لديكم ابن كبير يتولّى ذلك عنكِ يا جيني؟». قال السيد سمرز ذلك رغم معرفته وكلّ أهل القرية الجواب جيداً، إلّا أن عمل مُنظّم اليانصيب يقتضي طرح أسئلة كهذه بصيغة رسمية. انتظر السيد سمرز باهتمام وتقدير، إلى أن أجابت السيدة دانبر متأسفة: «لدينا ابننا هوراس لكنه لم يكمل السادسة عشرة بعد. أظنّ أنني أنا من سيأخذ مكان العجوز هذا العام».

فردّ السيد سمرز بـ «صحيح»، وهو يدوّن ملاحظة على القائمة التي يحملها، ثم سأل: «هل سيسحب ابن واطسون هذا العام؟».

رفع فتى طويل من الحشد يده منادياً: «هنا، سأقوم بالسحب عن أمي وعن نفسي». رفّ بعينيه بتوتر وخفض رأسه مع تعالي أصوات عديدة من الحشد تقول مثل: «جيد يا ولد»، و«سعيد أن أرى لوالدتك رَجلاً يقوم بذلك».

وعندها أعلن السيد سمرز: «حسناً، أعتقد أن الجميع هنا. لكن هل حضر العجوز وارنر؟».

«نعم هنا»، خرج صوت من الحشد. فأومأ السيد سمرز.

ما إن تنحنح السيد سمرز ونظر إلى قائمته حتى حلّ صمت مفاجئ على الحشد. لينادي بعدها: «جاهزون؟... سأقرأ الأسماء الآن – أرباب الأسر أولاً– وعندها على الرجال المجيء وأخذ ورقة من الصندوق. أبقوا الأوراق مطوية في أيديكم من دون النظر إليها حتى ينتهي دور الجميع. هل كلّ شيء واضح؟».

ولأنهم قاموا بذلك مرات عدة، أعطوا نصف انتباههم للتعليمات، وقد تحلّى معظمهم بهدوء تخلّله تلمظهم بشفاههم، من دون أن يحيدوا عن نظراتهم الثابتة. عندها رفع السيد سمرز يده عالياً في الهواء وقال: «آدمز». خرج الرجل من الحشد واتجه نحوه: «مرحباً ستيف»، خاطبه السيد سمرز، فأجابه السيد آدمز: «مرحباً جو». وابتسم بعضهما لبعض ابتسامة عريضة اجتمعت فيها البشاشة مع التوتر. ثم اقترب السيد آدمز من الصندوق الأسود وأخرج ورقة مطوية. أمسكها بحزم من زاوية واحدة وهو يستدير، ويعود

مسرعاً إلى مكانه في الحشد، حيث وقف بعيداً قليلاً عن عائلته، من دون أن ينظر إلى يده.

«ألن»، نادى السيد سمرز. «أندرسون... بينثام».

«كأنه ما من زمن يفصل بين سحب وآخر»، قالت السيدة ديلاكوا للسيدة غرافيز في الصف الخلفي. «كما لو أننا أجرينا السحب الماضي في الأسبوع الفائت فقط».

«الوقت يمرّ بسرعة بالتأكيد»، قالت السيدة غرافيز.

«كلارك... ديلاكوا».

«إنه دور رجلي العجوز»، قالت السيدة ديلاكوا حابسة أنفاسها وزوجها آخذ بالتقدم.

«دانبر»، نادى السيد سمرز، فذهبت السيدة دانبر بخطوات واثقة نحو الصندوق بينما نادت إحدى النساء: «امضي يا جيني»، وقالت أخرى: «ها هي تتقدم».

«دورنا التالي»، قالت السيدة غرافيز. وأخذت تراقب السيد غرافيز يمرّ من جانب الصندوق، ويحيّي السيد سمرز بجرأة ويختار ورقة من الصندوق. في هذه الأثناء، تراءت عبر الحشد أوراق صغيرة مطوية في أيادي الرجال الكبيرة وهم يقلبونها بتوتر، بينما وقفت السيدة دانبر وولداها معاً، وأمسكت قصاصة الورق.

«هاربرت... هَتْشينسون».

«قم نط إلى هناك يا بيل»، قالت السيدة هَتْشينسون. وأخذ الناس قربها بالضحك.

«جونز».

«يقولون إن أهالي القرية الشمالية يتداولون أمر التخلّي عن اليانصيب»، أخبر السيد آدمز العجوز وارنر.

شخر العجوز وارنر قائلاً: «ثلة من الحمقى المجانين، ينصتون إلى شبانهم، أولئك الذين لا يعجبهم شيء. على هذا المنوال، سيكون مطلبهم التالي العودة إلى العيش في الكهوف، إذ لم يعد أحد يعمل، ويعيشون هكذا منذ مدة. ألا تعرف المثل القائل: (دع اليانصيب في حزيران، والذرة تكتنز وتزدان). أول ما نتعلمه هو أننا سنبقى نأكل عشب الطير والبلوط، كما سيبقى

اليانصيب على الدوام». وأضاف بلطف: «يكفيني سوءاً أن أرى الشاب جو سمرز هناك يمازح الجميع».

«لقد تخلّوا في عدد من الأمكنة عن اليانصيب بالفعل»، قالت السيدة آدمز.

«ليس في ذلك غير المتاعب»، أجاب العجوز وارنر بثبات. «ثلة من الشباب الحمقى».

«مارتن». وشاهد بوبي مارتن والده يتقدم. «أوفرديك... يرسي».

«أتمنى لو يستعجلون»، قالت السيدة دانبر لابنها الأكبر. «أتمنى لو يستعجلون».

«لقد انتهوا تقريباً»، قال ابنها.

«استعد للركض لإخبار أبيك»، قالت السيدة دانبر.

نادى السيد سمرز اسمه ليتقدم بعدئذٍ بحرص ويسحب ورقة من الصندوق. ثم نادى باسم «وارنر».

«لسبع وسبعين سنة شاركت في اليانصيب»، قال السيد وارنر وهو يمضي بين الحشد. «لسبع وسبعين مرة».

«واطسون»، فحضر الفتى الطويل مرتبكاً عبر الحشد. ناداه أحدهم: «لا تتوتر يا جاك»، وقال السيد سمرز: «خذ وقتك يا بني».

«زانيني».

بعدئذٍ، حلّ سكون طويل، سكون حبست فيه الأنفاس، وتواصل إلى أن قال السيد سمرز رافعاً ورقته: «حسناً يا أصحاب». ومرّ وقت لم يأتِ أحد فيه بأدنى حركة، وأتبع ذلك بفتح جميع الأوراق المطوية. وشرعت جميع النساء فجأة بالتحدث دفعة واحدة، متسائلات: «من؟ من؟». «من حصل عليها؟». «هل حصلت عليها عائلة دانبر؟». «أم عائلة واطسون؟». ثم خرج صوت يقول: «إنه هَتْشينسون. إنه بيل»، «لقد نالها بيل هَتْشينسون».

«اذهب وأخبر أباك»، قالت السيدة دانبر لابنها الأكبر.

بدأ الناس يجولون بنظرهم بحثاً عن هَتْشينسون. وقف بيل هَتْشينسون بهدوء، محدقاً إلى ورقته في يده. فجأة صرخت تيسي هَتْشينسون بالسيد سمرز: «لم تمنحه الوقت الكافي ليأخذ الورقة التي أرادها. لقد رأيتُك. لم يكن ذلك عادلاً!».

«تحلَّي بالروح الرياضية يا تيسي»، قالت السيدة ديلاكوا، في حين قال السيد غرافيز: «لقد حصلنا جميعاً على الفرصة ذاتها».

«اخرسي يا تيسي»، قال بيل هَتْشينسون.

«حسناً يا جماعة»، تحدث السيد سمرز: «لقد جرى ذلك بسرعة، والآن من الأفضل أن نسرع أكثر قليلاً لننتهي في الوقت المحدّد». عاد إلى قائمته التالية ثم تحدث موجهاً كلامه إلى بيل: «لقد سحبت عن عائلة هَتْشينسون. فهل لديك أيّ أسرٍ أخرى في عائلة هَتْشينسون؟».

صاحت السيدة هَتْشينسون: «هناك دون وإيڤا، دعهما يجرّبان!».

أجابها السيد سمرز بلطف: «الفتيات تسحبن مع عائلات أزواجهن يا تيسي، أنت تعرفين ذلك كما يعرفه الجميع».

«هذا ظلم»، قالت تيسي.

قال السيد هَتْشينسون بأسف: «لا، ما من أُسرٍ أخرى، فابنتي تسحب مع عائلة زوجها؛ لقد كان ذلك عادلاً. ليس لديَّ أيّ عائلة أخرى غير أولادي».

«حسناً، فإن كان السحب عن العائلات، فإنه أنت، وإن كان السحب عن المتفرع عنها فإنه أنت أيضاً، أليس كذلك؟». قال السيد سمرز.

«صحيح»، أجاب بيل هَتْشينسون.

«كم ولداً يا بيل؟». سأله السيد سمرز بصيغة رسمية.

«ثلاثة».

«بيل الابن ونانسي ودايف الصغير وأنا وتيسي».

«حسناً إذن»، قال السيد سمرز وتابع: «بسرعة، هل أعدتم أوراقكم؟».

أومأ السيد غرافيز ورفع قصاصات الورق: «ضعها في الصندوق إذن»، أمره السيد سمرز.

«خذ ورقة بيل وضعها في الصندوق».

«أظنّ أنه يجب علينا إعادة السحب»، قالت السيدة هَتْشينسون بقدر ما استطاعت من ضبط النفس. «أقول لكم إنه سحب ظالم. فأنتم لم تمنحوه وقتاً كافياً ليختار. الجميع رأى ذلك».

جمع السيد غرافيز قصاصات الورق الخمس ووضعها في الصندوق،

ورمى جميع الأوراق الأخرى ما عداها على الأرض، فحملها النسيم وطارت في مهبّ الريح.

حدثت السيدة هَتْشينسون كلّ من حولها منادية: «اسمعوا جميعاً».

إلّا أن السيد سمرز سأل بيل: «هل أنت جاهز؟». فألقى بيل هَتْشينسون نظرة سريعة على زوجته وأولاده. وأومأ.

أكمل السيد سمرز شارحاً: «تذكروا أن تأخذوا قصاصات الورق وتبقوها مطوية حتى يحصل كلّ منكم على واحدة. هاري، ساعد دايف الصغير». أمسك السيد غرافيز يد الصبي الصغير، الذي أتى معه عن طيب خاطر. «اسحب ورقة من الصندوق، دايفي»، قال السيد سمرز. وضع دايفي يده داخل الصندوق وضحك. بادره السيد سمرز قائلاً: «خذ ورقة واحدة فقط. هاري، أمسك بها أنت عنه». أمسك السيد غرايفز يد الطفل وأخذ الورقة المطوية من قبضته المحكمة وأمسك بها، بينما وقف دايف الصغير بجانبه ونظر إليه متعجباً.

«دور نانسي»، قال السيد سمرز. كانت نانسي في الثانية عشرة من عمرها، وتنفس أصدقاؤها في المدرسة بصعوبة أثناء تقدمها وهي تفتل تنورتها لتسحب قصاصة من الصندوق. «بيل الابن»، نادى السيد سمرز، واقترب بيلي بوجهه الأحمر وقدميه الكبيرتين، وأسقط الصندوق بينما يسحب الورقة منه. «تيسي» نادى السيد سمرز. تردّدت لدقيقة، نظرت حولها بتحدٍّ ثم زمّت شفتيها وصعدت نحو الصندوق. انتزعت ورقة وأمسكت بها.

قال السيد سمرز، «بيل»، فاقترب بيل هتشينسون من الصندوق وتحسّس داخله إلى أن أمسكت يده في النهاية بقصاصة الورق المتبقية فيه.

كان الحشد هادئاً. همست فتاة: «آمل ألّا تكون نانسي»، فوصل صوت الهمس حتى آخر الحشد.

«ليست تلك الطريقة المعهودة»، قال العجوز وارنر بصوت مسموع: «لم يعد الناس كما كانوا».

«حسناً»، قال السيد سمرز: «افتحوا الأوراق. هاري، افتح ورقة الصغير دايف».

فتح السيد غرايفز قصاصة الورق فسرت تنهيدة جماعية بين الحشد حين

رفعها، وتمكن الجميع أن يروا أنها فارغة. نانسي وبيل الابن فتحا ورقتيهما في الوقت نفسه، فابتهج كلاهما وضحكا وهما يستديران للحشد رافعين قصاصتيهما من الورق فوق رأسيهما.

نادى السيد سمرز: «تيسي»، فحلّ الصمت، وعندها نظر إلى بيل هتشينسون، ففضّ بيل ورقته وعرضها ليروها وقد كانت خالية.

«إنها تيسي»، قال السيد سمرز وقد غصّ صوته... «أرنا ورقتها يا بيل». ذهب بيل إلى زوجته وأخرج الورقة من يدها بالقوة وقد كانت تحمل البقعة السوداء، البقعة السوداء التي رسمها السيد سمرز في الليلة الفائتة بقلم رصاص غامق في مكتب شركة الفحم. رفعها بيل هتشينسون عالياً، وسرى الهيجان في الحشد.

«حسناً يا جماعة»، قال السيد سمرز: «لننهِ الأمر بسرعة».

رغم أن القرويين نسوا الطقوس وأضاعوا الصندوق الأسود الأصلي، إلّا أنهم ما زالوا يتذكرون استخدام الحجارة. كانت كومة الحجارة التي جمعها الأولاد جاهزة؛ وتناثرت حجارة على الأرض مع قصاصات الورق المبعثرة بعد إخراجها من الصندوق. اختارت ديلاكوا حجراً كبيراً تطلّب أن تحمله بكلتا يديها وتوجهت إلى السيدة دانبر بقولها: «هيّا، لنسرع».

جمعت السيدة دانبر حجارة صغيرة في كلتا يديها، وقالت بنفسٍ متقطّع: «لا أستطيع الركض على الإطلاق. امضي فيما تفعلين وسأتبعك».

تزوّد الأطفال بالحجارة وأعطى أحدهم بعض الحصى لدافي هتشينسون الصغير.

كانت تيسي هتشينسون وسط حلقة خالية الآن، وقد مدّت يديها بيأس بينما يقترب أهالي القرية منها. وأخذت تنادي: «هذا ظلم»، فإذا بحجر يصيب أحد جانبي رأسها. أخذ الرجل العجوز وارنر يدعو الحشد: «هيّا، هيّا جميعكم». تقدّم ستيف آدامز الحشد بجانب السيدة غرافيز.

«ليس عدلاً، هذا ظلم»، صرخت السيدة هتشينسون، وحينها انقضّوا عليها.



-V-
خاتمة

.. وطأت قدمها السفينة..
ما من بحارة وقعت عليهم بنظر،
لكن الإبحار أوه كما المشي على الحرير،
والصواري أوه عُشِّقت بالذهب.

لم تبحر فرسخاً، فرسخاً
فرسخاً، بل انسابت ثلاثاً،
وحين تبدت قسمات الأسى
تعكّر صفو الرؤية.

لم يبحروا فرسخاً، فرسخاً
فرسخاً، بل انسابوا ثلاثاً،
إلى أن تراءى حافر الشيطان
وبكت بمرارة.

«أمسكي عن البكاء»، قال،
«صبّريني من بكائك الآن،
وسأريك الليلك يتفتح على ضفاف إيطاليا».

«أيّ التلال أنت، التلال الجميلة،

تلك التي تشرق الشمس عليها بعذوبة؟
أنت تلال الجنة، قال،
حيث لن تظفري أبداً».

«أيّ جبل أنت، قالت،
فجميعها موحشة مغمورة بالثلوج والصقيع؟
أنت جبل جهنم، صرخت،
أينما تكون سأمضي».

ضرب الصاري الأمامي بيده،
والخلفي بركبته،
وكسر السفينة الغراء إلى نصفين،
وأغرقها في البحر.

من «جيمس هاريس»،
عشيقة الشيطان (غنائية الطفل رقم 243)

المحتويات


مكتبة
t.me/soramnqraa

إنها شيرلي جاكسون (1916 - 1965) الكاتبة وربة البيت والساحرة. إنها الأم الطيبة التي تنكبّ ليلاً على دراسة الشرّ. لقد ألّفت أكثر من مئتي قصة قصيرة، وستّ روايات، وكتبت مئات الرسائل لأمها، وتزوجت الناقد الأدبي ستانلي هيمن، وأنجبت منه أربعة أولاد، أحبّتهم جميعاً، وأحبّت القطط والكلاب، وشربت ما لا يحصى من قناني الويسكي والبوربون، ودخّنت عدداً لامتناهياً من السجائر، وتناولت طيفاً واسعاً من المسكّنات والمهدئات، وماتت وهي نائمة بنوبة قلبية، ولم تتجاوز الخامسة والأربعين من عمرها.

هذا تلخيص مكثّف لحياة جاكسون!

قد يكون مرعباً!

لا أعرف!

أو أنني أعرف ما يدفعني إلى مطالبتكم بنقيض حياة جاكسون الخاطفة، ألا وهو التروّي في مقاربة ما هو مرعب في قصص هذه المجموعة الأشهر لجاكسون، من دون اتخاذ احتياطات مسبقة، أو الإفراط في استنفار الحواسّ، فلكلّ شيء أوانه وفق منطق القصّ لدى جاكسون، وهي لا تستعجل شيئاً من الأحداث والوقائع، وتخوض غمار التفاصيل، ففي الحياة التي ترصدها منعطفات لنا أن نحبس أنفاسنا فيها لهنيهة كأنها الدهر.

إنها قصص حدثت بين أربعة جدران في شقة أو مكتب أو مطعم في نيويورك، أو في مطابخ أمهات ريفيات، أو انتقلن من المدينة إلى الريف.

الريف منغلق، ومتخلف، وعنصري. المدينة وحش لا يروّض. إنها قصص قد تصبح فيها امرأة عاجزة عن العودة إلى شقتها التي لا يفصلها عنها سوى ممرّ مشاة، ولا شيء يعيقها سوى ذاتها، كما أن إقدام كلب على قتل دجاجات الجيران قد يؤدي إلى اكتشاف كَمٍّ من الوحشية في براءة الأطفال... إنها قصص تتحول فيها ضربة حظّ إلى ضربة هلاك.